ترجمان

مارڤن هاريس

مقدّسات ومحرّمات وحروب

ألغاز الثقافة

ترجمة: أحمد م. أحمد

مكتبة
الفكر الجديد
24-03-2018

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

مقدّسات ومحرّمات وحروب

ألغاز الثقافة

مكتبة
الفكر الجديد

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

مكتبة الفكر الجديد

مقدّسات ومحرّمات وحروب

ألغاز الثقافة

مارڤن هاريس

ترجمة

أحمد م. أحمد

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

مكتبة الفكر الجديد

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

هاريس، مارڤن، 1927-2001
مقدّسات ومحرّمات وحروب: ألغاز الثقافة/ مارڤن هاريس؛ ترجمة أحمد م. أحمد.
288 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)
يشتمل على ببليوغرافية (ص. 255-261) وفهرس عام.
ISBN 978-614-445-130-4
1. العرف. 2. العادات والتقاليد. 3. الطقوس الدينية. 4. السحر في الدين والفولكلور. 5. العقائد. أ. أحمد، أحمد م. ب. العنوان. ج. السلسلة.
392

هذه ترجمة لكتاب
Cows, Pigs, Wars and Witches: The Riddles of Culture
by Marvin Harris

عن دار النشر
Random House New York, 1974

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 837 991 1 00961 فاكس: 00961 1 991839
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، شباط/ فبراير 2017

مكتبة الفكر الجديد

المحتويات

مقدمة..... 7

تمهيد..... 11

الأم البقرة..... 15

محبّو الخنزير وكارهوه..... 39

الحرب البدائية..... 63

الذكر الهمجي..... 85

مهرجان الشتاء..... 109

عقيدة الأحمال الوهمية..... 131

المخلِّصون..... 151

سرّ أمير السلام..... 173

عصي المكانس ومجمع السّحَرة..... 199

هوس السحر الأكبر..... 215

عودة الساحرة..... 231

خاتمة..... 249

المراجع..... 255

فهرس عام..... 263

مكتبة الفكر الجديد

مقدمة[1]

أنهيتُ للتوّ محاولتي إقناع صفٍّ من الجامعيين أنّ ثمة تفسيرًا عقلانيًا لتحريم الهندوس ذبحَ البقرة. كنت على يقين من أنني قد استبقت أيّ اعتراض يمكن أن يخطر على بال. ومشرِقًا بابتسامة الواثق، سألتُ إن كان لدى أحدهم سؤال ما، وإذ بشاب متحمس يرفع يده سائلًا: «لكن ماذا عن تحريم اليهود للخنزير؟».

بعد شهور تلَتْ شرعتُ ببحثٍ غايته تفسير كراهية كلٍّ من اليهود والمسلمين للخنزير. استغرق الأمر مني ما يقارب السنة قبل أن أكون جاهزًا لاختبار أفكاري مع لفيف من الزملاء. وحالما أنهيت كلامي، قال صديق لي متخصص [بدراسة] هنود أميركا الجنوبية: «لكن ماذا عن تحريم شعب التابيرابي[2] للحم الغزال؟».

هكذا انسحب الأمر على سائر هذه الألغاز التي حاولتُ أن أجد لها تفسيرًا عمليًا؛ إذ كلّما فرغتُ من تفسير عرف أو نمط حياة مبهم، يطلع أحدهم بسؤال آخر:

«حسنًا، لعلّ ذلك ينطبق على (مهرجان الشتاء)[3] لدى الكواكيوتل (Kwakiutl)، لكن كيف تفسّر طبيعة الحرب بين اليانومامو (Yanomamo)؟».

---

(1) الهوامش كلها هي من وضع المترجم أو المحرر.

(2) Tapirapé: قبيلة هندية برازيلية تستوطن أعماق الغابات المطيرة، نهر الأمازون، نجت من الغزو الأوروبي للبلاد، واستمرت على معظم ما كانت عليه ثقافتها وتقاليدها، إلا من تغيرات طفيفة.

(3) Potlatch: مأدبة سنوية مجانية يقيمها هنود شمال غرب كندا والولايات المتحدة. والكلمة تأتي من (أن نَهِبَ) أو (الهدية) في اللغة التجارية المستخدمة بين قبائل تلك المناطق.

مكتبة الفكر الجديد

«أظن أن ثمة نقصًا في البروتين هناك...».

«لكن ماذا عن عقيدة الأحمال[4] في نيو هِبْرايدز[5]؟».

إن تفسير أنماط الحياة شبيه برقائق البطاطا التي يصرّ الناس على تناولها حتى يفرغ الكيس.

هنا يكمن أحد الأسباب التي تُبرر لماذا لا يكفّ هذا الكتاب عن الانتقال من موضوع إلى آخر. من الهند إلى الأمازون، ومن المسيح إلى كارلوس كاستانيدا[6] (Carlos Castaneda). غير أن هناك بعض الفروق مقارنةً مع الكيس العادي لرقائق البطاطا. ولسبب وجيه أنصح بعدم سحب اللقمة الأولى التي تخيّب ما كان قد زيّنه خيالكم. فتفسيري للساحرات يقوم على تفسير المخلِّصين[7]، وتفسير المخلِّصين يقوم على تفسير «الرجال الرؤساء» الذي يقوم بدوره على تفسير التمييز بحسب الجنس (Sexism)، الذي يقوم على تفسير حبّ الخنزير الذي يقوم على تفسير كراهية الخنـزير الذي يقوم على تفسير حبّ البقرة. وهذا لا يعني أن العالم بدأ بحبّ البقرة، بل يندرج ضمن سعيي

---

(4) عقيدة الأحمال (cargo cults): ديانة ظهرت في أشكال ومناطق مختلفة من (جزر المحيط الهادئ) وعرفت أول مرة في (جزيرة غينيا الجديدة)، وانتشرت على نطاق واسع بعد الحرب العالمية الثانية. وتقوم الديانة على الاعتقاد أن عهدًا سعيدًا سيحلّ حين تعود أرواح الأسلاف جالبةً معها أحمالًا هائلة من البضائع والأدوات والآلات التي ظلّ (الأوروبيون) وحدهم يتمتعون بها ويستغلونها في حين حُرم السكان المحليون منها لشحة مواردهم المالية. وستوزع تلك الأحمال على أتباع الديانة، الأمر الذي سيؤدي إلى سعادتهم ورخائهم، وبالتالي إلى سيادتهم على العالم عوضًا عن الرجل الأبيض. وقام أتباع هذه الديانة ببناء مخازن واسعة، وموانئ لرسو السفن، ومهابط للطائرات، انتظارًا لتلك الأحمال. (بتصرف عن **قاموس الأنثروبولوجيا ـ إنكليزي ـ عربي**، الدكتور شاكر مصطفى سليم، الطبعة الأولى، جامعة الكويت 1981).

(5) New Hebrides: هو الاسم الذي أطلقه المستعمرون على مجموعة جزر في جنوب المحيط الهادئ.

(6) كان كارلوس أرانا كاستانيدا (1925-1998) كاتبًا أميركيًا من أصل بيروفي يحمل دكتوراه في الأنثروبولوجيا.

(7) يستخدم المؤلف كلمة Messiah (المسيح) المستوحاة من اللاهوت اليهودي والمسيحي، بمعنى «المخلص المنتظر».

مكتبة الفكر الجديد

الخاص لفهم بواعث أنماط الحياة، ومن هنا بدأتُ. لذلك أرجو أن لا تغرفوا منه بشكل عشوائي.

من الأهمية النظر إلى فصول هذا الكتاب على أنها مبنيّة بعضها فوق بعضها الآخر، وعلى أنها ذات مفعول تراكمي. بغير ذلك لن أكون بمنأى عن الضربات التي لا ريب سيكيلها إلي المتخصصون بعشرات الحقول وفروع المعرفة. فأنا أحترم المتخصصين وبودّي أن أتعلم منهم. لكنهم قد يكونون على قدر من إثقال الكاهل ما يوازي ذخيرتهم فيما لو حاولتَ الاعتماد على كثير منهم في آنٍ. هل سبق وحاولتَ أن تسأل متخصصًا بالهندوسية عن حبّ الخنزير في نيو غينيا، أو هيئةً ما في نيو غينيا عن كراهية الخنـزير بين اليهود، أو متخصصًا باليهودية عن المخلِّصين في نيو غينيا (غينيا الجديدة)؟ (إنها من طبيعة البهيمة أن تلتمس رقاقة بطاطا واحدة وحسب على مدار حياتها).

يكمن عذري في خوض المغامرة وسط فروع المعرفة والقارّات والقرون في أن العالم يمتدّ عبر هذه الفروع. ليس في الطبيعة ما هو بالغ الانفصال أكثر من كومتين من التخصصات.

أحترم عمل الزملاء المستقلين الذين ينشرون بدأب ويستكملون معارفَ قرنٍ أو قبيلة أو شخصية، لكنني أظن أن جهودًا كهذه كان يجب أن تكون أكثر تجاوبًا مع القضايا العامة والمقارَنة لحقل البحث. فالعجز الجليّ لمؤسستنا العلمية، المغالية في التخصص، عن أن تقول شيئًا مُحكمًا في ما يخص أنماط الحياة لا ينبع من لا شرعيةٍ جوهريةٍ ما لظاهرة أنماط الحياة، بل أظن أنها نتيجة منح الجوائز السخية للمتخصصين الذين لا يهددون حقيقةً تستند إلى نظرية. إن علاقة متكافئة كالتي برزت أحيانًا في الوقت الراهن ما بين كمٍّ البحث الاجتماعي وعمق الارتباك الاجتماعي قد تعني أمرًا واحدًا فقط وهو أن مجمل الأداء الاجتماعي لكل ذلك البحث يهدف إلى منع الناس من فهم قضايا حياتهم الاجتماعية.

يصرّ جهابذة المؤسسة العلمية على أن حالة الارتباك هذه ناجمة عن قصور الدراسات. ثم سرعان ما تُعقَد حلقة دراسية تستند إلى عشرة آلاف

مكتبة الفكر الجديد

رحلة ميدانية جديدة. لكن فهمنا سيقلّ ولن يزداد إذا بقي هؤلاء الزملاء على مسلكهم. ذلك أنه من دون استراتيجية تتوخى تجسير الهوة بين التخصصات وتنظيم المعارف الراهنة وفق خطوط متماسكة نظريًّا، فإن أي بحث جديد لن يؤدي إلى فهم أفضل لقضايا أنماط الحياة. وإذا سلكنا بنيّة طيبة سبيل التفسيرات العفوية، فلا بد في الحد الأدنى من أن تتكون لدينا فكرة أولية عن الموضع الذي يجب أن نبحث فيه ضمن الوقائع المحتملة التي لا تنضب من الطبيعة والثقافة. ويحدوني الأمل أن يُنظر يومًا ما إلى نتاجي على أنه مساهمة في تطوير استراتيجية كهذه – استراتيجية تتطلّع إلى «إبراز الموضع» الذي ينبغي أن ننظر فيه.

مكتبة الفكر الجديد

تمهيد

يبحث هذا الكتاب في أنماط من الحياة تبدو أول وهلة لاعقلانية وغير قابلة للتفسير. بعض هذه الأعراف المحيّرة يظهر بين الشعوب الأميّة أو «البدائية» – خذ مثلًا زعماء الهنود الحمر الأميركيين الذين يحرقون ممتلكاتهم كي يثبتوا كم هم أغنياء. وآخرون ينتمون إلى مجتمعات نامية، أقربهم إليّ الهندوس الذين يأبون أن يأكلوا لحم الأبقار ولو تضوّروا جوعًا. ومع ذلك لا يزال لدى الآخرين ما يقومون به تجاه المخلِّصين والساحرات وهم جزء من تيار حضارتنا الخاصة. وكي أبلور وجهة نظري، اخترتُ بأناة حالات شاذة وخلافية قد تلوح وكأنها ألغاز عصية على الحل.

يدّعي عصرنا أنه ضحية الجرعة الزائدة من العقل. ويجتهد العلماء بروح انتقامية، في محاولتهم البرهنة على أن العلم والمنطق لا يمكنهما تفسير التنوعات في أنماط الحياة البشرية. وهكذا يتفق مع هذه الصرعة ذلك الإصرارُ على أن الألغاز المدروسة في الفصول المقبلة ليس لها من حلّ. إن أرضية كثير من هذا التفكير الحالي المتعلق بمعضلات نمط الحياة قد مهدتْ له روث بنديكت في كتابها **أنماط الثقافة**. ذلك أن بنديكت في تفسيرها للفروق البارزة ضمن ثقافات الكواكيوتل والدوبوانز والزوني، تراجعت بناءً على أسطورة نسَبَتها إلى «الهنود الحفّارين». تقول الأسطورة: «أعطى الربّ لكل آدمي كأسًا، كأسًا من صلصال، ومن هذه الكأس شربوا حيواتهم... انغمر الجميع بالماء لكن كؤوسهم كانت مختلفة». وهذا يعني بالنسبة إلى كثيرين منذ ذلك الحين أن «الربّ» وحده يعلم لماذا أحرق الكواكيوتل بيوتهم. الأمر ذاته ينطبق على

مكتبة الفكر الجديد

امتناع الهندوس عن أكل لحم الأبقار، أو كره اليهود والمسلمين للخنـزير، أو لماذا يؤمن بعض الناس بالمخلِّصين بينما يؤمن آخرون بالساحرات. ثبّطَ الأثر العملي طويل الأمد لهذا الإيحاء البحثَ عن أنواع أخرى من التفسيرات. ولنكن واضحين منذ البداية: إذا كنتَ لا تؤمن بأن ليس من حلّ للغزٍ ما، فلن تجد هذا الحل على الإطلاق.

كي نفسّر العناصر المختلفة للثقافة يجب أن نبدأ بافتراض أن الحياة الإنسانية ليست نتاج نزوة أو محض عشواء؛ إذ من دون هذا الافتراض، سرعان ما سيثبت إغواء التراجع أنه لن يقاوَم حين نُجابَه بعرْفٍ أو مؤسسة يكتنفها الإبهام المستعصي. تبيّن لي على مدى سنوات أن أنماطَ الحياة التي اعتبرها الآخرون مطْبَقة الإبهام إنما كانت في واقع الأمر قضايا ذات دوافع إطلاقية مسبقة وسهلة الفهم. ويكمن السبب الرئيس في إغفال هذه الدوافع لأمد طويل في اقتناع الجميع أن «الله وحده يعلم الجواب».

السبب الآخر في أن الكثير من الأعراف والمؤسسات تبدو محيِّرة للغاية هو أننا لُقِّنا كيف نثمّن التفسيرات «المُرَوحَنة» (Spiritualized) التفصيلية للظاهرة الثقافية أكثر من التفسيرات الواقعية المادية. وهنا أشدّد على أن الحل لكل لغز سوف يُدرس في هذا الكتاب يكمن في فهم أفضل للأوضاع العملية. وسأبيّن أن حتى ما يلوح كأنه أكثر المعتقدات والممارسات غرائبية سينتهي بالتدقيق من كثب إلى أنه يرتكز على العاديّ والمبتذَل، على ما يمكن أن يقال إنه أطوار ومتطلّبات ونشاطات «سوقية». ما أعنيه بالحلّ العادي أو السوقي هو أنه يستند إلى الأرض وأنه نتاج تراكم الأحشاء والجنس والطاقة والريح والمطر، وباقي الظواهر المحسوسة والعادية.

هذا لا يعني أن الحلول التي سيتم عرضها بسيطة وواضحة بأي معنى كان. على الإطلاق. إنها مهمة عسيرة أن نستخرج العوامل المادية ذات الصلة من صميم الوقائع الإنسانية. فالحياة العملية تتلبس بالكثير من الأقنعة. وكلٌّ من أنماط الحياة يأتي مغلَّفًا بالأساطير والخرافات التي تلفت إلى الأحوال اللاعملية أو ما فوق الطبيعية. هذه الأغلفة تسِمُ الشعب بالهوية الاجتماعية

مكتبة الفكر الجديد

وبحسّ الغاية الاجتماعية، لكنها تخفي الحقائق العارية للحياة الاجتماعية. فالأضاليل حول البواعث الدنيوية للثقافة تثقل كاهل الوعي العادي كما طبقات من صفائح الرصاص. وليست مهمة سهلة على الإطلاق أن تراوغ وتتغلغل، أو تنهض بهذا الحمل الجائر.

في عصر توّاق إلى تجربة مغايرة وحالات متفوقة من الوعي، نميل إلى أن نغفل مدى ترتبك حياله حالة ذهننا العادية بشكل عميق، وعي منفصل بشكل يدعو إلى العجب عن الحقائق العملية للحياة. فلماذا يكون الأمر على هذا النحو؟

لسبب أول، هو أن هناك جهلًا. ذلك أن معظم الناس يحقق درايةً بشطر ضئيل وحسب في مجال من بدائل الحياة الاجتماعية. وكي تتمايز ملامحه من الأسطورة والخرافة ويخرج إلى وعي الطبيعة ينبغي لنا أن نقارن نسق ثقافات الماضي والحاضر بأكمله. إذًا، هناك الخوف من مواجهة وقائع مثل الشيخوخة والموت، وقد يكون الوعي الزائف المدافع الفاعل الوحيد. وفي النهاية، سيكون هناك تعارض، ففي الحياة الاجتماعية العادية يتحكّم ويستغلّ بعضُهم بعضًا باطّراد. وهذه المظالم على قدر من التقنّع والإرباك والبطلان كما التقدم في العمر والموت.

إن الجهل والخوف والتناقض هي العناصر الأساسية للوعي اليومي. ومن هذه العناصر يشكِّل الفن والسياسة آلية الحلم الجماعي تلك التي يتمثّل غرضها في منع الناس من فهم ماهية حياتهم الاجتماعية. وبذلك، فإن الوعي اليومي لا يسعه تفسير ذاته. إنه مدين بوجوده الصميم للمقدرة المتنامية على دحض الوقائع التي تفسّر وجوده. ولسنا ننتظر من الحالمين أن يفسروا أحلامهم؛ كما لا يجدر بنا أن ننتظر من المشتغلين في «أنماط الحياة» أن يفسروا أنماط حياتهم.

يتبنى بعض علماء الأنثروبولوجيا والتاريخ رأيًا مخالفًا. فهم يجادلون بأن تفسير هؤلاء المشتغلين يشكل حقيقة لا يدانيها الرّيب. يحذّرون أنه لا يجوز أن يُعامَل الوعي الإنساني على أنه «موضوع»، وأنه ليس للإطار

مكتبة الفكر الجديد

العلمي الملائم لدراسة الفيزياء والكيمياء علاقة وثيقة حين يُطبَّق على دراسة أنماط الحياة. حتى إن كثيرًا من دعاة «الثقافة المضادة» (Counter – Culture) الحديثة يلقون بتبعة مظالم التاريخ القريب وكوارثه على الإفراط في **التجسيد كشيء** (Objectification). يدّعي أحدهم أن وعي الهدف على الدوام يؤدي إلى فقدان «الحساسية الأخلاقية»، وبالتالي يتساوى لديه مسعى المعرفة العلمية بالخطيئة الأصلية.

لم يعد هناك ما هو أكثر عبثية. وقع الجوع والحرب والتمييز الجنسي والتعذيب والاستغلال على امتداد التاريخ وما قبل التاريخ – أمدًا طويلًا قبل أن تخطر لامرئٍ فكرة محاولة «تشييء» (جعلها شيئًا) الوقائع الإنسانية.

يظن بعض الناس المصابين بالخيبة جراء الآثار الجانبية للتكنولوجيا المتقدمة أن العلم هو «نمط الحياة المهيمن على مجتمعنا». ربما يكون هذا دقيقًا في ما يتعلق بالاحترام لمعرفتنا بالطبيعة، لكنه خاطئ بشكل مريع في ما يتعلق بمعرفتنا بالثقافة. فما دامت أنماط الحياة محطّ اهتمام، لا يمكن للمعرفة أن تكون خطيئة لأننا لا نزال ضمن حالتنا الأصلية من الجهل.

لكن دعوني أرجئ المزيد من النقاش حول دعاوى الثقافة المضادة حتى نهاية فصلي الختامي. واسمحوا لي بادئ الأمر أن أبيّن كيف يمكن إسباغ تفسير علمي على سلسلة من ألغاز أنماط الحياة. هناك القليل مما يمكن تحصيله من خلال الجدال حول نظريات غير مدعَّمة بوقائع وسياقات محدَّدة. وهنا ألتمس بعض التسامح فحسب. تذكروا من فضلكم أنني، كأي عالِم، أصبو إلى تقديم الحلول المرجحة والمنطقية، وليس اليقينيات. وعلى الرغم مما يعتريها من نقص، ينبغي أن تأخذ الحلولُ المرجحةُ الأسبقيةَ على عدم وجود حلول على الإطلاق؛ مثل أسطورة بنديكت عن الهنود الحفارين. وكأي عالِم، أرحّب بالتفسيرات البديلة، ما دامت تتوخّى على نحو أفضل معايير الدليل العلمي وتفسّر على منواله. وهكذا، هيا بنا إلى الألغاز.

مكتبة الفكر الجديد

الأم البقرة

مكتبة
الفكر الجديد

كلما خضتُ نقاشًا يدور حول تأثير العوامل العملية والدنيوية في أنماط الحياة، يأتي أحدهم ويقول: «لكن ماذا عن تلك الأبقار التي يأبى الفلاحون الفقراء في الهند أكلَها؟». إن صورة المزارِع الرثّ الذي يتضور جوعًا حتى الموت وهو قرب بقرة سمينة تسرِّب شعورًا مدغدغًا من الغموض لدى المتلقّين الغربيين. إنها، في ما لا يُعدّ ولا يحصى من أوهام مكتسَبة واسعة، تعزّز قناعتنا الأعمق بالكيفية التي يتحتم أن يتصرف وفقها أناسٌ بعقلياتهم الشرقية المبهمة. وإنه لمن المريح معرفة بعض أشياء مثل «سيكون هناك دائمًا إنكلترا»، إذ إن القيم الروحية في الهند أثمن من الحياة ذاتها. وفي الوقت نفسه تدفعنا إلى الشعور بالحزن. كيف يتسنى لنا أن نحلم بفهم بشر شديدي الاختلاف عنّا؟ يجد الغربيون فكرة إمكان التفسير الفعلي لحبّ الهندوس للبقرة أكثر إقلاقًا مما يجدها الهندوس. البقرة المقدسة – كيف أقولها بصيغة أخرى؟ – واحدة من أبقارنا المقدسة الأثيرة.

يبجّل الهندوس الأبقار لأنها رمز كل شيء حيّ. فكما مريم بالنسبة إلى المسيحيين هي أمّ الله، كذلك البقرة بالنسبة إلى الهندوسي هي أمّ الحياة، ولن يكون هناك أشدّ رجسًا للهندوسي من قتل بقرة. على الرغم من أن النيل من نفس إنسانية يفتقر إلى المدلول الرمزي، فإن الَهْتك العصيّ عن الوصف، هو المتجلي في ذبح البقرة.

وفق خبراء كثر، تُعتبر عبادة البقرة السبب الأول للجوع والفقر في الهند. يقول بعض المهندسين الزراعيين ممن تلقوا تدريبهم في الغرب إن التحريم الذي ينهى عن ذبح البقرة يخلف مئة مليون حيوان «عديم النفع» على قيد الحياة. ويزعمون أن عبادة الأبقار تخفض من فاعلية الزراعة لأن الحيوانات عديمة النفع لا تقدّم الحليب أو اللحوم، في حين أنها تنافس من أجل الأراضي الزراعية والمواد الغذائية حيوانات مفيدة وبشرًا جائعين. وخلصت دراسة برعاية

مكتبة الفكر الجديد

مؤسسة فورد في عام 1959 إلى احتمال أن نصف قطيع الهند يمكن أن يُعتبَر فائضًا في ما يتعلق بالحاجة الغذائية. وكتب اقتصاديٌّ من جامعة بنسلفانيا في عام 1971 أن الهند تمتلك ثلاثين مليون بقرة غير منتجة.

يبدو جليًّا أن هناك أرقامًا كبيرة من الحيوانات الفائضة وعديمة النفع وغير الاقتصادية، وهذه الحالة هي نتيجة مباشرة للتعاليم الهندوسية اللاعقلانية. يقف السياح مشدوهين في أثناء تجوالهم في دلهي وكالكوتا ومدراس ومومباي ومدن الهند الأخرى أمام مدى الحرية المتاحة لقطيع شارد، إذ تهيم الحيوانات في الشوارع وترعى من أكشاك البيع في السوق وتقتحم الحدائق الخاصة وتخلّف روثها على الأرصفة وتعقّد حركة المرور بينما تتأنى لتلوك طعامها المجترّ في منتصف التقاطعات المزدحمة. وفي الريف، يحتشد قطيعها على حافات الطرق السريعة كلها وتمضي كثيرًا من وقتها وهي تمشي الهوينى على قضبان السكة الحديد.

إن حبّ البقرة يكلف الحياة بأوجه شتى. فالوكالات الحكومية تنفق على دُور رعاية الأبقار التي يكسوها مالكوها بألواح الخشب بالمجان من أجل حيواناتهم العجفاء والهرمة. وفي مدراس، تلمّ الشرطة شمل قطيع سائب أصابه المرض فتتعهده بالرعاية حتى يستعيد العافية بتركه يرعى في حقل صغير متاخم لمبنى المحطة. ويعتبر المزارعون أبقارَهم بمنزلة أعضاء من العائلة، يزينونها بأطواق الزهر والشرّابات، يصلّون لأجلها حين يصيبها المرض، وينادون جيرانهم وكاهنًا ما كي يحتفلوا بمولد عجل جديد. وفي كل مكان من الهند، يعلّق الهندوس على جدرانهم التقاويم التي تصور صبايا فاتنات مرصعات بالحلي لهن أجسام بقرات بيضاوات سمينات، وبان الحليب متدفقًا من كل حلمة لِـهؤلاء الربّات نصف النساء، نصف البقرات الدربانية[1].

بصرف النظر عن الوجه البشري الجميل، تنطوي الصور الجدارية للبقرة على بعض التشابه مع البقرة النمطية التي يراها المرء في اللحم. ففي معظم

(1) Zebu: البقرة ذات السنام، أو البقرة الدربانية.

مكتبة الفكر الجديد

أيام السنة تبقى عظامها معْلَمَهم الأكثر بروزًا. وبمعزل عن الحليب المتدفق من كل حلمة، فإن البهائم الهزيلة بالكاد تستمر في إرضاع عجل واحد حتى يصل إلى سن النضج. إن معدل إنتاجية إجمالي الحليب لبقرة تكاثُر دربانية في الهند يبلغ أقل من 500 رطل في السنة. بينما ينتج قطيع الألبان العادي في أميركا أكثر من 5000 رطل، وبالنسبة إلى أبطال إنتاج الحليب فإن 20000 رطل ليس رقمًا خارقًا. بيد أن هذه المقارنة لا تحكي القصة الكاملة. ففي سنة ما من السنوات لم تدرّ نصف أبقار الهند الدربانية الحليب على الإطلاق؛ لا قطرة واحدة منه.

ما يجعل الأمور أكثر سوءًا، أن حبَّ البقرة لا يحفّز على حب الإنسان. وبما أن المسلمين يزدرون الخنزير فإنهم يأكلون لحم العجل، لذا يعتبرهم كثيرون من الهندوس قتَلَةَ أبقار. فقبل انقسام شبه القارة الهندية إلى الهند وباكستان، أصبحت النزاعات الطائفية الدامية الرامية إلى منع المسلمين من قتل الأبقار من الحوادث السنوية. ذكريات نزاع الأبقار القديم – إن ذكريات نزاع بيهار في عام 1917 حين مات ثلاثون شخصًا وسُلبتْ 170 قرية مسلمة حتى عضادة الباب – تُستعاد لتزيد من مرارة العلاقات بين الهند وباكستان.

على الرغم من أن المهاتما غاندي استنكر النزاعات، إلا أنه كان مؤيدًا متحمسًا لحب البقرة وطالَب بالحظر الكامل على ذبحها. وعندما وُضع الدستور الهندي، تضمن شرعة حقوق الأبقار التي أبطلت بعد فترة قصيرة من التحريم أيّ صيغة لقتل البقرة. منذ ذلك الحين حظرت بعض الولايات ذبح الأبقار بشكل كلّي، إلا أن بعضها الآخر لا يزال يجيز الاستثناءات. تبقى مسألة البقرة السبب الرئيس للنزاعات والاضطرابات، ليس بين الهندوس وما بقي من المجتمع المسلم، بل بين حزب المؤتمر الحاكم والفئة الهندوسية المتعصبة من محبي البقرة. ففي السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1966، تظاهر حشد ضد ذبح الأبقار بلغ 120000 شخص، أمام مبنى البرلمان الهندي، تتقدمه فرقة غنائية ورجال دين عراة مكسوّون بأكاليل زهر القطيفة ومعفّرون برماد روث الأبقار الأبيض. وقُتل ثمانية أشخاص وأصيب ثمانية وأربعون في أثناء الشغب الذي أعقب

مكتبة الفكر الجديد

التظاهرة. وتبع ذلك موجة صيام على مستوى الأمة بين رجال الدين، قادها موني شوستريل كومار، رئيس لجنة عموم الأحزاب في حملة حماية البقرة.

بالنسبة إلى المراقبين الغربيين ذوي الدراية بالأساليب الصناعية العصرية للزراعة وارتفاع أسعار الأسهم، فإن حب البقرة يبدو عديم الجدوى، بل حتى انتحاريًّا. يتطلّع خبير الكفاءة لأن يضع يده على سائر تلك الحيوانات عديمة الفائدة ويشحنها إلى مصير أكثر جدوى. مع ذلك يجد المرء تقلبات لا ريب فيها بما يتعلق بإدانة حب البقرة. فعندما بدأتُ أتساءل إن كان هناك تفسير عملي للبقرة المقدسة، وقعتُ مصادفةً على تقرير حكومي مثير للفضول، جاء فيه أن الهند تمتلك عددًا كبيرًا جدًّا من البقر وعددًا قليلًا جدًّا من الثيران. بهذا القدر الكبير من البقر هنا وهناك، كيف يمكن أن يحصل نقص في الثيران؟ فالثيران وذكور جاموس الماء هي المصدر الرئيس للجرّ وحراثة حقول الهند، إذ يكفي زوج من الثيران أو جاموس الماء لخدمة مزرعة مساحتها 10 فدادين أو أقلّ. وتبيّن عملية حسابية بسيطة أن بقدر ما هي الحراثة محطّ اهتمام، هناك نقص مشهود في عدد الحيوانات بدلًا من وفرتها. ففي الهند 60 مليون مزرعة، لكن هناك 80 مليون حيوان للجرّ فقط. فإذا كان لكل مزرعة حصتها المؤلفة من ثورين أو جاموسيّ ماء، يجب أن يكون هناك 120 مليون حيوان جرّ – ما يعني نقصًا يقدَّر بـ 40 مليونًا مما هو متوافر بالفعل.

قد لا يكون النقص على هذا القدر من السوء إذا أخذنا في الحسبان أن بعض المزارعين يستأجر أو يستعير الثيران من جيرانه. لكن التشارك في حيوانات الحراثة غالبًا ما يثبت أنه غير عملي. فالحراثة يجب أن تكون متوافقة مع الأمطار الموسمية، وبحلول هذا الوقت ستكون المزرعة قيد الحراثة، وسيكون الوقت الأمثل لحراثة مزرعة أخرى قد فات. كذلك، بعد أن تنتهي الحراثة، سيبقى المزارع بحاجة إلى ثورَيه كي يجرّا عربته، وهما عماد معظم التنقلات على امتداد الريف في الهند. من المحتمل جدًّا أن الملكية الخاصة للمَزارع والماشية والمحاريث وعربات النقل تخفض كفاءة الزراعة الهندية، لكنني سرعان ما أدركتُ أن هذا لم يكن بسبب حب البقرة.

مكتبة الفكر الجديد

يُعد النقص في حيوانات الجرّ التهديد الجدي الذي يحيق بمعظم عائلات مزارعي الهند. وعندما يقع ثور ضحية المرض، فإن فلاحًا سيقع تحت خطر خسارة مزرعته. وإذا لم يكن لديه بديل منه، فعليه أن يستدين المال بمعدلات ربوية. وفي الواقع، خسرت ملايين الأسر القروية أراضيها كلَّها أو بعضها، ولجأت إلى الـمُزارَعة (Sharecropping) أو العمل المياوم نتيجة ديون كهذه. وفي كل عام ينتهي الأمر بمئات الآلاف من المزارعين المعدمين وهم مهاجرون إلى المدن، الزاخرة بطبيعة الحال بالأفراد العاطلين من العمل والمشردين.

إن المزارع الهندي الذي لا يستطيع إيجاد بديل لثوره المريض أو الميت لفي موقف يشبه إلى حد بعيد المزارع الأميركي الذي لا يستطيع بدوره استبدال جرّاره المعطَّل أو إصلاحه. غير أن هناك فارقًا مهمًّا: الجرارات تُنتَج بوساطة المعامل، لكن الثيران تُنتَج بواسطة الأبقار. والمزارع الذي يمتلك بقرة يمتلك مصنعًا لصناعة الثيران. ومع حبّ البقرة أو من دونه، يُعتبر ذلك سببًا وجيهًا له كي لا يكون قلقه بالغًا من بيع بقرته إلى المسلخ. وهنا يبدأ المرء بإدراك واقع أن المزارع الهندي مستعد لأن يتحمل عن طيب خاطر أبقارًا لا تدرّ أكثر من 500 رطل من الحليب في العام. وإذا كان الدور الاقتصادي الرئيس للبقرة الدربانية يقتصر على أن تلد حيوانات الجرّ الذكور، فلا معنى حينها من مقارنتها بالحيوانات الأميركية المخصصة لإدرار الحليب. مع ذلك، فإن الحليب المستَدَر من الأبقار الدربانية يؤدي دورًا حيويًّا في الوفاء بالحاجات الغذائية لكثير من العائلات الفقيرة. حتى الكميات الشحيحة من منتوجات الحليب يمكن أن تحسّن صحة أناس مرغمين على العيش وهم على حافة الموت جوعًا.

عندما يحتاج المزارعون الهنود حيوانًا بقصد الحليب في المقام الأول فإنهم يلجأون إلى أنثى جاموس الماء التي تتميز بفترات إرضاع أطول وعائدات من زبدة الحليب أعلى مما لدى البقرة الدربانية. كذلك، فإن ذكور جاموس الماء، بدورها، حيوانات أكثر تفوقًا في الحراثة ضمن حقول الأرز المغمورة بالمياه. غير أن للثيران استخدامات أكثر وهي المفضلة في زراعة الحقول الجافة والنقل

مكتبة الفكر الجديد

البري. علاوة على ذلك، فإن سلالات البقرة الدربانية قوية البنية بشكل ملحوظ، ويمكنها احتمال فترات الجفاف التي تُبتلى بها دوريًّا بقاعٌ عدة من الهند.

الزراعة جزء من منظومة هائلة من العلائق البشرية والطبيعية. وبالتالي، فإن تكوين رأي حول أجزاء منفصلة من هذا «النظام البيئي» (Ecosystem) وفق مصطلحات وثيقة الصلة بأداء الأعمال الزراعية الأميركية، يقودنا إلى انطباعات على درجة عالية من الغرابة؛ إذ تتمظهر الماشية في النظام الإيكولوجي الهندي بأساليب من النوع الذي يمكن أن يقوم المراقبون من المجتمعات الصناعية عالية الطاقة بتهميشه أو الحط من قدره بكل بساطة. ففي الولايات المتحدة تكاد المواد الكيماوية تحلّ بشكل تام محلّ روث الحيوان، وهو مصدر رئيس لسماد المزارع. وتوقف المزارعون الأميركيون عن استعمال الروث عندما بدأوا الحراثة بوساطة الجرارات بدلًا من البغال أو الأحصنة، حيث إن الجرارات تفرز السموم بدلًا من الأسمدة، فإن الالتزام بزراعة آلية واسعة هو على نحو ما التزام باستخدام الأسمدة الكيماوية. وفي الواقع نمت في العالم في الوقت الحاضر المجمّعات الصناعية لتصنيع الجرّار – الشاحنة البتروكيماوية الضخمة المتكاملة، تلك المجمعات التي تنتج الآلات الزراعية ووسائل النقل الآلية والوقود والزيوت والأسمدة الكيماوية والمبيدات التي تعتمد عليها الأساليب الإنتاجية الجديدة عالية المردود.

لحسن الحظ أم لسوئه، لا يستطيع معظم مزارعي الهند نيل حصة من هذا المجمع، ليس لأنهم يعبدون أبقارهم، بل لأنهم لا يستطيعون تحمّل عبء شراء الجرارات. وكأي أمة أخرى في طور النمو، ليس بمقدور الهند بناء مصانع تنافس منشآت الأمم الصناعية، ولا أن تنفق على شراء كميات ضخمة من المنتوجات الصناعية المستوردة. كما أن تحوّلها من استخدام الحيوان والروث إلى استخدام الجرارات والبتروكيماويات سيتطلب استثمار كميات كبيرة من رؤوس الأموال. ومن ناحية أخرى، فإن الأثر الذي لا مفر منه الناجم عن إحلال الآلات المكلفة محل الحيوانات الرخيصة سيكون في خفض عدد الناس الذين يمكنهم كسب عيشهم من الزراعة، وفي فرض زيادة في المقابل على مساحة أراضي المزرعة

مكتبة الفكر الجديد

العادية. ندرك أن تطوير الأعمال الزراعية الواسعة في الولايات المتحدة إنما يعني التدمير العملي للمزرعة العائلية الصغيرة؛ إذ يعيش ما لا يزيد على 5 في المئة من العائلات الأميركية في المزارع، مقارنةً بـ 60 في المئة قبل مئة عام. وإذا كان للأعمال الزراعية في الهند أن تتطور بالمنحى نفسه فإنه ينبغي تأمين الوظائف والسكن لربع مليار فلاح نازح.

حيث إن المعاناة الناجمة عن البطالة والتشرد في مدن الهند باتت لا تطاق بطبيعة الحال، فإن أيّ تراكم هائل إضافي للسكان الحضريين يمكن أن يؤدي إلى غليان وكوارث لا مثيل لها.

بهذا الخيار البديل من المشهد، يصبح من الأسهل أن نفهم الطاقة المنخفضة والنطاق الضيق والنظم القائمة على الحيوان. وكما أشرتُ من قبل، تقدم الأبقار والثيران بدائل منخفضة الطاقة في مقابل الجرارات ومصانعها. ويجب الإقرار بفضل هذه الأبقار والثيران لقيامها بوظائف الصناعة البتروكيماوية؛ إذ تخلّف قطعان الهند سنويًّا ما يقرب من 700 مليون طن من الروث الذي يمكن إعادة استخدامه. فزهاء نصف هذا الإجمالي يُستعمل سمادًا، في حين أن معظم الباقي يتم إشعاله لغرض الطبخ. ويُعتبر مقدار الحرارة السنوية المنبعثة من هذا الروث، وهي الوقود الأساس للطبخ، المعادلَ الحراري لـ 27 مليون طن من الكيروسين، و35 مليون طن من الفحم، أو 68 مليون طن من الخشب. وبما إن حاجات الهند من النفط والفحم ضئيلة وهي بطبيعة الحال ضحية إزالة الغابات على نطاق واسع، فإن أيًّا من مصادر الوقود هذه لا يمكن اعتباره بديلًا عمليًّا لروث الأبقار. ربما لا تلقى فكرة الروث في المطبخ القبول لدى الأميركي العادي، لكن المرأة الهندية تقدره كونه وقودًا فاخرًا للطبخ، لأنه معدّل بشكل دقيق بما يتفق ونمط حاجاتهن. ذلك أن معظم الأطباق الهندية يُحضَر باستعمال الزبدة المصفّاة المعروفة بالسمن، ويُعتبر روث الأبقار مصدرها الحراري المفضل من حيث إنه يشتعل بلهب نظيف وبطيء وطويل الأمد وبذلك لا يحرق الطبخ. وهذا ما يمكّن ربة البيت الهندية من الشروع في طهو وجباتها وتركها من دون رقيب لساعات طويلة، تقوم في

مكتبة الفكر الجديد

خلالها بالاهتمام بالأولاد والمساعدة في عمل الحقول، أو تأدية أعمال روتينية أخرى. في حين تنجز ربات البيوت الأميركيات حصيلة مماثلة بواسطة مجموعة معقدة من الأدوات المجهزة إلكترونيًّا التي تتوافر كونها خيارات مكلفة على المواقد ذات الطراز الأحدث.

لروث الأبقار في الحد الأدنى وظيفة مهمَّة أخرى؛ إذ يُخلط بالماء ويُحول إلى معجون، ويُستعمل مادّة للأرضيات المنزلية. تُلطَّخ بواسطته الأرضية الترابية ويُترك حتى يقسى ويصبح سطحًا صقيلًا، يُبقي الغبار تحته ويمكن كنسه بالمكنسة.

هكذا، نظرًا إلى الخصائص المفيدة التي تمتلكها مخلفات الماشية، فإنها تجمع كلّها بعناية. وتوكَل إلى أولاد القرى الصغار مهمة تتبّع بقرة العائلة في الجوار والعودة إلى البيت بالمحصول البتروكيماوي اليومي. أما في المدن، فتتفرد طائفة القشّاشين (Sweeper Castes) باحتكارها الروثَ الذي خلّفته الأبقار السائبة، ويكسبون عيشهم من بيعه إلى ربات البيوت.

من وجهة نظر «البزنس الزراعي» (Agribusiness)، فإن بقرة عقيمًا هزيلة تُعتبر حالة اقتصادية مقيتة. لكن من وجهة نظر المزارع الفلاح، فإن البقرة العقيم الهزيلة ذاتها قد تكون الدفاع اليائس الأخير في وجه المرابين، إذ إن الفرصة هناك قائمة على الدوام في أن ريحًا موسمية ماطرة قد تعيد الحيوية حتى إلى أكثر البقرات عجزًا، وأنها سوف تسمن وتلد عجلًا وتدرّ الحليب من جديد. هذا ما يصلي المزارع من أجله؛ وفي بعض الأحيان تستجاب صلواته. وفي أثناء ذلك يستمر إنتاج الروث. وهكذا بالتدريج يبدأ المرء في فهم لماذا تبقى البقرة العجوز الشمطاء النحيلة جميلةً في نظر مالكها.

للأبقار الدربانية أجسام صغيرة، وسنامات لتخزين الطاقة على ظهورها، وإمكانات هائلة لاستعادة الحيوية. هذه الميزات ملائمة لخصوصية الأحوال الزراعية الهندية. إن السلالات المحلية مؤهلة للبقاء على قيد الحياة لفترات أطول بالنذر اليسير من الطعام والماء، كما أنها تتمتع بمقاومة عالية ضد الآفات التي تُبتلى بها سلالات أخرى في المناخات الاستوائية. فالثيران الدَّرْبانية

مكتبة الفكر الجديد

تبقى قيد العمل ما دامت تستطيع التنفس. وأجرى الطبيب البيطري ستيوارت أودندهال وهو أستاذ مساعد سابق في جامعة جونز هوبكنز، عمليات تشريح ضمن الحقل على مواش هندية كانت قد أمضتْ ساعات عملها في أوضاع عادية، لكن أعضاءها الحيوية كانت قد تضررت نتيجة آفات خطرة وذلك قبيل نفوقها. أما وقد أعطت تلك الحيوانات أقصى ما لديها من طاقة العافية العالية، فلا يمكننا التخلي عنها من باب أنها «عديمة الفائدة» ما دامت على قيد الحياة.

لكن عاجلًا أم آجلًا لا بد من أن يحين الوقت وتتبدد الآمال بتعافي الحيوان ويتوقف إنتاج الروث. ومع ذلك يرفض المزارع الهندوسي قتله من أجل الغذاء أو بيعه إلى المسلخ. أليس هذا دليلًا غير قابل للجدل على الممارسة الاقتصادية المضرّة التي لا تفسير لها بمعزل عن المحرمات الدينية لذبح البقرة واستهلاك لحم العجل؟

ليس ثمة من ينكر أن حبّ البقرة يعبئ الناس لمقاومة ذبح البقرة وأكل لحم العجل. لكنني لا أوافق على أن تحريم الذبح وأكل العجل يستدعي بالضرورة نتائج وخيمة على بقاء الإنسان ورفاهه. فالمزارع حين يذبح بقرته أو يبيعها قد يجني بعض روبيات إضافية أو يحسّن موقتًا من غذاء عائلته. لكن على المدى الطويل، قد تكون هناك نتائج نافعة لرفضه بيعَها إلى المسلخ أو قتلها لغرض الطعام. ثمة مبدأ راسخ في التحليل البيئي يشير إلى أن مجتمعات الكائنات الحية لا تتكيّف مع الشروط المتوسطة، بل القصوى. الأمر ذو الصلة في الهند هو الاحتباس المتكرر للأمطار الموسمية. ومن أجل تقويم الأهمية الاقتصادية لمحرمات حظر الذبح وحظر أكل العجل، علينا أن نأخذ في الحسبان ماذا تعني تلك المحرمات في سياق الجفاف الدوري والمجاعة.

يُحتمل أن يكون التحريم الواقع على الذبح وأكل العجل نتاج اصطفاء طبيعي يتّفق وحجم الأجساد الصغيرة لسلالات الأبقار الدربانية وإمكان تعافيها المذهل. وقد يخاتل المزارعين في أثناء فترات الجفاف والمجاعة إغراءٌ لا يقاوَم بقتل ماشيتهم أو بيعها. وهؤلاء الذين يخضعون لهذا الإغراء «يحفرون قبورهم بأيديهم»، فحتى إذا نجوا في تمرير فترة الجفاف ريثما تأتي الأمطار، فإنه لن

مكتبة الفكر الجديد

يكون بمقدورهم حراثة حقولهم. وكي أكون أكثر تشديدًا: إن الذبح الجماعي للقطيع تحت وطأة المجاعة يشكّل تهديدًا على الرفاه الكلّي أشد هولًا من أي حساب خاطئ محتمل يجريه بعض المزارعين في ما يتعلق بجدوى حيواناتهم ضمن الأحوال العادية. ويبدو أنه من المحتمل أن ثمة جذورًا للإحساس الذي لا يوصف بالتجديف الذي يثيره ذبح البقرة في التناقض المؤلم بين الحاجات الملحّة وشروط البقاء على قيد الحياة على المدى الطويل. إن حب البقرة برموزه المقدسة وعقائده الورعة يقي المزارع من إجراء الحسابات التي تُعتبر «عقلانية» على المدى القصير لَا أكثر. يبدو الأمر بالنسبة إلى المتخصصين الغربيين أن «الهندي يفضّل الموت جوعًا على أن يأكل بقرته». وهؤلاء المتخصصون ذاتهم يحبون التشدّق بـ «العقلية الشرقية المبهمة»، ويعتقدون أن «الحياة ليست عزيزة جدًّا بالنسبة إلى الجماهير الآسيوية». فهم لا يدركون أن المزارع يفضّل أن يأكل بقرته على أن يتصوّر جوعًا، لكن واقع الأمر أنه سيتضور جوعًا إذا أكلها.

على الرغم من دعم التشريعات المقدسة وحبّ البقرة، ثبت أحيانًا تحت ضغط المجاعة أن أكلَ العجل لا يمكن مقاومته. فخلال الحرب العالمية الثانية، حلّت مجاعة كبيرة في البنغال نتيجة للجفاف المتكرر والاحتلال الياباني لبورما، فبلغ ذبح الأبقار وحيوانات الجرّ مستويات مقلقة في صيف 1944 حتى إن البريطانيين اضطروا إلى استعمال قواتهم العسكرية لتطبيق شرائع حماية البقرة. وفي عام 1967 ورد في صحيفة **نيويورك تايمز**:

«الهندوس الذين يواجهون الموت جوعًا في منطقة بيهار التي ضربها الجفاف يذبحون الأبقار ويأكلون لحومها على الرغم من أن تلك الحيوانات مقدَّسة في الديانة الهندوسية».

علّق المراقبون: «كان بؤس الناس أبعد من الخيال».

إن بقاء عدد محدد من الحيوانات فاقدة الجدوى بشكل نهائي على قيد الحياة حتى سنّ متقدمة خلال فترات الوفرة جزءٌ من الثمن الذي يتحتّم دفعه لحماية الحيوانات النافعة من الذبح خلال الفترات العصيبة، لكنني أتساءل عن حجم الخسارة الفعلية الناجمة عن حظر الذبح وتحريم لحم العجل. من

مكتبة الفكر الجديد

وجهة نظر «البزنس» الزراعي الغربي، يبدو من اللاعقلاني بالنسبة إلى الهند أن لا تمتلك صناعة تعليب اللحوم. لكن الإمكان الفعلي لقيام صناعة كهذه تعتبر محدودة للغاية. إن نهوضًا حقيقيًّا في إنتاج لحم العجل قد يرهق النظام البيئي برمّته، ليس بسبب حبّ البقرة، بل بسبب قوانين الديناميكا الحرارية. ففي أي سلسلة غذائية، يؤدي إقحام حيوان إضافي بالضرورة إلى الانخفاض الحاد في وفرة إنتاج الغذاء. إذ تكون دائمًا قيمة السعرات الحرارية لما أكله الحيوان أكثر بكثير من قيمة السعرات الحرارية التي ينتجها جسمه. هذا يعني أن السعرات الحرارية التي ستتوافر للفرد عند تناول الأغذية النباتية بشكل مباشر من مجموع السكان هي أكثر منها في ما لو استُخدمت علفًا للحيوانات الداجنة.

بسبب ارتفاع مستوى استهلاك لحم العجل في الولايات المتحدة، فإن ثلاثة أرباع مجمل أراضينا الزراعية تُستخدم لإطعام الماشية بدلًا من الناس. وإذا أخذنا في الحسبان أن مقدار السعرات الحرارية للفرد في الهند هو بطبيعة الحال أقل من الحاجة اليوميّة الدنيا، فإن تحويل الأراضي الزراعية لمصلحة إنتاج اللحوم لن ينجم عنه إلا الارتفاع في أسعار الأغذية ومزيد من تدهور مستوى المعيشة لدى العائلات الفقيرة. ويساورني الشك في أنه سيكون بمقدور 10 في المئة من الشعب الهندي أن يجعلوا من لحم العجل جزءًا أساسيًّا من نظامهم الغذائي، بغض النظر عن كونهم يؤمنون بحب البقرة أم لا يؤمنون.

كذلك أشكّ في أن إرسال مزيد من البهائم المعمرة والعاجزة إلى المسالخ القائمة أصلًا قد يُنتج مكاسب غذائية لهؤلاء الناس الذين هم بأمسّ الحاجة إليها. معظم هذه البهائم يؤكل على أي حال، حتى لو لم ترسل إلى المسلخ، إذ إن في الهند طبقات دنيا يتمتع أهلها بحق التصرف بجثث المواشي النافقة. بشكل أو بآخر، يَنفق عشرون مليونًا من الماشية سنويًّا، ويؤكل الجزء الأكبر من لحومها من أكَلَة الجيف «المنبوذين» هؤلاء.

تشير صديقتي جوان مِنْشَرْ، الأنثروبولوجية التي عملت في الهند لسنوات عدة، إلى أن المسالخ القائمة بالفعل تزوّد حضريي الطبقة المتوسطة من غير الهندوس باللحوم. وتسجّل أن «المنبوذين يحصلون على طعامهم بطرائق

مكتبة الفكر الجديد

أخرى. ومن حسن حظ المنبوذ أن تموت بقرة جوعًا في القرية، وليس أن ترسل إلى مسلخ في منطقة حضرية ليتم بيعها من المسلمين والمسيحيين». أنكر مزوِّدو منشر بالمعلومات بادئ الأمر أن هناك هندوسيًّا يأكل لحم العجل، لكنهم حين علموا أن أميركيي «الطبقة العليا» يعشقون شرائح لحم العجل، اعترفوا من دون تردد بتذوقهم له مع الكاري.

على غرار أي شيء آخر قمت بطرحه، فإن تناول المنبوذين اللحوم يخضع بدقة لشروط عملية. فالطبقات التي تأكل اللحوم تميل لأن تكون طبقات تشتغل بالجلود، من حيث إن لها الحق بالتصرف بجلود الماشية النافقة. لذلك على الرغم من حبّ البقرة، نجحت الهند في حقل صناعة الجلود. حتى في الموت، يبدو أن البهائم عديمة النفع تستمر في أن تُستغل للاستخدامات البشرية.

لعلني على صواب إذا قلت إن الماشية مفيدة لجرّ [العربات] والمحروقات والتسميد والحليب وتلبيس الأرضيات واللحوم والجلود، ولا أزال أخطئ في تقدير الأهمية البيئية والاقتصادية للشبكة بأكملها. كل شيء يعتمد على كم ستكون تكلفة كلّ هذا من ناحية الموارد الطبيعية واليد العاملة البشرية قياسًا إلى الوسائل البديلة الكفيلة بتلبية حاجات عدد سكان الهند الهائل. تتحدد هذه الأكلاف إلى حدّ كبير بما تأكله المواشي. يفترض كثير من الخبراء أن الإنسان والبقرة أصبحا رهيني منافسة مستميتة على الأرض والمحاصيل الغذائية. ربما يكون هذا صحيحًا لو أن المزارعين الهنود اتّبعوا نمط العمل الزراعي الأميركي وقدّموا المحاصيل الغذائية علفًا لحيواناتهم. لكن الحقيقة الصادمة للبقرة المقدسة أنها زبّال لا يعرف الكلل، إذ يأتي قسم ضئيل فحسب من الغذاء الذي تستهلكه بقرة متوسطة من المراعي والمحاصيل الزراعية الملقاة جانبًا للاستعمال لهذا الغرض.

هذا ما ينبغي أن يكون جليًّا من خلال تلك التقارير المتلاحقة كلها عن الأبقار التي تجول في الجوار وتعرقل حركة المرور. ماذا تفعل تلك الحيوانات في الأسواق، على المروج، على جوانب الطرق السريعة وخطوط السكك الحديد، وأعلى منحدرات التلال الجرداء؟ ماذا تُراها تفعل إذا لم تكن تأكل

مكتبة الفكر الجديد

كل قضمة عشب وقشّ ونفاية لا يمكن أن يستهلكها البشريّ بشكل مباشر ثم تقوم بتحويلها إلى حليب ومنتوجات مفيدة أخرى! في دراسته عن الماشية في غرب البنغال، اكتشف أودندهال أن العنصر الأساس في غذاء الماشية هي سقط المنتوجات غير القابلة للأكل مما خلّفه الإنسان من محصول غذائي، وبشكل أساس قشّ الأرز وقشوره ونخالة القمح. عندما قدّرت مؤسسة فورد أن نصف الماشية تشكل فائضًا في ما يتعلق بمؤونة الأعلاف، كانت تعني أن نصف الماشية تتدبّر أمر البقاء على قيد الحياة حتى من دون أن تجد إلى محصول العلف سبيلًا. لكنها مقولة مبتسرة؛ إذ يرجح أن أقل من 20 في المئة مما تأكله الماشية يتكوّن من مواد لا تصلح طعامًا للبشر؛ ومعظم هذا يُقدَّم علفًا إلى الثيران العاملة وجواميس الماء، إضافةً إلى أبقار مناطق الجفاف والقحط. وجد أودندهال في المنطقة التي شملتها دراسته أنه لم يكن هناك تنافس بين الماشية والبشر على الأرض ومؤونة الغذاء: «وهذا يعود بشكل أساس إلى أن الماشية تحوّل المواد ذات القيمة الضئيلة للإنسان إلى منتوجات ذات فائدة مباشرة».

يعود السبب الأول في أن حب البقرة غالبًا ما يُساء فهمه إلى أنه يترك آثارًا متفاوتة في الغني والفقير. فالمزارعون الفقراء يستخدمونه ترخيصًا للتنقيب عن الطعام في النفايات (للكنس)، بينما يقاومه المزارعون الأغنياء لأنه نوع من النهب. البقرة بالنسبة إلى المزارع الفقير شحاذ مقدس؛ وبالنسبة إلى الغني لصّ. وبين حين وآخر تغزو الأبقار مراعي أحدهم أو حقوله المزروعة، فيتذمر ملّاك الأراضي، لكن الفلاحين الفقراء يلتمسون التغاضي ويعتمدون على حب البقرة كي يستعيدوا حيواناتهم. إن كان ثمة تنافس، فهو بين الإنسان والإنسان أو الطبقة والطبقة، وليس بين الإنسان والبهيمة.

لأبقار المدينة أيضًا مالكوها الذين يتيحون لها أن تختلس في النهار ثم يستعيدونها ليلًا من أجل الحلب. تروي منشر ذلك عندما عاشت لفترة من الوقت في حي تسكنه الطبقة المتوسطة في مدراس؛ إذ كان جيرانها يتذمرون باستمرار من الأبقار «الشاردة» التي تقتحم مباني العائلة. وحقيقة الأمر أن ملكية الأبقار الشاردة تعود إلى أناس يسكنون غرفةً تقع فوق متجر «بائعي الحليب من

مكتبة الفكر الجديد

باب إلى باب» ضمن الحيّ. في ما يتعلق بدُور رعاية الأبقار وزرائب الشرطة، فإنها تقوم بالخدمة على نحو جيد بغية تقليص مسؤولية العناية بالأبقار ضمن محيط المدينة. وعندما تتوقف بقرة عن إنتاج الحليب، قد يقرر مالكها تركَها تجول إلى أن تلتقطها الشرطة وتودعها دار البلدية. وحين تتعافى البقرة، يدفع المالك غرامة ضئيلة ويعيدها إلى أماكنها المألوفة. تعمل دُور الرعاية وفق مبدأ رئيس مشابه، من خلال تقديمها مرعى مدعومًا من الحكومة لن يكون بالإمكان إتاحته لأبقار المدينة.

يتفق أن الصيغة الأمثل لشراء الحليب في المدن هي من خلال إحضار البقرة إلى المنـزل وحلبها هناك. وغالبًا ما تكون هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها لرب البيت التأكد من أنه يشتري الحليب النقي بدلًا من الحليب الممزوج بالماء أو البول.

ما يبدو غير قابل للتصديق بشأن هذه الترتيبات أنها قد فُسِّرت كونها دليلًا على هدر الممارسات الهندوسية وعدم اقتصاديّتها، لكنها في واقع الأمر تعكس درجة من الترشيد الذي يتجاوز بكثير معايير الإدارة الاقتصادية والادخار «البروتستانتي» الغربي. إن حبّ البقرة على درجة تامة من الانسجام مع عزم راسخ لا هوادة فيه، وبكل ما في الكلمة من معنى على تحصيل آخر قطرة حليب من البقرة. حتى إن الرجل الذي يقود البقرة من باب إلى باب يصطحب معه عجلًا دميةً مصنوعًا من جلد العجل يضعه قرب البقرة فيخدعها ويحرضها على درّ الحليب. وحين لا يجدي ذلك، يلجأ المالك إلى الـ«بوكا»، بأن ينفخ الهواء في رحم البقرة عبر أنبوب أجوف، أو الـ «دوم دِفْ»، بإيلاج ذيلها في الفتحة التناسلية. ولهذا كان غاندي على ثقة أن الأبقار عوملت بقساوة في الهند أكثر من أي مكان آخر في العالم. وقد رثاها قائلًا: «كيف نستنزفها لنحصل على آخر قطرة حليب منها»، «كيف نجوِّعها حتى الهزال، كيف ننكِّل بالعجول، كيف نحرم هذه العجول من حصتها من الحليب، كم بليغة هي القسوة التي نعامل بها الثيران، كيف نخصيها، كيف نضربها، كيف نحمّلها ما لا طاقة لها على حمله».

مكتبة الفكر الجديد

لم يفهم أحد بقدر ما فهم غاندي أن لحب البقرة آثارًا في الغني والفقير. كان يرى أن البقرة بؤرة الصراع المركزية لرفع الهند إلى مرتبة الأمة الحقيقية. فقد مضى حب البقرة جنبًا إلى جنب مع الزراعة ضيقة النطاق؛ غازلًا خيوط القطن بدولاب الغزل اليدوي، جالسًا القرفصاء على الأرض، مرتديًا المئزر، ونباتيًّا، مبجِّلًا للحياة، وداعيةً لا عنفٍ صارم، نال غاندي لمجمل هذه الأفكار تأييد قاعدة شعبية عريضة من مريديه في أوساط جماهير الفلاحين وفقراء المناطق الحضرية والمنبوذين. كانت تلك وسيلته لحمايتهم من الخراب الذي سببه التصنيع.

أُغفلت آثار الـ ahimsa[2] غير المتكافئة على الأغنياء والفقراء، من طرف الاقتصاديين الذين أرادوا أن يجعلوا الزراعة الهندية أكثر كفاءة من طريق ذبح الحيوانات «الفائضة». يتقبل آلان هِستون على سبيل المثال، حقيقة أن الماشية تؤدي وظائف حيوية لا تتوافر بدائل لها. لكنه يتقدم باقتراح مفاده أنه يمكن تأدية الوظائف ذاتها بشكل أكثر فاعلية في ما لو كان عدد الأبقار أقل بثلاثين مليونًا. هذا الرقم مبني على الافتراض أنه حين تقديم الرعاية الملائمة ستدعو الحاجة إلى 40 بقرة فقط لكل 100 حيوان ذكر، كي يُستعاض عن العدد الحالي للثيران. وبما أن هناك 72 مليون ذكر بالغ من المواشي، ووفق هذه الصيغة، فإن وجود 24 مليونًا من إناث التكاثر يجب أن يكون كافيًا. في الواقع، هناك 54 مليون بقرة. وبطرح 24 مليونًا من 54 مليونًا، يصل هستون إلى تقدير 30 مليون حيوان «عديم النفع» يجب سوقه إلى الذبح. أما كميات العلف والغذاء التي كانت تلك الحيوانات «عديمة النفع» تستهلكها فينبغي أن توزَّع على باقي الحيوانات التي ستكون أكثر صحة، وبذلك ستكون قادرة على أن تُبقي إجمالي إنتاج الحليب والروث في مستوياتها السابقة أو أعلى منها. لكن لمن ستكون الأبقار التي سيُضحى بها؟ إن حوالى 43 في المئة من إجمالي عدد الماشية يتوزع على أكثر من 62 في المئة من المزارع الفقيرة. هذه المزارع، المؤلفة من خمسة إكرات فما دون، لديها 5 في المئة من المرعى والأراضي العشبية. بمعنى

(2) ahimsa في السنسكريتية: لا تؤذِ.

مكتبة الفكر الجديد

آخر، إن معظم الحيوانات الذابلة والعقيمة والهزيلة مملوك من أناس يعيشون في أصغر المزارع وأفقرها. لذلك عندما يتحدث الاقتصاديون عن التخلص من 30 مليون بقرة، فإنهم في الحقيقة يتحدثون عن التخلص من 30 مليون بقرة تعود ملكيتها إلى العائلات الفقيرة، وليس الغنية. لكن معظم العائلات الفقيرة تملك بقرة واحدة لا غير، ما يعني أن ما ينطوي عليه هذا الترشيد ليس مجرد التخلص من 30 مليون بقرة بقدر ما هو التخلص من 150 مليون إنسان – بإرغامهم على النزوح من الأرض الزراعية باتجاه المدن.

يبني المتحمسون لذبح الأبقار توصيتهم على خطأ يمكن تفهّمه. إنهم يسوغون الأمر بأن المزارعين يأبون قتل حيواناتهم، وبأن هناك محرَّمًا دينيًّا يحول دون فعل ذلك، وبناء عليه فإن المحرَّم هو المسؤول أولًا عن ارتفاع نسبة الأبقار قياسًا إلى عدد الثيران. يكمن خطأهم في النسبة ذاتها التي تمّت مراعاتها: 70 بقرة في مقابل 100 ثور. إذا كان حب البقرة يمنع المزارعين من قتل الأبقار التي تُعدّ عديمة الجدوى من الناحية الاقتصادية، فكيف يمكن أن تكون هناك أبقار أقل بـ 30 في المئة من عدد الثيران؟ وبما أنه يولد من إناث الحيوانات مقدار ما يولد من ذكورها على وجه التقريب، فإن شيئًا ما يسبب بموت الإناث أكثر من الذكور. وحلّ هذا اللغز أنه في حين لا يذبح المزارع الهندوسي عامدًا عُجْلة أو بقرة عاجزة بهراوة أو سكين، فإنه يستطيع، بل ويقوم بالتخلص منها حين تصبح من وجهة نظره حقًّا عاجزة. وهناك أساليب عدة معتمَدة تخلو من الذبح المباشر. على سبيل المثال، من أجل «قتل» الأبقار غير المرغوب فيها، يوضع نيرٌ خشبي مثلث الشكل حول أعناقها، لذلك حين تحاول أن ترعى يقومون بقَرص ضرع البقرة فتمضي إلى حتفها. أما الحيوانات الأكبر عمرًا فتُقيَّد بحبال قصيرة وتُترك حتى الموت جوعًا – وهذه عملية لا تستغرق فترة طويلة إذا كان الحيوان بطبيعة الحال هزيلًا ومريضًا. أخيرًا، هناك أعداد مجهولة من الأبقار العاجزة قد تباع خلسة عبر سلسلة من رجال الطبقة المتوسطة المسلمين والمسيحيين لتنتهي في مسالخ المناطق الحضرية.

مكتبة الفكر الجديد

إذا أردنا تعداد النسبة المرصودة لعدد الأبقار في مقابل الثيران، فعلينا أن ندرس الأمطار والرياح والمياه وأنماط ملكية الأرض، وليس حب البقرة. والبرهان على ذلك أن نسبة الأبقار إلى الثيران تتفاوت بحسب الأهمية المتعلقة بالعناصر المختلفة للنظام الزراعي في مناطق مختلفة من الهند. فالمتغيِّر الأكثر أهمية هو كميات مياه الري المتوافرة لزراعة الأرز. ذلك أنه حيثما وُجدت حقول الذرة المروية الواسعة، فإنهم يفضلون استخدام جاموس الماء كونه حيوان جرّ، وبذلك تكون أنثى جاموس الماء بديل البقرة الدربانية مصدرًا للحليب. لهذا السبب تنخفض الأبقار نسبة إلى الثيران: 47 لكل 100 في الحقول الشمالية الهندية الشاسعة، حيث الرياح الموسمية وثلوج الهيمالايا الذائبة التي تشكِّل نهر الغانج المقدس. وكما أشار عالم الاقتصاد الهندي المتميز ك. ن. راجْ، فإن للمقاطعات على وادي الغانج حيث تقوم زراعة الأرز على مدار العام نسبًا تقارب الدرجة النظرية المثلى. وهذا أقصى ما يمكن الوصول إليه من الكمال، حيث إن المنطقة موضوعَ البحث – سهل الغانج – هي قلب الديانة الهندوسية وتضمّ أكثر معابدها المقدسة.

بدورها، فُنِّدت النظرية التي تقول إن الدين في المقام الأول هو المسؤول عن ارتفاع نسبة الأبقار مقارنة بالثيران، من خلال مقارنة بين الهند الهندوسية وغرب باكستان الإسلامية. بصرف النظر عن حب البقرة وذبح العجل ومحرمات أكل لحم العجل، فإن لدى غرب باكستان كلها 60 بقرة لكل 100 حيوان ذكر، وهذا أعلى بكثير من متوسط الحد الأعلى لدى ولاية أُوتار براديش الهندية الهندوسية. ولدى اختيار مقاطعات في هذه الولاية نظرًا إلى أهمية جاموس الماء وأقنية الري ومقارنتها بمقاطعات شبيهة من الناحية البيئية في غرب باكستان، تبيّن أن نسب إناث الماشية إلى ذكورها هي ذاتها على أرض الواقع.

هل أعني القول إنه ليس لحب البقرة تأثير مهما يكن نوعه في نسبة جنس الماشية أو في جوانب النظام الزراعي الأخرى؟ لا. ما أرمي إلى قوله إن حب البقرة عاملٌ واحد ضمن نظام معقد يتمفصل فيه المادي والثقافي تمفصلًا دقيقًا؛ إذ يؤدي حب البقرة إلى حشد الإمكان الكامن للبشر كي يكدحوا ضمن

مكتبة الفكر الجديد

نظام بيئي منخفض الطاقة لا يتيح إلا حيّزًا محدودًا من الهدر والتَّواني. ويسهم حب البقرة في المرونة التكيّفية للسكان من خلال الاحتفاظ موقتًا بالحيوانات الظامئة العقيمة، لكن المفيدة؛ بتثبيط نمو صناعة تعليب العجل مكلفة الطاقة، بحماية الماشية التي يتم تسمينها في الأملاك العامة أو على نفقة ملاك الأراضي، وبالحفاظ على إمكان تعافي الماشية في أثناء فترات الجفاف والمجاعات. وكما في أي نظام طبيعي أو صُنعي، ستحدث كبوة أو تأكّل أو هدر مرتبط بهذه التفاعلات المعقدة يشترك فيها نصف مليار من البشر والحيوان والأرض والعمل والاقتصاد السياسي والتربة والمناخ. يدّعي المتحمسون للذبح أن التقليد الديني القاضي بترك الأبقار تتكاثر بشكل عشوائي ومن ثم تقليص أعدادها بالإهمال والتجويع هو تبديد وغير ذي جدوى. لا أشك في صحة ذلك، لكن بمعنى ضيق ثانوي وحسب. فالتوفير الذي يمكن أن ينجزه مهندس زراعي من طريق التخلص من عدد غير معلوم من الحيوانات عديمة الجدوى بالمطلق يجب أن يكون متوازنًا مع الخسائر الكارثية للفلاحين الهامشيين، خصوصًا في أوقات الجفاف والمجاعات، في حال توقف حب البقرة عن أن يكون واجبًا مقدسًا.

حيث «التعبئة الفاعلة» لكل نشاط بشري تعتمد على القبول بالتسليم سيكولوجيًّا باليقينيات والمذاهب القهرية، علينا أن نتوقع أن تلك النظم الاقتصادية ستكون دائمًا عرضة لأن تتراوح دون مؤشرات الكفاءة المثلى وفوقها. لكن الافتراض أن النظام بأكمله يمكن أن يكون معَدًّا للأداء على نحو أفضل عن طريق مهاجمة وعيه بكل بساطة لهو أمر ساذج وخطر. يمكن تحقيق الارتقاء بالجوانب الرئيسة في النظام الراهن بضبط عدد سكان الهند، وبجعل مزيد من الأرض والماء والثيران وجواميس الماء متوافرة لعدد أكثر من البشر وفق أسس أكثر إنصافًا. إن البديل هو تحطيم النظام الحالي واستبداله بمجموعة جديدة كليًّا من العلاقات الأيديولوجية والاقتصادية/ السياسية والتكنولوجية والديموغرافية - كنظام جديد بالكامل. لا شك في أن الهندوسية قوة محافِظة، وتشكل أحد العوامل التي تزيد الصعوبة على خبراء «التنمية» ووكلاء «العصرنة» في أن يحطموا النظام القديم ويستبدلوه بمجمع زراعي وصناعي ذي طاقة

مكتبة الفكر الجديد

عالية. لكن إذا ظننتم أن المجمع الزراعي والصناعي ذا الطاقة العالية سيكون بالضرورة أكثر «جذرية» أو «كفاءة» من النظام السائد الآن، فعليكم أن تتناسوا ذلك. على عكس التوقعات، تبيّن دراسات تعنى بأكلاف الطاقة وعوائدها أن الهند تحقق استخدامًا أكثر كفاءة لماشيتها مما تحققه الولايات المتحدة. ففي مقاطعة سنغور غرب البنغال، اكتشف أودندهال أن إجمالي كفاءة الطاقة للماشية، بما هي مجموع السعرات الحرارية المفيدة المنتَجة سنويًّا مقسَّمة على مجموع السعرات الحرارية التي يتم استهلاكها خلال الفترة ذاتها، بلغ 17 في المئة. هذا يضاهي أقل من 4 في المئة من إجمالي كفاءة الطاقة لقطيع العجول الأميركي الذي يُربى على أراضي المنطقة الغربية. وكما يقول أودندهال، إن الكفاءة العالية نسبيًّا لتوليفة الماشية الهندية تتحقق ليس لأن الحيوانات في حد ذاتها منتِجة، بل بسبب الاستغلال الدقيق للمنتج من الناس: «القرويون نفعيّون ولا شيء يُهدر».

إن الهدر مظهر من مظاهر «البزنس» الزراعي أكثر مما هو في اقتصاديات الفلاح التقليدية. ففي ظل النظام الحديث للإنتاج المؤتمت للعجل المسمّن حقليًّا في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، لا يذهب روث الماشية من دون استخدام وحسب، بل يُترك فيلوّث المياه الجوفية على امتداد مساحات شاسعة ويسهم في تلويث بيئة الأنهار والبحيرات المجاورة.

لا يأتي المستوى الأرفع من العيش الذي تنعم به الأمم الصناعية من خلال الكفاءة الإنتاجية، بل من الزيادة الهائلة الشمولية في كمية الطاقة المتوافرة للشخص الواحد. ففي عام 1970 استخدمت الولايات المتحدة مُعادِلًا طاقيًّا بلغ اثني عشر طنًّا من الفحم للفرد الواحد، بينما كان الرقم المقابل للهند خمسة أطنان للفرد الواحد. أما الطريقة التي استُهلكت فيها هذه الطاقة فقد تضمنت هدرًا للطاقة من الفرد في الولايات المتحدة يفوق كثيرًا ما يهدره الفرد الهندي. ومع أن السيارات والطائرات أسرع من مركبات الثيران، إلا أنها لا تستخدم طاقة أكثر كفاءة. في واقع الأمر، يُحرق من السعرات في حرارة عديمة الفائدة ودخان خلال يوم واحد من الاختناقات المرورية في الولايات المتحدة أكثر

مكتبة الفكر الجديد

مما يُستهلك من جهة الأبقار كلها في الهند خلال عام كامل، بل إن المقارنة لن تكون لمصلحة الولايات المتحدة إذا وضعنا في الحسبان حقيقة أن المركبات المركونة تحرق احتياطيات نفطية غير قابلة للتعويض، تلك الاحتياطيات التي استغرقت الأرض في مراكمتها عشرات ملايين السنين. وإذا كان بودّك أن ترى بقرة مقدسة واقعية، فاخرج والقِ نظرة على سيارة العائلة.

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Dandekar, V. M. «Cow Dung Models.» *Economic and Political Weekly*. (August 2, 1969), pp. 1267-1271.

Ford Foundation. *Report on India's Food Problems and Steps to Meet It*. New Delhi: Government of India, Ministry of Food and Agriculture, 1955.

Gandhi, Mohandas K. *How to Serve the Cow*. Ahmedabad: Navajivan Publishing House, 1954.

Hanumantha Rao, C. H. «India's 'Surplus' Cattle.» *Economic and Political Weekly*. vol. 5 (October 3, 1970), pp. 1649-1651.

Harris, Marvin et al. «The Cultural Ecology of India's Sacred Cattle.» *Current Anthropology*. vol. 7 (1966), pp. 51-60.

Heston, Alan et al. «An Approach to the Sacred Cow of India.» *Current Anthropology*. vol. 12 (1971), pp. 191-209.

Odend'hal, Stewart. «Gross Energetic Efficiency.» *Journal of Human Ecology*. vol. 1 (1972), pp. 1-27.

Raj, K. N. «India's Sacred Cattle: Theories and Empirical Findings.» *Economic and Political Weekly*. vol. 6 (March 7, 1971), pp. 717-722.

_____. «Investment in Livestock in Agrarian Economies: An Analysis of Some Issue Concerning 'Sacred Cows' and 'Surplus Cattle'.» *Indian Economic Review*. vol. 4 (1969), pp. 1-33.

مكتبة الفكر الجديد

محبّو الخنزير وكارهوه[1]

(1) بعض من الأفكار الواردة في هذا الفصل نُشر في مجلة *Natural History*، في تشرين الأول/ أكتوبر 1972 وشباط/ فبراير 1973.

مكتبة الفكر الجديد

يعرف الجميع أمثلة عما يبدو أنها عادات غذائية لاعقلانية. يحب الصينيون لحم الكلب، لكنهم يحتقرون حليب البقرة؛ نحب حليب البقرة، لكننا نرفض أكل الكلاب؛ بعض القبائل في البرازيل يستطيب النمل، لكنه تزدري لحم الغزال. والأمر ينسحب على بقاع العالم كلها.

يستحوذ عليّ لغز الخنزير متابَعةً للأمّ البقرة. إنه يعني ضرورة تفسير لماذا يحب أناس محددون، الحيوان نفسه، بينما يكرهه آخرون.

إن نصف اللغز الذي يتعلق بكارهي الخنزير معروف عند اليهود والمسلمين والمسيحيين. ومضى نبي العبرانيين القدامى في طريقه (مرة في سفر التكوين ومرة أخرى في سفر اللاويين) ليعلن أن الخنزير نجس، وأنه بهيمة ستسبب الدنس إذا جرى تذوقها أو لمسها. وبعد قرابة 1500 سنة، قال الله لنبيّه محمد القول نفسه عن الخنزير بالنسبة إلى أتباع الإسلام. عند ملايين اليهود ومئات الملايين من المسلمين الخنزير ممقوت، على الرغم من حقيقة أنه يستطيع تحويل الحبوب والدرنيات إلى دهون عالية الدرجة وبروتين بكفاءة تفوق كفاءة أي حيوان آخر.

غير أن الأقل شيوعًا هي تقاليد محبي الخنزير المتعصبين. يقع مركز حب الخنزير في العالم في نيو غينيا والجزر الميلانيزية جنوب المحيط الهادئ. وبالنسبة إلى قبائل المزارعين في قرى تلك المنطقة، فإن الخنازير حيوانات مقدسة من النوع الذي يجب أن يقدَّم أضحيات إلى الأسلاف ويؤكل في المناسبات المهمة كلها، كالزواج والمآتم. وفي قبائل عدة، يجب أن تُقدم الخنازير أضحيات لإعلان الحرب أو لتحقيق السلام، إذ يعتقد رجال هذه القبائل أن أسلافهم الراحلين يحتاجون إلى لحم الخنزير. إن الجوع للحم

مكتبة الفكر الجديد

الخنزير طاغٍ للغاية عند الأحياء كما الأموات، إلى درجة أن ولائم الأعياد الضخمة تُنظَّم من وقت إلى آخر وتؤكَل خنازير القبيلة كلها تقريبًا خلال الوليمة. فلأيام عدة على التوالي، يتخم القرويون وضيوفهم بكميات هائلة من لحم الخنزير، يتقيأون ما لا يستطيعون هضمه كي يفسحوا حيزًا للمزيد. وعندما ينتهي كل شيء، يكون قطيع الخنازير قد تضاءل حجمه، إلى درجة أن الأمر يتطلب سنوات من التربية المضنية من أجل إعادة بنائه. ثم لا يمضي كثير من الوقت على إتمام ذلك حتى يبدأ التحضير لعربدة شرهة أخرى. وهكذا تستمر الدورة الشاذة لسوء التدبير الواضح للعيان.

عليّ أن أبدأ بمسألة كارهي الخنزير اليهود والمسلمين. لماذا يحرّم دينان جليلا القدر إدانة بهيمة مسالمة، بل حتى محبَّبة يتلذذ بلحمها الشطر الأكبر من الجنس البشري؟ قدّم الأكاديميون الذين يسلّمون بالإدانة الإنجيلية والقرآنية للخنزير عددًا من التفسيرات. وقبل عصر النهضة، كان الأكثر شيوعًا أن الخنزير بالمعنى الحرفي حيوان قذر - بل أقذر من الحيوانات الأخرى لأنه يتمرغ في بوله ويأكل البراز. لكن ربط القذارة الفيزيائية بالمقت الديني يؤدي إلى التناقض، ذلك أن الأبقار التي تُربى ضمن حيّز مغلق تغوص هي الأخرى في بولها وروثها. كما أن الأبقار الجائعة ستأكل بإقبال البراز البشري. كما تفعل الكلاب والدواجن الأمر ذاته من دون أن تثير في المرء الامتعاض الشديد. ولا بد من أن القدماء تعلموا أن الخنازير التي تربت ضمن حظائر نظيفة أصبحت دواجن منزلية شديدة الحساسية. أخيرًا، لو استحضرنا المعايير الجمالية البحتة لـ «النظافة»، فسيكون هناك ثمة تناقض هائل من حيث إن الإنجيل يصنّف الجراد والجنادب على أنها «نظيفة». ولن يضيف الجدال شيئًا إلى قضية المؤمن في أن الحشرات من الناحية الجمالية أكثر فائدة من الخنازير.

وعثْ الحاخامية اليهودية في مطلع عصر النهضة هذه التناقضات. وندين لموسى بن ميمون، طبيب بلاط صلاح الدين في القرن الثاني عشر في القاهرة، بالتفسير الواقعي الطبيعي للنبذ اليهودي والإسلامي للحم الخنزير؛ إذ قال إن

مكتبة الفكر الجديد

الرّب قصد من وراء الحظر على لحم الخنزير نظامًا صحيًّا شعبيًّا. لأن للحم الخنزير «أثرًا ضارًّا وسيئًا في الجسم»، كما كتب الحاخام. لم يكن بن ميمون دقيقًا بما فيه الكفاية بشأن الأسباب الطبية المتعلقة بهذا الرأي، لكنه كان طبيب الإمبراطور، وحكمُه أُخذ في الحسبان على نطاق واسع.

في منتصف القرن التاسع عشر، اكتُشف أن سبب داء الشَّعْرية (Trichinosis) هو أكل لحم الخنزير غير مكتمل الطهو وفُسِّر على أنه إثبات أكيد لحكمة ابن ميمون. ابتهج اليهود ذوو العقلية الإصلاحية بالقوام العقلاني لتشريعات الكتاب المقدس وارتدّوا من دون إبطاء عن التحريم المفروض على لحم الخنزير. فإذا طُهي جيدًا، فإنه لا يشكل تهديدًا للصحة العامة، وبالتالي فإن استهلاكه لا يمكن أن يكون مسيئًا إلى الرب. هذا ما استثار الحاخامات من ذوي القناعات الأصولية لأن يبدأوا هجومًا مضادًّا في وجه العرف الواقعي الطبيعي برمّته. لو شاء يهوه حقًّا أن يحمي صحة شعبه، لأمرهم بأكل لحم الخنزير المطبوخ جيدًا بدلًا من عدم أكله كليًّا. ثمة من يقول، صريحًا، إن يهوه إنما قصد شيئًا آخر، شيء أكثر أهمية من مجرد الرفاه المادي.

إضافة إلى هذا التناقض اللاهوتي، يشوب تفسير ابن ميمون تناقضات طبية ووبائية. فالخنزير ناقل لمرض يصيب البشر، لكن الأمر ينطبق أيضًا على الحيوانات التي يتم استهلاكها بحرية من المسلمين واليهود. فعلى سبيل المثال، يعتبر لحم العجل غير المطبوخ جيدًا مصدرًا للطفيليات، ولا سيما الديدان الشريطية التي يمكن أن تنمو حتى يتراوح طولها بين ست عشرة وعشرين قدمًا في داخل أمعاء الإنسان، لتسبب فقر دم شديدًا، وضعف مقاومة ضد الأمراض المعدية الأخرى. كما أن الأبقار والماعز والأغنام أيضًا نواقل لداء الـ «بروسيلا»، وهي عدوى ذات منشأ بكتيري في البلدان النامية تترافق مع الحمى والقشعريرة والتعرق والوهن والإجهاد والآلام. النموذج الأكثر خطورة هو الحمى المالطية التي ينقلها الماعز والأغنام. ومن أعراضها الفتور والإعياء والاضطراب والاكتئاب النفسي الذي غالبًا ما يتم تشخيصه خطأً على أنه اضطراب عصبي. أخيرًا هناك مرض الجمرة الخبيثة الذي ينتقل من الأبقار

مكتبة الفكر الجديد

والأغنام والماعز والأحصنة والبغال، لكن ليس من طريق الخنازير. وعلى عكس دودة الخنزير التي قلما تتسبب بنتائج مميتة، والتي لا تُظهر أعراضًا في معظم الأفراد المصابين، فإن الجمرة الخبيثة ربما تتخذ مسارًا سريعًا يبدأ ببثور على الجسد وينتهي بالموت بانسمام في الدم. ولم يتم إحكام السيطرة على أوبئة الجمرة الخبيثة التي اكتسحت أوروبا وآسيا سابقًا حتى تم تطوير لقاح الجمرة على يد لويس باستور في عام 1881.

إن فشل يهوه في تحريم التّماس مع الدواجن الناقلة للجمرة الخبيثة هو بشكل خاص تقويض لتفسير ابن ميمون، من حيث إن العلاقة بين هذا المرض في الحيوانات والإنسان كانت معروفة خلال الأزمنة القديمة. وكما هو موضح في سفر الخروج، أن واحدًا من أوبئة الطاعون المُرسَلة ضد الفراعنة تربط من ناحية الأعراض الجمرةَ الحيوانية بالمرض البشري:

«... فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر. فأخذا رماد الأتون ووقفا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء. فصار دمامل بثور طالعة في الناس وفي البهائم. ولم يستطع العرافون أن يقفوا أمام موسى من أجل الدمامل. لأن الدمامل كانت في العرافين وفي كل المصريين»[2].

أما وقد ووجه معظم اللاهوتيين اليهود والمسلمين بهذه التناقضات، فقد أقلعوا عن البحث عن أسس واقعية - طبيعية لكراهية الخنزير. وثمة موقف باطني لا لبس فيه أثير في الآونة الأخيرة، وهو الموقف الذي يتمثل في النعمة التي تفيد أنه يُنصح بالاعتماد على الانسجام مع التحريم الغذائي من دون معرفة ماذا كان بالضبط في نية يهوه أن يقوله، وفي عدم محاولة اكتشاف ذلك.

وصلت الأبحاث الأنثروبولوجية الحديثة إلى مأزق مشابه. فعلى سبيل المثال، كان موسى بن ميمون بما لديه من أخطاء أقرب في التفسير من جيمس فريزر، المؤلف المعروف لكتاب **الغصن الذهبي** *(The Golden Bough)*. أكد أن

(2) سفر الخروج، الأصحاح 9: 9-12.

مكتبة الفكر الجديد

الخنازير، كما «سائر الحيوانات التي توصَم بالقذارة، كانت في الأصل مقدسة؛ ويعود سبب عدم أكلها إلى أن الكثير منها كان في الأصل مقدسًا». وهذا ما لن يأخذ به المرء، من حيث إن الأغنام والماعز والأبقار عُبدتْ في الشرق الأوسط، لا بل أَكلت لحومها الجماعات الإثنية والدينية في المنطقة كلها. خصوصًا البقرة التي عُبدَ عجلها الذهبي على سفح جبل سيناء، ستبدو وفق منطق فريزر أنها حيوان قذَارته أكثر أخذًا في الحسبان من الخنزير بالنسبة إلى العبرانيين.

اقترحت بحوث أخرى أن الخنازير، جنبًا إلى جنب مع سائر الحيوانات المحرمة في الكتاب المقدس والقرآن، كانت في ما مضى رموزًا طوطمية بالنسبة إلى عشائر قبلية مختلفة. قد يكون هذا الاحتمال هو ما حصل فعلًا في مرحلة غابرة من التاريخ، لكن لو أننا جعلنا هذا الاحتمال صحيحًا فإنه ينبغي لنا أن نقبل أيضًا أن تكون حيوانات أخرى غير نجسة، مثل الأبقار والأغنام والماعز، كانت أيضًا رموزًا طوطمية في ما مضى. على العكس مما يقترحه الكثير من الكتابات عن موضوع الطوطمية، فإن الطواطم لا تكون عادة من الحيوانات ذات الأهمية كمورد للغذاء. والطوطمات الأكثر شعبية بين قبائل البدائيين في أستراليا وأفريقيا كانت على العموم من الطيور غير المفيدة مثل الغربان وطيور البرقش، أو من الحشرات مثل البعوض والناموس، أو حتى من الجمادات مثل الغيوم والصخور. أضف إلى ذلك أنه حتى حين يكون حيوان مفيد ما هو الطوطم لا يوجد قاعدة ثابتة تحرم على شركائه من البشر أكله. ومع وجود هذه الخيارات المتعددة كلها، فالقول إن الخنزير كان طوطمًا لا يفسّر شيئًا. ويصبح من حقنا أن نقول بالتالي «كان الخنزير محرمًا لأنه كان محرمًا».

أنا شخصيًا أميل إلى تأييد مقاربة ابن ميمون عن الموضوع؛ إذ حاول في الأقل أن يفهم التحريم بوضعه ضمن السياق الطبيعي لمعادلة الصحة والمرض، حيث تؤدي قوى طبيعية وواقعية محددة الدور الأساس. المشكلة الوحيدة في هذه المقاربة أن نظرة ابن ميمون إلى الأحوال المتصلة بكراهية الخنزير كانت مقيّدة بعقل طبي ضيق الأفق بحدود الاهتمام الخاص بالأمراض الجسدية.

مكتبة الفكر الجديد

الحل لمعضلة الخنزير يتطلب منا أن نتبنى تعريفًا أوسع مدى لما هي الصحة العامة، وهو تعريف يشمل العمليات الأساسية التي يتمكن البشر والحيوانات والنبات بواسطتها من التعايش في جماعات طبيعية وثقافية قابلة للحياة. أعتقد أن التوراة والقرآن دانا الخنزير بسبب كون تربيته تشكل خطرًا على سلامة المنظومات البيئية الأساسية للشرق الأوسط.

علينا بداية أن نأخذ في الحسبان أن العبرانيين الغابرين - أولاد إبراهيم في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد - كانوا متكيفين ثقافيًا مع الحياة في المناطق الجرداء القاحلة الوعرة القليلة السكان، ما بين وديان النهر في بلاد ما بين النهرين ومصر. حتى غزوهم وادي الأردن في فلسطين، الذي بدأ في القرن الثلاثين قبل الميلاد، كان العبرانيون بدوًا رحّلًا، يعيشون تقريبًا بشكل كامل على قطعان الأغنام والماعز والأبقار. وكسائر الشعوب الرعوية حافظوا على علاقات مقربة مع المزارعين المستقرين الذين شغلوا الواحات والأنهار الكبيرة. وبين وقت وآخر كانت هذه العلاقات تنضج وتتطور لتتخذ نمط حياة ينحو أكثر إلى الزراعة والاستقرار. ويبدو أن هذا ما سيكون عليه الحال بالنسبة إلى أحفاد إبراهيم في بلاد ما بين النهرين، وأتباع يوسف في مصر، وأتباع إسحق غرب النقب. لكن حتى في ذروة ازدهار الحياة الحضرية والقروية تحت حكم الملك داوود والملك سليمان، بقي الرعي نشاطًا اقتصاديًا على قدر كبير من الأهمية.

ضمن النمط الشامل لهذا الكلّ الذي تمتزج فيه الزراعة بالرعي، شكّل الحظر الإلهي للخنزير استراتيجية بيئية سليمة، إذ لم يستطع بنو إسرائيل المستقرون تربية الخنازير في مواطنهم القاحلة، في حين كانت الخنازير تشكّل تهديدًا أكثر مما هي استثمار بالنسبة إلى السكان شبه المستقرين ومزارعي القرى.

يعود السبب الرئيس في ذلك إلى أن مناطق البداوة في العالم تنسجم مع السهول والتلال غير الحرجية التي تُعتبر أكثر جدبًا من أن تصلح للزراعة التي تعتمد في ريّها على الأمطار، كما لا يمكن ريّها يدويًا بسهولة. لذلك تكون الحيوانات الداجنة الأفضل تكيّفًا مع هذه المناطق هي المجترّات؛ الأبقار والأغنام والماعز. فللمجترات أجربة في مقدمة معِدَاتها تمكّنها من هضم

مكتبة الفكر الجديد

العشب والأوراق وباقي الأغذية المحتوية بشكل رئيس على السللولوز بكفاءة أعلى من باقي الثدييات الأخرى.

بطبيعة الحال يعتبر الخنزير كائنَ أحراج وضفاف أنهار مظللة في المقام الأول. وعلى الرغم من أنه حيوان لَفّلاف (Omnivorous) (من آكلات النبات والحيوان)، إلا أن معظم ما يكسبه من وزن يأتي من الغذاء منخفض السللولوز، كالمكسرات والفواكه والدرنيات، خصوصًا الحبوب، ما يجعله المنافس المباشر للإنسان. فهو لا يستطيع أن يعتاش على العشب وحده، وليس ثمة مكان في العالم يربي فيه رعاتُه الرحّل كلهم الكثير من الخنازير. كما أن للخنزير سيّئة إضافية في أنه ليس مصْدرًا عمليًا للحليب ولا يمكنه الانتظام ضمن قطيع عبر المسافات الطويلة.

فوق ذلك، فإن الخنزير من ناحية الديناميكا الحرارية سيّئ التكيف مع المناخ الجاف والحار في النقب ووادي الأردن وباقي مناطق الكتاب المقدس والقرآن. ولا يمتلك الخنزير، مقارنة بالأبقار والماعز والأغنام، نظامًا كفيًا لتنظيم درجة حرارة جسده. وبصرف النظر عن تعبير «تتعرق مثل خنزير»؛ إذ بُرهن مؤخرًا أن الخنازير لا تستطيع التعرق على الإطلاق، فإن البشر، أكثر الثدييات تعرقًا، يبرّدون أجسادهم بتبخير ما مقداره 1000 غرام في الساعة من سوائل الجسد في كل متر مربع من سطح الجسد. وأقصى ما يمكن أن ينجح به الخنزير هو 30 غرامًا للمتر المربع. حتى إن الأغنام تبخر من سوائل الجسد عبر جلدها ضعفي ما تبخره الخنازير. فللأغنام أيضًا ميزة بياض الصوف وكثافته اللذين يردان أشعة الشمس ويؤمّنان العزل عندما تزيد حرارة الجو على حرارة الجسد. وفقًا لمونت من معهد مجلس الأبحاث الزراعية لفيزيولوجيا الحيوان في كامبريدج، فإن الخنازير البالغة ستموت إذا تعرضت بشكل مباشر لأشعة شمس وحرارة جو فوق 98 درجة فهرنهايت. وفي وادي الأردن، تصل حرارة الجو إلى 110 درجات كل صيف تقريبًا، إضافة إلى أشعة الشمس الحادة على مدار السنة.

كي يعوض الخنزير عن نقص الشعر الواقي وعدم قدرته على التعرق، يجب أن يرطب جلده بمرطِّب خارجي. ويفضّل أن يفعل ذلك بالتمرغ في الوحل الطري النظيف، لكنه سيغطي جلده ببوله وبرازه إذا لم يتوفر له شيء

مكتبة الفكر الجديد

آخر. أما تحت درجة 84 فهرنهايت، فإن الخنازير المودَعة في الحظائر تخلّف فضلاتها بعيدًا من مواضع نومها وعلفها، بينما فوق الـ 84 درجة فهرنهايت تبدأ بالتبرز من دون تمييز في أرجاء الحظيرة كلها، أي إنها تصبح «أقذر» بمقدار ما تكون درجة الحرارة أعلى. لذلك هناك شيء من الحقيقة في نظرية أن نجاسة الخنزير الدينية تستند إلى قذارة جسدية واقعية. بقي أن نشير إلى أنه ليس من طبيعة الخنزير أن يكون قذرًا أينما وُجد؛ بل على الأصح إنها طبيعة الـمَواطن الشرق الأوسطية الحارة والقاحلة التي تجعل من الخنزير خاضعًا حتى الحد الأقصى لتأثير التبريد الذي يحدثه برازه.

كانت الأغنام والماعز أولى الحيوانات التي دُجنت في الشرق الأوسط، ومن المحتمل أن ذلك يعود إلى 9000 سنة قبل الميلاد. ثم دجنت الخنازير في عموم المنطقة ذاتها بعد ذلك بألفي عام. تبيّن أعداد العظام التي توصل إليها علماء الآثار في مواقع قرية زراعية تعود إلى ماقبل التاريخ أن الخنزير المدجن كان على الدوام، تقريبًا، جزءًا صغيرًا نسبيًّا من الحيوان الذي عاش في القرية، أي ما يؤلف 5 في المئة فقط من بقايا حيوانات التغذية. وهذا ما يتوقعه المرء من كائن تطلّب الظل وحُفَر الوحل، ولم يكن إلى حلبه سبيلًا، إضافةً إلى أنه تشارك نوع الغذاء نفسه المخصص للإنسان.

كما أوضحتُ في مسألة الحظر الهندوسي على لحوم الأبقار، في شروط ماقبل الصناعة، فإن أي حيوان يربى في المقام الأول من أجل لحمه يعتبر ترفًا. وهذا التعميم ينطبق أيضًا على رعاة ماقبل الصناعة الذين قلّما استثمروا قطعانهم من أجل اللحوم في المقام الأول.

في أوساط الجماعات البشرية الزراعية والرعوية القديمة في الشرق الأوسط، كانت تقدر قيمة الحيوانات الأليفة بصفتها مصادر للحليب والأجبان والجلود والسماد والألياف والجرّ بغرض الحراثة. وقدّمت الماعز والأغنام والأبقار قسمًا وافرًا من هذه المواد مع إضافة غذائية من اللحوم خالية الدهون بين الفينة والأخرى. بناء على ذلك، كان لا بد من أن يكون لحم الخنزير منذ البداية طعامًا كماليًّا، له مكانته بسبب خصائصه البضّة واللينة والدهنية.

مكتبة الفكر الجديد

بين عامي 7000 و2000 ق. م. أصبح لحم الخنزير مرة أخرى أكثر ترفًا. في هذه الفترة كانت الزيادة السكانية قد بلغت ستين ضعفًا في الشرق الأوسط. ترافقت الزيادة السكانية مع إزالة الغابات على نطاق واسع، نتيجةً للأذى الدائم الذي سببته قطعان الأغنام والماعز، الكبيرة خصوصًا. فبات الفيء والماء بالتدريج، وهما الشرطان الطبيعيان الملائمان لتربية الخنازير، أكثر ندرة، بل إن لحم الخنزير انتهى إلى أن يكون ترفًا بيئيًّا واقتصاديًّا.

كما في تحريم أكل لحوم الأبقار، كلما ازداد الإغواء، تزداد الحاجة إلى تحريم إلهي. هذه العلاقة مقبولة على العموم من حيث إنها مناسبة لتفسير السبب في أن الآلهة دائمًا كانت مهتمة بمكافحة الإغراءات الجنسية كسفاح القربى والزنا. وأنا هنا أقارب الأمر من جهة الطعام المغري. والشرق الأوسط هو المكان الخطأ لتربية الخنازير، لكن لحم الخنزير يبقى مكافأة غضة. ويجد الناس على الدوام صعوبة في مقاومة إغراءات كهذه من تلقاء أنفسهم. من هذا المقام تردد عن دين اليهود قوله إن الخنازير نجسة، ليس كونها طعامًا فحسب، بل في اللمس أيضًا. وتردد عند المسلمين الرسالة ذاتها للسبب ذاته: كان من سوء التكيف من الناحية البيئية أن تجرب تربية الخنازير بأعداد كبيرة. والإنتاج على نطاق ضيق سيؤدي إلى زيادة الإغراء لا أكثر. فالأفضل إذًا أن تحظر استهلاك لحم الخنزير بشكل كلي، وأن تركز على تربية الماعز والأغنام والأبقار. للخنازير مذاق لذيذ، لكن كان من المكلف للغاية أن تؤمن لنفسها الطعام وتحافظ على برودة أجسامها.

يبقى هناك الكثير من الأسئلة، خصوصًا السؤال عن أن الكائنات الأخرى المحظورة في الكتاب المقدس - النسور والصقور والأفاعي والحلازين والمحار والأسماك عديمة الحراشف، وما شابَهَ ذلك - جاءت تحت التحريم الإلهي نفسه. فلماذا يستمر اليهود والمسلمون الذين لا يقطنون الشرق الأوسط الآن - بتفاوت درجات الانضباط الصحي والحمية - في مراعاة القواعد الغذائية قديمة العهد؟ يلوح لي، عمومًا، أن معظم الطيور والحيوانات المحظورة يندرج في واحدة من فئتين: بعضها، كالعقبان والنسور والصقور،

مكتبة الفكر الجديد

لا يعوَّل عليها كونها مصادر غذاء مجدية. والأخرى، كالمحار، بالتأكيد ليست متاحة أمام التجمعات السكانية المختلطة بين رعوية وزراعية. وحتى ما تحويه هذه الفئات من الكائنات المحرمة لا يثير نوعًا من السؤال الذي قمتُ بعرضه بغرض الإجابة - أعني، كيف تعلل محرمًا شاذًّا مهملًا بكل جلاء. وبمنتهى الوضوح، ليس ثمة ما هو لاعقلاني في أن لا يهدر المرء وقته في مطاردة النسور من أجل الغداء، أو عدم المشي لخمسين ميلًا في القفار من أجل طبق من كائنات البطلينوس التي لا يتجاوز كل منها نصف المحارة.

إنها لحظة ملائمة كي ندحض فيها أن للممارسات كلها المرتبطة بالطعام الموسوم بالرفض دينيًّا تفسيرات بيئية. للمحرمات مهمات اجتماعية أيضًا، مثل مساعدة الناس في أن ينظروا إلى أنفسهم كونهم جماعة مميزة. تؤدي هذه المهمة على نحو جيد المراعاةُ العصرية للقواعد الغذائية وسط المسلمين واليهود خارج مواطنهم الشرق أوسطية. والسؤال الذي يطرح نفسه إزاء هذه الممارسات هو في ما إذا كانت تحدّ بدرجة سافرة من الرفاهية الدنيوية والعملية لليهود والمسلمين بحرمانهم عناصر غذائية من الأنواع التي لا بدائل متوافرة لها تحت الطلب. أظن أن الجواب بكل تأكيد هو النفي. أما الآن فاسمحوا لي بمقاومة إغراء من نوع آخر؛ الإغراء بأن أفسر كل شيء. أظن أن هناك المزيد مما سنفهمه حول كارهي الخنزير إذا انتقلنا إلى النصف الآخر من اللغز، إلى محبّي الخنزير.

إن حبّ الخنزير هو النقيض العاطفي (soulful) للخزي الإلهي الذي يراكمه المسلمون واليهود حول الخنزير. لم يحدث الوصول إلى تلك الحالة من خلال مجرد الحماسة لتذوّق طبخ الخنزير. هناك الكثير من تقاليد الطبخ، من ضمنها الأوروبية والأميركية والصينية، تثمّن لحوم ودهون الخنازير، أما حبّ الخنزير فأمر مختلف. إنه حالة تشاركٍ متكاملة بين الإنسان والخنزير. ففي حين يهدد وجود الخنزير الهيبة الإنسانية للمسلمين واليهود، لا يستطيع المرء ضمن بيئة حب الخنزير أن يكون إنسانًا حقيقيًّا إلا في رفقة الخنازير.

يتضمن حب الخنزير تربية الخنازير لتصبح من أفراد العائلة، ينامون إلى جوارها، يتحدثون إليها، يمسدونها ويلاطفونها، ينادونها بالاسم، يقودونها

مكتبة الفكر الجديد

بطوق العنق إلى الحقول، يبكون عندما تمرض أو يصيبها أذى، ويطعمونها أطايب الطعام عن مائدة العائلة. لكن بخلاف حب الهندوس للبقرة، يتضمن حب الخنزير أيضًا التضحية به وتناوله في المناسبات الخاصة. ثم إن الذبح الشعائري والولائم المقدسة، تفتح عبر حب الخنزير آفاقًا للتشارك والتبادل بين الإنسان والبهيمة أوسع مما هي في واقع الأمر عند المزارع الهندوسي وبقرته. وتتجلى ذروة حب الخنزير بدمجه بما هو لحم في لحم المُضيف الإنساني ثم دمج الخنزير بما هو روحٌ في روح الأسلاف.

يتجلى حب الخنزير في أن تبجّلَ أباكَ المتوفى باقتياد خنزيرة عزيزة إلى الموت قرب موضع قبره ثم شيّها في موقد أرضي حُفر في البقعة نفسها. وحب الخنزير في أن تحشو فمَ نسيب لك بحفنات من شحم البطن المملح البارد كي تجعله وفيًا وسعيدًا. قبل كل شيء، إن حب الخنزير هو وليمة الخنزير الكبرى، تُعقد مرة أو اثنتين كلّ جيل، فحين تدعو الحاجة إلى أن تُشبع توق الأسلاف للحم الخنزير، وأن تطمئن لسلامة الأواصر الاجتماعية، وتضمن النصر في حروب المستقبل، فإن معظم الخنازير البالغة سيُقتل ويُلتهم بشراهة.

أجرى روي رابابورت من جامعة ميتشيغن دراسة تفصيلية عن العلاقة بين الخنازير والمارينغ (Maring) المحبين للخنزير، وهم مجموعة رجال قبائل يقطنون جبال بسمارك في نيو غينيا. يصف رابابورت ففي كتابه **خنازير للأسلاف: الشعائر في أوساط شعب نيو غينيا**، كيف أن حب الخنزير يساهم في حل المعضلات الإنسانية الأساسية. فهناك بدائل قليلة قابلة للتطبيق تبعًا للأوضاع المفترضة لحياة المارينغ.

تقيم كل جماعة فرعية أو عشيرة من المارينغ مهرجان الخنزير بمعدل مرة واحدة كل اثنتي عشرة سنة. يستمر المهرجان برمّته – بما فيه التحضيرات الأولية والأضاحي على نطاق محدود، ثم الذبح النهائي الكبير – لمدة سنة، ويعرف بلغة المارينغ بالكايكو (kaiko). وفي الشهرين أو الثلاثة شهور الأوائل التي تلي مباشرة اختتام الكايكو، تنخرط العشيرة في قتال مسلح مع العشائر المعادية، ما يؤدي إلى خسائر كثيرة وفقدان المقاطعة أو كسبها بشكل نهائي.

مكتبة الفكر الجديد

وستقدَّم خنازير إضافية بوصفها أضاحي في أثناء القتال، ثم سرعان ما يجد كل من المنتصر والمهزوم نفسه مفجوعًا تمامًا بخنازيره البالغة التي بواسطتها يستجدي تأييد أسلافه ذوي القربى. يتوقف القتال فجأة، ويقصد المتحاربون المواضع المقدسة كي يغرسوا أشجارًا صغيرة تُعرف بالرمبيم (rumbim). ويشارك كل ذكر بالغ من العشيرة في هذه الشعيرة بطرح اليدين فوق شتلة الرمبيم وكأنها توضع في الأرض.

يخاطب ساحر الحرب الأسلافَ، مبينًا أن الخنازير قد نفدت لديهم وأنهم ممتنّون لكونهم على قيد الحياة. ويؤكد للأسلاف أن القتال قد انتهى الآن وأنه لن يكون هناك استئناف للعداوات ما دام الرمبيم في الأرض. ومن الآن فصاعدًا، سيتجه جهد الحياة وفِكَرها باتجاه تربية الخنازير؛ لكن عندما يكبر قطيع جديد من الخنازير، ما يكفي لكايكو هائل من خلاله يُقدم الشكر اللائق إلى الأسلاف، سيفكر المحاربون باجتثاث الرمبيم والعودة إلى ساح القتال.

في دراسة تفصيلية لعشيرة تدعى التسمباغا (Tsembaga)، استطاع رابابورت أن يبيّن أن الدورة الكاملة – التي تتضمن الكايكو، متبوعًا بالحرب، غرس الرمبيم، الهدنة، تربية قطيع جديد من الخنازير، اجتثاث الرمبيم، ثم الكايكو الجديد – ليست محض دراما سيكولوجية لمزارعين مربّين للخنازير دخلوا في الهيجان. كل جزء من هذه الدورة مندمج عضويًّا ضمن نظام اقتصادي معقد وذاتي التنظيم، يكيف على نحو فاعل توزّع عدد سكان التسمباغا من الإنسان والحيوان كي تتوافق والموارد المتاحة وإمكانات الإنتاج.

إن السؤال الرئيس الذي يُعتبر محوريًّا لفهم حب الخنزير عند المارينغ هو: ما الكيفية التي يقرر الناس وفقها كما ينبغي، أن يشكروا الأسلاف حين يمتلكون ما يكفي من الخنازير؟ لم يستطع المارينغ أنفسهم أن يوضحوا كم من السنوات ينبغي أن تمضي وكم من الخنازير ستدعو الحاجة إليها لأداء كايكو لائق. من المحتمل أن التوافق على أساس عدد ثابت من الحيوانات أو السنوات مستبعَد عمليًّا لأنه ليس لدى المارينغ تقويم، كما أن لغتهم تفتقر إلى ألفاظ أرقام أكبر من ثلاثة.

مكتبة الفكر الجديد

بدأ كايكو 1963 الذي حضره رابابورت، عندما بلغ العدد 169 خنزيرًا وما يقرب من 200 عضو من عشيرة التسمباغا. ذلك هو مدلول الأرقام ضمن شروط إجراءات العمل اليومي ونماذج الاستقرار التي تقدم المفتاح لمعرفة أمد الدورة.

تعتمد مهمة تربية الخنازير، إضافة إلى زراعة الدرنيات والقلقاس والبطاطا الحلوة، على كدح نساء المارينغ أولًا، إذ يصطحبن الخنازير الرضيعة مع الأطفال الرضّع إلى البساتين. وبعد أن تُفطَم، تدربها مروّضاتها على الهرولة سوية خلفهن كالكلاب. عندما تبلغ شهرها الرابع أو الخامس، تُترك الخنازير طليقة في الغابة لتلتقط طعامها إلى أن تدعوها مروّضاتها للعودة إلى البيت عند حلول الليل لتأكل الحصة اليومية المؤلفة من بقايا أو سِقطِ البطاطا الحلوة والدرنيات. وكلما بلغت خنازير امرأة ما سن النضج وزاد عددها، تحتّم على المرأة أن تعمل بمشقة أكبر كي تؤمن لخنازيرها وجباتها المسائية.

خلال وجود الـرمبيم في الأرض، لحظ رابابورت أن نساء التسمباغا كنّ واقعات تحت ضغط شديد لزيادة رقعة بساتينهن بغرض زراعة مزيد من البطاطا الحلوة والدرنيات، وتربية مزيد من الخنازير بأقصى ما يمكن من سرعة كي يتوافر «ما يكفي» منها لإقامة الكايكو المقبل قبل أن يسبقهم العدو. إن الخنازير البالغة التي تزن حوالى 135 رطلًا، أثقل من فرد المارينغ المتوسط، وعلى الرغم من التقاطها اليومي للطعام فإنها تكلف كلَّ امرأة من البذل لإطعامها ما يقارب جهدها لإطعام إنسان راشد. عندما آن أوان اقتلاع الرمبيم في عام 1963، كانت أكثر نساء التسمباغا طموحًا يقوم برعاية ما يعادل ستة خنازير من ذوات الـ 135 رطلًا، إضافة إلى العمل الزراعي لهن ولعائلاتهن، يطبخن، يرضعن، يحملن أولادهن الرضّع، ويصنّعن الأغراض المنزلية مثل سلال الحبال والمآزر المصنوعة من الخيوط، وسواتر العانات. يخلص رابابورت إلى أن رعاية ستة خنازير وحدها تستهلك 50 في المئة من إجمالي الطاقة اليومية التي يمكن أن تستهلكها امرأة مارينغ مؤهلة وحسنة التغذية.

كذلك يترافق عدد الخنازير عادة مع زيادة السكان البشريين، خصوصًا لدى الجماعات التي أحرزت النصر في الحرب السابقة. ولا بد من أن تُطعم

مكتبة الفكر الجديد

الخنازير والبشر من البساتين التي استبيحت وأُحرقت خارج الغابة الاستوائية التي تغطي منحدرات جبال بسمارك. وعلى غرار النظم البستانية المشابهة في المناطق الاستوائية، تعتمد خصوبة بساتين المارينغ على النتروجين الذي يوضع في التربة من خلال الرماد الذي تخلفه الأشجار المحروقة. لا يمكن أن تُزرع هذه البساتين لأكثر من سنتين أو ثلاث على التوالي، وبما أن الأشجار قد زالت، فإن الأمطار الكثيفة سرعان ما تغسل النتروجين وباقي مغذيات التربة. ويكون العلاج الوحيد في اختيار موضع آخر وحرق قطاع آخر من الغابة. ثم بعد نحو عقد، تستعيد البساتين القديمة عافيتها بما يكفي من النبات الثانوي، وبذلك يمكن حرقها مرة أخرى ثم إعادة زراعتها. تُعتبر مواضع البساتين القديمة هذه مفضلة لأن إزالة المخلفات أكثر سهولة فيها مما هي في الغابة العذراء. لكن بما أن عدد السكان من خنازير وبشر ينفجر في الزيادة خلال هدنة الـرمبيم، فإن نضوج مزروعات البساتين القديمة يتأخر ويجب أن تؤسس بساتين جديدة في الأراضي العذراء. على الرغم من أن هناك الكثير مما هو متوافر من الغابة العذراء، إلا أن مواضع البساتين المستحدثة تلقي عبئًا إضافيًّا على كاهل الجميع، وتخفض المعدل النموذجي للعائد عن كلّ وحدة عمل يستثمرها المارينغ في إطعام أنفسهم وخنازيرهم.

يتحتم على الرجال الذين يتولون إزالة المخلفات وحرق البساتين المستحدثة، العمل بأكبر قدر من المشقة بسبب علو الأشجار الاستوائية وكثافتها. غير أن المرأة هي أكثر من يعاني، إذ إن البساتين المستحدثة تقع بالضرورة على مسافة بعيدة من مركز القرية. كما أنه لا يكفي أن تزرع النسوة بساتين أوسع لإطعام عائلاتهن وخنازيرهن فحسب، بل يجب أن يستهلكن المزيد ثم المزيد من وقتهن لمجرد السير نحو العمل، والمزيد ثم المزيد من طاقتهن في عتل الخنانيص والأطفال في الذهاب والإياب من البستان، إضافة إلى الأحمال الثقيلة من قطاف الدرنيات والبطاطا الحلوة في طريق عودتهن إلى بيوتهن.

ثمة مصدر ضغط إضافي مصدره الجهد المتزايد الذي تتطلبه حماية البساتين من أن تأكلها الخنازير البالغة التي أُفلتت على هواها لالتقاط طعامها.

مكتبة الفكر الجديد

لذلك يجب أن يحاط كل بستان بسياج متين يبقي الخنازير في الخارج. مع ذلك، يبقى الخنزير الجائع الذي يزن 150 رطلًا خصمًا صعب المراس؛ إذ تتعرض الأسيجة للاختراق والبساتين للاجتياح مرارًا وتكرارًا كلما ازداد قطيع الخنازير. قد يُقتَل الخنزير المنتهِك إذا أمسك به بستاني غضوب. هذه الحوادث المزعجة تضع الجار في مواجهة الجار وتزيد من الشعور العام بالاستياء. وكما بيّن رابابورت، إن الحوادث المتعلقة بالخنازير تتزايد بالضرورة على نحو أسرع من تزايد الخنازير ذاتها.

كي يتم تجنب مثل هذه الحوادث، وكي يكونوا أقرب إلى بساتينهم، بدأ المارينغ يباعدون بين مساكنهم لتتوزع على مساحة أكثر اتساعًا. وهذا التشتت يُضعف أمان الجماعة عند تجدد النزاعات. بذلك يصبح المرء أكثر عرضة للغضب. وتبدأ النسوة بالتذمر لكونهن يعملن فوق طاقتهن، يتشاجرن مع أزواجهن ويفرغن غيظهن في أولادهن. ثم سرعان ما يبدأ الرجال بالتساؤل إن كان من المحتمل وجود «ما يكفي من الخنازير». يمضون لتفقّد الرمبيم ليتأكدوا كم نمَتْ واستطالت. ترفع النسوة من وتيرة تذمرهن، وفي النهاية يوافق الرجال، بإجماع ملحوظ ومن دون إحصاء الخنازير، على أن اللحظة قد حانت لبدء الكايكو.

خلال كايكو عام 1963، قتل التسمباغا ثلاثة أرباع خنازيرهم من حيث العدد، وسبعة أثمان من حيث الوزن. وُزّع كثير من هذا اللحم على الأنسباء والحلفاء العسكريين الذين تمت دعوتهم للمشاركة في الاحتفالات التي امتدت على مدار السنة. وذُبح في الشعائر المرتبطة بالمناخ التي مورست في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1963، 96 خنزيرًا، ووُزعت لحومها وشحومها إما بشكل مباشر وإما بشكل غير مباشر على ما يقدَّر بألفين أو ثلاثة آلاف إنسان. احتفظ التسمباغا لأنفسهم بـ 2500 رطل من لحم الخنزير وشحمه، أي 12 رطلًا لكل رجل وامرأة وولد، وهي كمية يستهلكونها في خمسة أيام متتالية من الشراهة المفتوحة.

يستغل المارينغ الكايكو بشكل واع لمكافأة حلفائهم على مؤازرتهم السابقة ولالتماس ولائهم في النزاعات المقبلة. ومن جهتهم يقبل الحلفاء

مكتبة الفكر الجديد

الدعوة إلى الكايكو لأنه يمنحهم الفرصة لأن يقرروا فيما إذا كان مضيفهم مزدهرًا وقويًّا ما يكفي لضمان الدعم المستدام؛ بالتأكيد، إن الحلفاء أيضًا جائعون للحم الخنزير.

يتزيّن الضيوف بأبهى حللهم، يطوقون أعناقهم بعقود الخرز والأصداف، ويضعون أوسمة المحار على أرديتهم الجلدية، وأحزمة من ألياف نبات السحلب، ومآزر مخططة بالبنفسجي يحيط أطرافها فراء حيوان جرابي، وطبقات من أوراق نباتية على شكل الأوكورديون طوّقتها أرداف مستعارة على مؤخراتهم. وتيجان من ريش النسور والببغاوات تتوسط رؤوسهم، مزينة بسُوق السحلب، وبخنافس خضراء وقواقع متوجة بطائر جنّة محشو بكامله. وكان كل واحد من الرجال قد أمضى ساعات وهو يطلي وجهه وفق تصميم مبتكر، ويضع عبر أنفه أفضل ريشة طائر جنة لديه جنبًا إلى جنب مع قرص أو صدفة هلالية الشكل مما هو أثير لديه. يمضي الضيوف والمضيفون جل الوقت وهم يتباهون أمام بعضهم بعضًا بالرقص على منصة الرقص التي أنشئت بشكل خاص للمناسبة، ممهدين الطريق للحلفاء الشهوانيين مع المتفرجات الإناث، كذلك للحلفاء العسكريين مع المحاربين الرجال.

احتشد ما ينيف على ألف شخص على منصة رقص التسمباغا ليشاركوا في الطقوس التي أعقبت الذبح الكبير الذي حضره رابابورت في عام 1963. كمكافأة خاصة وُضعت كومة من رزم لحم الخنزير المملح خلف نافذة بناء شعائري ذي ثلاثة جوانب محاذٍ لحلبات الرقص. وبكلمات رابابورت:

«ارتقى رجال عدة قمة البناء ومن هناك أعلنوا للحشد أسماء وعشائر الرجال الذين يتم تكريمهم. حالما أُعلن اسم الرجل المكرَّم، توجه نحو... النافذة وهو يلوح ببلطته ويصيح. تبعه مؤيدوه، مطلقين صرخات المعركة، قارعين الطبول، ملوحين بأسلحتهم. عند النافذة كان فم الرجل المكرم قد حُشي بشحم كرش الخنزير البارد المملح من أهل التسمباغا الذين جاء لمؤازرتهم في القتال الأخير، والذين مرروا إليه للتو عبر النافذة رزمة تحوي كرشًا مملحًا إضافيًّا من أجل أتباعه. البطل الآن قد تراجع وشحم الكرش

مكتبة الفكر الجديد

يتدلى من فمه، يحفّ به من الخلف مؤيدوه، يهتفون ويغنون ويدقون طبولهم ويرقصون. وسرعان ما يُتلى اسم مكرم بعد آخر، والمجموعات التي تتقدم نحو النافذة تختلط أحيانًا مع تلك التي تراجعت».

ضمن الحدود التي فرضتها الشروط التقنية والبيئية الأساسية للمارينغ، ثمة تفسير عملي لكلّ هذا. قبل كل شيء، أولًا، إن التوق إلى لحم الخنزير مظهر شعائري مكتمل لحياة المارينغ في ظل الندرة السائدة للحوم في غذائهم. ففي حين يمكنهم دعم غذائهم النباتي الأساس بين الفينة والأخرى بالضفادع والجرذان والجرابيات، يعتبر لحم الخنزير المدجن أفضل مصدر ممكن للدهون والبروتين الحيواني عالي الجودة. هذا لا يعني أن المارينغ يعانون شكلًا حادًّا من نقص البروتين، بل على النقيض من ذلك، إن تغذيتهم من الدرنيات والبطاطا الحلوة والقلقاس وباقي المأكولات النباتية تمدهم بتشكيلة واسعة من بروتينات الخضراوات التي تعوض، لكنها لا تتجاوز كثيرًا الحد الأدنى من معايير التغذية. على أي حال، يبقى الحصول على البروتين من الخنازير هو شيء آخر. فالبروتين الحيواني بشكل عام أكثر تركيزًا، ومن الناحية الأيضية أكثر فاعلية من بروتين الخضراوات، لذلك فإن اللحوم بالنسبة إلى السكان البشريين الذين يقتصر غذاؤهم أساسًا على الخضراوات (لا أجبان أو حليب أو بيض أو أسمال) تُعدّ إغواء لا يقاوم.

علاوة على ذلك، إلى حد ما، فإنه من المنطقي بيئيًّا بالنسبة إلى المارينغ أن يربوا الخنازير. فالحرارة والرطوبة مثاليتان، حيث تنمو الخنازير في بيئة المنحدرات الجبلية الرطبة والظليلة وتحصل على جزء من غذائها الرئيس عبر التجوال بحرية في أرض الغابة. إن التحريم الكامل للحم الخنزير - الإجراء الشرق الأوسطي - سيكون من أكثر الممارسات لاعقلانية ولااقتصادية في ظل توافر هذه الشروط.

من ناحية أخرى، سيؤدي مجرد النمو في عدد الخنازير إلى التنافس بين الإنسان والخنزير، لأنه إذا أُتيح له أن يأخذ مداه، فستؤدي تربية الخنازير إلى إنهاك النسوة وستهدد البساتين التي يعتمد عليها المارينغ في بقائهم. فكلما

مكتبة الفكر الجديد

ازداد عدد الخنازير، تعين على النسوة أن يشتغلن كثيرًا. في نهاية المطاف يجدن أنهن يشتغلن لإطعام الخنازير عوضًا عن البشر. كلما وضعت الأراضي العذراء قيد الاستخدام، أصاب الانهيار فاعلية النظام الزراعي بأكمله. في هذه المرحلة التي يُعقد فيها الكايكو، يكمن دور الأسلاف في الحث على رفع جهود تربية الخنازير وكذلك في التأكد من أنها لن تحطم النسوة والبساتين. لا يمكن نكران أن مهمتهم أصعب من مهمة رب اليهود والمسلمين، من حيث إن التحريم الكلي أكثر سهولة في التحكم من التحريم الجزئي. على الرغم من ذلك، فإن الاعتقاد أن الكايكو يجب أن يعقد في أقرب وقت ممكن، كي يبقى الأسلاف سعداء، ويخلّص المارينغ بشكل فاعل من الحيوانات التي نمَت بشكل طفيلي، ويساعد في إبقاء عدد الخنازير دون حد الـ «زيادة المفرطة في الشيء الجيد».

لو كان الأسلاف أكثر فطنة، لماذا لا يحددون عدد الخنازير التي بوسع امرأة المارينغ أن تربيها؟ ألن يكون من الأفضل أن تربي عددًا ثابتًا من الخنازير بدلًا من أن تسمح لعددها بالازدياد لتدور عبر نقيضين من النقص والوفرة؟

سيكون البديل مفضلًا في حال أن النمو السكاني لكل عشيرة مارينغ كان صفرًا، وكانوا من دون أعداء، ويمارسون شكلًا مختلفًا من الزراعة بوجود حكام أقوياء، وقوانين مدوَّنة – باختصار، لو أنهم لم يكونوا المارينغ، لا أحد، ولا الأسلاف، يمكنهم أن يتكهنوا كم من الخنازير تعتبر «زيادة مفرطة في الشيء الجيد». فالمؤشر أن الخنازير تصبح عامل إرهاق لا يقوم على أي حزمة من الثوابت، بل يقوم بدلًا من ذلك على مجموعة من المتغيرات التي تتبدل من سنة إلى أخرى. الأمر يقوم على كمْ من الناس يعيش على كامل المنطقة وفي كل عشيرة، وعلى حالة حيويتهم الجسدية والنفسية، وعلى مساحة إقليمهم، وعلى مقدار الغابة الجانبية التي يمتلكون، وعلى ظرف المجموعات المعادية في الأقاليم المجاورة ونواياهم. لا يمكن لأسلاف التسمباغا ببساطة أن يقولوا: «لكم أن تُبقوا أربعة من الخنازير، وليس أكثر»، لأنه ليس هناك من طريقة لضمان أن الأونداغاي (Aundagai) والكاواسي (Kauwasi) والمونامبانت (Monambant) وكل الآخرين سيوافقون على العدد. فكل هذه المجموعات متورطة في صراع

مكتبة الفكر الجديد

كي تؤكد صلاحية مطالبها في حصة من موارد الأرض. وتأتي الحرب والتهديد بها ليسبرا هذه المطالب ويختبراها. فيكون توق الأسلاف الذي لا يُشبَع للخنازير من عواقب السّبر والاختبار المسلَّحين من عشائر المارينغ.

كي ترضي الأسلاف، ثمة جهد أقصى يجب أن يبذل ليس لإنتاج أكثر ما يمكن من غذاء وحسب، بل لأن يتراكم من طريق تشكّل قطيع الخنازير. هذا الجهد، على الرغم من أنه يؤدي إلى فائض دوري من لحم الخنزير، إلا أنه يحسّن قدرة المجموعة على البقاء على قيد الحياة والدفاع عن إقليمها.

إنها تقوم بذلك بطرائق عدة: أولها، الجهد الإضافي المسمى من الآن فصاعدًا بشبق الأسلاف للخنزير الذي يرفع من مستويات تناول البروتين لدى كامل الجماعة خلال هدنة الرمبيم، الأمر الذي ينتج منه سكان أكثر طولًا وصحة وحيوية. أضف إلى ذلك أنه بربط الكايكو بنهاية الهدنة، يكفل الأسلاف أن تلك الجرعات الهائلة من البروتين والدهون عالية النوعية سيتم استهلاكها في فترة التوتر الجمعي الأقصى؛ في الشهور التي تسبق مباشرة اندلاع القتال بين الجماعات. أخيرًا، بمراكمة كميات كبيرة من فائض الغذاء متمثلة بلحوم الخنازير ذات القيمة من الناحية التغذوية، فإن بمقدور عشائر المارينغ أن تجذب وتكافئ الحلفاء حين تدعو الحاجة الماسة إليهم، مرة أخرى بالضبط قبيل اندلاع الحرب.

إن التسمباغا وجيرانهم واعون للعلاقة بين النجاح في تربية الخنازير والمقدرة العسكرية. فعدد الخنازير التي ذبحت في الكايكو يمدّ الضيف بالقواعد المضبوطة لتكوين رأي في مدى صحة أصحاب الوليمة ومقدرتهم وثباتهم. أما الجماعة التي لا تنجح في مراكمة الخنازير فهي لن تستطيع على الأرجح أن تبني دفاعًا جيدًا عن إقليمها، ولن تجتذب حلفاء أقوياء. ليس ثمة أدنى شعور مسبق لامنطقي من أن الإحباط يخيم فوق أرض المعركة حين لا يُمنح أسلاف المرء كفايتهم من لحم الخنزير في الكايكو. يصر رابابورت - وهو على حق، كما أعتقد - وفق التقدير الإيكولوجي الأولي، أن فائض الخنازير لدى الجماعة يدلّ على قوتها ووفرتها العسكرية ويمنح أو لا يمنحها

مكتبة الفكر الجديد

الشرعية لمطالبها الإقليمية. بمعنى آخر، تتبدى آثار النظام بأكمله في التوزع المتكافئ للنبات والحيوان والبشر في الإقليم، من وجهة النظر الإيكولوجية الإنسانية.

أنا على يقين من أن كثيرًا من القراء سوف يصر الآن على أن حبّ الخنزير مخاتل وغير ناجع إلى درجة كبيرة لأنه مرهون بالنشوب الدوري للحروب. فإذا كانت الحروب غير عقلانية، فهذا ينطبق على الكايكو. مرة أخرى، اسمحوا لي أن أقاوم إغواء تفسير كل شيء دفعة واحدة. في الفصل التالي سأناقش الأسباب الدنيوية لحروب المارينغ. أما الآن، فدعوني أبيّن أن سبب الحرب لم يكن حب الخنزير. هناك ملايين البشر الذين لم يشهدوا مجرد حرب خنزير؛ ولا كراهية الخنزير (أقديمة كانت أم جديدة) يعززون بشكل ملموس الهدوء في العلاقات بين الجماعات في الشرق الأوسط. لا يسعنا بما نعرفه من تفشي الحروب في التاريخ الإنساني وعصور ما قبل التاريخ، إلا العجب من النظام الحاذق المبتكَر لدى «همجيي» نيو غينيا لصونهم فترات مديدة من الهدنة. بعد كل ذلك، ما دام بقي رمبيم جيرانهم في الأرض، ليس للتسمباغا أن يقلقوا من أن يكونوا عرضة للهجوم. ربما يمكن للمرء أن يتحدث بالقدر نفسه، وليس أكثر، عن الأمم التي تغرس الصواريخ بدلًا من الرمبيم.

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Douglas, Mary. *Purity and Danger: An analysis of Concepts of Pollution and Taboo*. New York: Praeger, 1966.

Frazer, James. *The Golden Bough*. New York: Criterion Books, 1959.

Higgs, E. S. & M. R. Jarman. «The Origin of Agriculture.» in: Fried, Morton (ed.). *Explorations of Anthropology*. New York: Thomas Y. Crowell, 1973, pp. 188-200.

The Jewish Encyclopedia (1962).

Mount, Lawrence E. *The Climatic Physiology of the Pig*. London: Edward Arnold, 1968.

Protsch, R. & R. Berger. «The Earliest Radiocarbon Dates for Domesticated Animals.» *Science*. vol. 179 (1973), pp. 235-239.

Rappaport, Roy A. *Pigs for the Ancestors: Ritual in the Ecology of a New Guinea People*. New Haven: Yale University Press, 1967.

Sweet, Louise. «Camel Pastorialism in North Arabia and the Minimal Camping Unit.» in: Vayda, Andrew P. (ed.). *Environment and Cultural Behavior*. Garden City, N. J.: Natural History Press, 1969, pp. 157-180.

Towne, Charles Wayland. *Pigs, from Cave to Corn Belt*. Norman: University of Oklahoma Press, 1950.

Ucko, P. J. & G. W. Dimbleby (eds.). *The Domestication and Exploitation of Plants and Animals*. Chicago: Aldine, 1969.

Vayda, Andrew P. «Pig Complex.» in: *Encyclopedia of Papua and New Guinea*.

Vayda, Cherry Loman. Personal communication.

Zeuner, Frederick. *A History of Domesticated Animals*. New York: Harper and Row, 1963.

مكتبة الفكر الجديد

الحرب البدائية[1]

(1) بعض من الأفكار الواردة في هذا الفصل نُشر في مجلة *Natural History*، في تشرين الأول/ أكتوبر 1972 وشباط/ فبراير 1973.

مكتبة الفكر الجديد

تثير الحروب التي تشعلها القبائل البدائية المتفرّقة مثل المارينغ شكوكًا حول السبب الأساس الكامن وراء أنماط حياة البشر. فغالبًا ما تنتابنا الحيرة في شأن السبب الأساس لذهاب الدول القوميّة إلى الحرب، لكن قلّما نفتقد الروايات البديلة المعقولة التي يمكننا الاختيار في ما بينها.

تفيض كتب التاريخ بتفصيلات الحرب التي تتحدث عن صراع المقاتلين من أجل السيطرة على طرق التجارة أو المصادر الطبيعية أو الحصول على اليد العاملة الرخيصة أو البحث عن أسواق أكثر اتساعًا. ربما تبعث حروب الإمبراطوريات الحديثة على الأسى إلّا أنها لا تثير الحيرة، وهذا الاختلاف أساس من أجل الانفراج النووي في هذه الأيام، الذي يستند إلى افتراض أن الحروب تتضمن نوعًا من التوازن المنطقي للأرباح والخسائر. ففي حالة أن احتمال خسارة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي [سابقًا] هي، بشكل واضح، أكبر مما يمكن جنيه من الهجوم النووي، فإنه من غير المرجح أن يشن أي منهما الحرب حلًّا لمشاكله. لكن يمكن لنظام كهذا أن يمنع نشوب حروب نوويّة فحسب في حال كانت الحروب بشكل عام مرتبطة بأوضاع عملية وعادية. لكن احتمال الإبادة الذاتية لا يثبط عزيمة الصراع في حال خيضت الحروب من أجل أسباب مبهمة ولاعقلانية. وإذا كانت الحروب تنشب، كما يعتقد بعضهم، لكون الإنسان «مولعًا بالحرب» أساسًا، و«عدائيًّا» بالغريزة، كحيوان يقتل لغاية التريُّض أو الابتهاج، أو لمجرد الرغبة المطلقة في سفك الدماء والاهتياج العنيف، فعلينا إذًا أن نقبّل تلك الصواريخ قبلة الوداع.

تسيطر الدوافع المبهمة واللامنطقية على التفسيرات الحالية للصراعات البدائية. وبما أن للحرب عواقب مميتة على المشاركين فيها، يُعتبر الشك في أن المتقاتلين يعرفون السبب من وراء قتالهم، ضربًا من الوقاحة. لكن الأبقار أو

مكتبة الفكر الجديد

الخنازير أو الحروب أو الساحرات التي تجيب عن تساؤلاتنا، لا توجد في وعي المشاركين. ونادرًا ما يقبض المولعون بالحرب أنفسهم على الأسباب والعواقب المنهجية لمعاركهم. إنّهم يميلون إلى تفسير الحرب من خلال وصف ما اختبروه من المشاعر والدوافع الذاتية قبيل اندلاع الخصومات مباشرة. إن قبيلة الجيفارو (Jivaro) على وشك البدء بحملة صيد رؤوس تتيح الفرصة لانتزاع روح العدو؛ إن محارب الكراو (Crow) يتوق إلى لمس جثّة العدو ليبرهن على شجاعته؛ ويتأثر مقاتلون آخرون بفكرة الانتقام، وآخرون بإمكان أكل لحم البشر.

إن هذه الميول الغريبة واقعية للغاية، لكنها تعتبر من نتائج الحرب لا أسبابًا لها. إنها تحشد الإمكانات البشرية للعنف، وتساعد في تنظيم سلوك المولعين بالحرب. لكن للحروب البدائية، مثل حب الأبقار أو كره الخنازير، أساسًا عمليًا، إذ يذهب الناس البدائيون إلى الحرب لأنهم يفتقدون إلى الحلول البديلة لبعض المشكلات؛ حلول بديلة تقلّ فيها المعاناة والموت قبل الأوان.

يفسّر المارينغ، كما كثير من المجموعات البدائيّة الأخرى، سبب ذهابهم إلى الحرب من منطلق الحاجة إلى الانتقام من الأفعال العنيفة. وفي كل حالة تم جمعها من رابابورت، بدأت الجماعات التي تعايشت بسلام سابقًا، بإشعال حروب بعضها ضد بعضها الآخر في إثر الادعاءات بحدوث ممارسات عنيفة محددة. تتمثّل التحرّشات الأكثر مصادفة باختطاف النساء والاغتصاب، والتصويب على خنزير في بستان، وسرقة المحاصيل، والصيد من دون إذن، والموت أو الأمراض التي تنجم عن ممارسة السحر.

في إحدى المرات تورطت جماعتان من المارينغ في حرب سُفك فيها كثير من الدماء، فهؤلاء لم يفتقروا يومًا إلى الدوافع من أجل إحياء الخصومات. وكل ضحية في أرض المعركة كانت توضع في الحسبان من قبل أقاربها الذين لم يكونوا ليشعروا بالرضى حتى تتعدل الحصيلة بقتلهم أحد الأعداء. قدّمت كل جولة من القتال الدافع الكافي للجولة التالية، وغالبًا ما كان مقاتلو المارينغ يدخلون الحرب برغبة ملحّة في قتل أعضاء محدّدين من المجموعة العدوّة، ممن كانوا السبب في قتل أب أو أخ منذ عشر سنوات خلت.

مكتبة الفكر الجديد

تحدّثت في السابق عن جزء من قصة استعداد المارينغ للحرب. تقيم الجماعات العدوانية، بعد اقتلاع نبتة الـرمبيم المقدسة، مهرجانات الخنزير الضخمة التي يحاولون في خلالها تجنيد حلفاء جدد وتوطيد العلاقات السابقة مع المجموعات الصديقة. إن الكايكو حدث صاخب ومتعدد المراحل ويستمر شهورًا عدة، لذلك ليس ثمة إمكان لمحاولة الهجوم خلسة. في الواقع، يأمل المارينغ أن يضعف ترف الكايكو الخاص بهم من معنويات أعدائهم. يقوم كلا الطرفين بالتحضير للمعركة جيدًا مقدمةً للمواجهات الأولى. يجري الاتفاق، من طريق الوسطاء، على منطقة غير مشجرة موجودة على التخوم بين الطرفين كأرض ملائمة للقتال. يتناوب المشاركون على تنظيف هذا الموقع من الحشائش، ويبدأ القتال في يوم متفق عليه.

قبل التوجه إلى ساحة القتال، يجتمع المقاتلون في حلقات حول سَحَرتهم الذين يجثون قرب النار وينتحبون ويتحدثون مع الأسلاف. يضع المشعوذون سيقانًا طويلة من البامبو في اللهب، وحين ينفجر البامبو بفعل الحرارة، يخبط المقاتلون أقدامهم ويصرخون «أووووو»، وينتقلون إلى ساحة المعركة في رتل أحادي، يتبخترون ويغنون على امتداد الطريق. تنتظم القوتان المتقاتلتان على الجهتين المتقابلتين من الأرض، كل منهما في مرمى سهام الأخرى. يثبتون دروعًا خشبية تعادل حجم إنسان في الأرض، يحتمون خلفها، ويرسلون التهديدات والإهانات إلى الطرف الآخر. يخرج أحيانًا مقاتل من خلف درعه ليسخر من خصمه، ويعود أدراجه بلمح البصر عندما ينهمر وابل من السهام نحوه. تكون الإصابات قليلة خلال هذه المرحلة من القتال، ويحاول الحلفاء في كلا المخيمين إنهاء الحرب فور وقوع إصابة بليغة لأحدهم. لكن، إذا أصرّ أي من الطرفين على المضي في الانتقام، يتصاعد القتال. وفي هذه المرحلة، يفعّل المقاتلون استخدام الفؤوس والرماح الحادة. يقترب المتقاتلون بعضهم من بعض أكثر، وفي هذه الأثناء، قد يهاجم أحد الطرفين الطرف الآخر في محاولة محكمة للقتل.

تعقد هدنة فور مقتل أحدهم. ويبقى جميع المقاتلين، يومًا أو يومين، في موطنهم كي يتم إجراء شعائر الدفن أو لتمجيد أسلافهم. لكن، إن بقي

مكتبة الفكر الجديد

الطرفان متكافئين، سرعان ما يعودان إلى ساحة القتال. وعندما يطول الصراع، يصاب الحلفاء بالإنهاك ويميلون إلى العودة إلى موطنهم حيث توجد قراهم. في حال تزايدت الانسحابات لدى إحدى المجموعتين أكثر من الأخرى، قد تحاول القوة الأقوى مهاجمة الأخرى الأضعف وطردها من الساحة. عندئذٍ، تجمع الجماعة الأضعف مقتنياتها القابلة للنقل وتهرب إلى قرى حلفائها. وقد تسعى الجماعات الأقوى التي تتطلّع إلى النصر، لاستغلال الفرصة عن طريق اكتساح قرية العدو في أثناء الليل وإشعال النار فيها، وقتل أكبر عدد من الناس الموجودين فيها.

عندما تحلّ الهزيمة، لا يطارد المنتصرون الأعداء، بل يركزون عوضًا عن ذلك على قتل من تأخّر منهم وحرق الأبنية وإتلاف المحاصيل واختطاف الخنازير. انتهت تسع عشرة من أصل تسع وعشرين حربًا موثقة بين المارينغ بهزيمة إحدى المجموعات لمجموعة أخرى. بعد الهزيمة مباشرة، تعود المجموعة المنتصرة إلى قريتها، وتضحي بما بقى من خنازيرها، تزرع الرمبيم من جديد، مبتدئة بذلك مرحلة الهدنة. ولا تحتل أراضي عدوها بشكل مباشر.

ربما تؤدي الهزيمة المنكرة التي يُقتل فيها كثير من الناس إلى عدم عودة مجموعة ما إلى منطقتها السابقة. تندمج خطوط هجوم المهزومين مع خطوط حلفائهم ومضيفيهم، بينما يتمّ الاستيلاء على منطقتهم من المنتصرين وحلفاء المنتصرين. وفي بعض الأحيان، تتنازل المجموعة المهزومة عن أراضيها الحدودية للحلفاء الذين طلبت اللجوء إليهم. يقول آندرو فايدا الذي درس آثار ما بعد الحرب في منطقة سلسلة جبال بسمارك، إنه سواء أُهزمت مجموعة ما هزيمة نكراء أم لا، فمن المرجح لها أن تنشئ مستعمرتها بعيدًا من حدود العدو.

يتركز كثير من الاهتمام على سؤال ما إذا كان القتال والتجاور الإقليمي بين المارينغ ينتج مما يُطلق عليه على نطاق واسع «الضغط السكاني». فإذا كنا نقصد بـ «الضغط السكاني» العجز المطلق لإحدى المجموعات عن الحصول على الحد الأدنى من السعرات الحرارية المطلوبة، فلا يمكننا بالتالي أن نقول إن

مكتبة الفكر الجديد

ثمة ضغطًا سكانيًا في منطقة المارينغ. عندما عقدت التسمباغا مهرجان الخنزير في عام 1963، كان عدد السكان 200 وبلغ عدد الخنازير 169. بحسب رابابورت، تمتلك التسمباغا من أراضي الغابة غير المستعملة في منطقتها ما يكفي لإطعام 84 شخصًا إضافيًا (أو 84 خنزيرًا بالغًا) من دون التسبب بأي ضرر دائم للغطاء النباتي أو التقليل من مستوى النواحي الحياتية لقاطنيها، لكنني أعترض على تعريف الضغط السكاني بأنه بداية النقص الغذائي الفعلي أو الاستهلال الفعلي للتدمير غير العكوس للبيئة. برأيي أن الضغط السكاني ينشأ فور بدء اقتراب الكثافة السكانية من نقطة نقص السعرات الحرارية أو البروتين، أو فور بدئها بالنمو والاستهلاك بمعدل سيقلّل أو يستنزف عاجلًا أم آجلًا طاقات ديمومة الحياة في بيئتها.

إن العدد السكاني الذي يبدأ عنده النقص الغذائي والعوز بالظهور هو الحد الأعلى لما يدعوه علماء البيئة «طاقة الموطن». يمتلك معظم المجتمعات البدائية، مثل المارينغ، تقنيات مؤسساتية للحدّ من النمو السكاني وخفضه إلى ما دون «طاقة الموطن» بكثير. هذا الاكتشاف الذي أدّى إلى كثير من الإرباك؛ إذ يدّعي بعض الخبراء، على اعتبار أن بعض المجموعات خفّض العدد السكاني والإنتاج والاستهلاك قبل وقوع أي عواقب سلبية ملموسة لتجاوز «طاقة الموطن»، فلا يمكن للضغط السكاني أن يكون وراء خفض كهذا. وينبغي ألا نرى صمام الأمان عالقًا والمرجل منفجرًا كي نحكم على أن الصمام موجود هنا لأنه عادة ما يمنع المرجل من تدمير نفسه.

إن كيفية تحول هذه الخفوض – المكافئة ثقافيًا للترموستات وصمّامات الأمان وقاطعات الدّارة – إلى جزء من الحياة القبلية ليس باللغز الكبير. وكما في حالة التحديثات الأخرى المتكيفة تطوريًا، فإن الجماعات التي اخترعت أو اتبعت مؤسسات خفض النمو نجت بثبات أكبر من الجماعات الأخرى التي تجاوزت حد «طاقة الموطن». إن الصراع البدائي ليس نزويًا ولا غرائزيًا، بل هو إحدى تقنيات الخفض التي تساعد في إبقاء عدد السكان في حالة من التوازن البيئي بالنسبة إلى مواطنهم.

مكتبة الفكر الجديد

يفضل معظمنا ألّا يعتبر الحرب إجراء وقائيًا وإنما تهديدًا للعلاقات البيئية الراسخة التي تسبَّب بها السلوك اللاواعي وغير القابل للكبح. يظن كثير من أصدقائي أن التفكير في الحرب على أنها حلّ واعٍ لأي نوع من المشكلات هو بمنزلة إثم. وأظن، على الرغم من ذلك، أن تفسيري للحرب البدائية على أنها تكيُّف بيئي يقدّم أسبابًا موجبة للتفاؤل في إمكان إنهاء حالة الحرب الحديثة أكثر مما تقدمه النظريات الغريزية العدوانية الرائجة الحالية. وكما أسلفتُ، إذا كانت الحروب تقع بسبب غرائز قاتل بشري فطري، فليس هناك كثير مما يمكننا فعله بغرض إيقافها. وإن كانت الحروب، من جهة أخرى، تقع بسبب أوضاع وعلاقات حيوية، يمكننا عندها تقليل خطر الحروب بتغيير هذه الأوضاع والعلاقات.

لا أريد أن أبدو كمن يدافع عن الحرب، لذا اسمحوا لي أن أدلي بالتنصّل التالي: أقول إن الصراعات الحربية هي أسلوب حياة تكيّفي بيئي لدى الشعوب البدائية، لكن ذلك لا يعني أن الحرب الحديثة عبارة عن تكيّف بيئي. لأنه، وبوجود الأسلحة النووية، يمكن أن يتم تصعيد الحرب الآن إلى درجة الفناء المتبادل والشامل. وصلنا إلى مرحلة من تطور جنسنا يكمن فيها التقدم التكيّفي الكبير التالي، إما في استبعاد الأسلحة النووية وإما في استبعاد الحرب ذاتها.

يتم الاستدلال على وظائف ضبط نظام الحرب أو الحفاظ عليه لدى المارينغ عبر خطوط عدة مختلفة من الدلائل: أولًا، نعلم جميعنا أن الحرب تندلع عندما يتعاظم الإنتاج والاستهلاك وتتنامى من جديد أعداد السكان والخنازير عن المستويات المنخفضة التي بلغتها في نهاية الحرب الأخيرة. إن إيقاف مهرجان الخنزير والنزاعات اللاحقة لا يتزامن مع الحدود القصوى نفسها بالنسبة إلى كل دورة. ويحاول بعض الجماعات شرعنة مطالبه بالأراضي في مستويات أدنى من الحدود القصوى السابقة نتيجة للنمو السريع والمتفاوت للجيران الأعداء. وقد يرجئ آخرون مهرجان الخنزير الخاص بهم حتى يتجاوزوا فعليًا عتبة «طاقة الموطن» لمنطقتهم المحلية. ما يهمنا ليس تأثيرات

مكتبة الفكر الجديد

الحرب التي تتحكم بالعدد السكاني لهذه العشيرة أو تلك، بل بالعدد السكاني لمنطقة المارينغ بأكملها.

لا ينجز الصراع الحربي البدائي تأثيراته المنظِّمة أساسًا من خلال الموت في المعركة. فلا يؤثر الموت في أثناء القتال في معدل النمو السكاني بشكل ملموس حتى لدى الشعوب التي تمارس أنواعًا مصطنعة من القتل. وتظهر عشرات ملايين حالات القتل في معارك القرن العشرين على شكل تذبذب ضئيل في الاتجاه التصاعدي الثابت لمنحنى النمو. فلنأخذ روسيا على سبيل المثال: خلال ذروة القتال والمجاعة في الحرب العالمية الأولى والثورة البلشفية، كان الارتباط بين عدد السكان المخطط له في وقت السّلم وعدد السكان الفعلي في وقت الحرب لا يتجاوز نسبة مئوية قليلة. وجرى تعويض العدد السكاني الروسي بالكامل بعد عقد من انتهاء القتال، ثم عاد المنحنى البياني إلى الوضع الذي كان سيصله وكأن الحرب أو الثورة لم تنشب قط. مثال آخر: في فيتنام، وعلى الرغم من الشدة الاستثنائية للحروب البرية والجوية، ازدادت الكثافة السكانية باطراد طوال فترة الستينيات.

قال فرانك ليفينغستون من جامعة ميتشيغن، مشيرًا إلى الكوارث مثل الحرب العالمية الثانية، وبوضوح بليغ: «عندما ندرك أن هذه المذابح تحدث مرة واحدة في كل جيل، سيتبيّن لنا بما لا يقبل الجدال أنها لا تحمل أي تأثير في نمو العدد السكاني أو حجمه». أحد أسباب ذلك هو أن المرأة العادية ولودٌ للغاية، ويمكنها أن تلد ثماني أو تسع مرات خلال السنوات الخمس والعشرين أو الخمس والثلاثين التي تستطيع خلالها الحمل. بقي العدد الكلّي للوفيات الناجمة عن الحرب العالمية الثانية تحت الـ 10 في المئة من العدد السكاني، وكان بإمكان زيادة طفيفة في عدد الولادات لكل امرأة أن تعوّض النقص بسهولة في سنوات قليلة (ساعد في ذلك انخفاض معدلات وفيات الأطفال ومعدلات الموت بشكل عام أيضًا).

لا يمكنني أن أخبركم بالمعدلات الفعلية لوفيات الحرب لدى المارينغ. لكن في أوساط اليانومامو، وهي قبيلة تقع على الحدود بين البرازيل وفنزويلا،

مكتبة الفكر الجديد

ومعروفة كإحدى أكثر الجماعات البدائيّة ولعًا بالحرب، يقضي حوالى 15 في المئة من البالغين نتيجة للحرب. وسيكون لدي مجال أوسع للحديث عن اليانومامو في الفصل التالي.

يكمن أهم سبب لتراجع القتال باعتباره وسيلة للتحكم بعدد السكان في كون المحاربين الأساسيين والضحايا الرئيسيين للمعارك الحربية في كل مكان في العالم من الذكور. عند اليانومامو على سبيل المثال، تقضي 7 في المئة من النساء الراشدات في مقابل 33 في المئة من الرجال الراشدين في المعارك. وفقًا لآندرو فايدا فُجِع المارينغ في أكثر الهزائم دمويّة بمقتل أربعين رجلًا وست نساء وثلاثة أطفال من أصل عدد سكاني بلغ 300 فرد للجماعة المهزومة. يمكن تجاهل وفيات الرجال في أثناء القتال على اعتبارها من الوجهة العملية بلا تأثير في إمكان تناسل المجموعات مثل التسمباغا. ويمكن للإناث الناجيات أن يعوضن العجز في غضون جيل واحد، حتى لو قُتل 75 في المئة من الذكور البالغين في معركة طاحنة واحدة.

إن المارينغ واليانومامو، مثل معظم المجتمعات البدائية، مجتمعات متعددة الزوجات، ما يعني أن كثيرًا من الرجال يمتلكون زوجات عدة. تتزوج جميع النساء فور تمكنهن من الحمل ويبقين متزوجات طوال فترة حياتهن الإنجابيّة. يستطيع أي ذكر بشري سوي أن يبقي على أربع أو خمس زوجات خصبات حوامل معظم الوقت. وعندما يموت رجل من المارينغ، يكون هناك كثير من الأخوة وأبناء الأخ التوّاقين لوضع المرأة الأرملة في كنفهم. حتى في ما يتعلق بتأمين سبل العيش، فإنّ معظم الذكور غير ضروري على الإطلاق، ولا يمثل موت الذكور في القتال صعوبات غير قابلة للتجاوز بالنسبة إلى أراملهم وأولادهم. إن نساء المارينغ، كما ذكرت في الفصل السابق، هن العاملات الأساسيات في الزراعة ومربيات الخنازير على أي حال. ويصح ذلك على جميع أنظمة العيش التي تعتمد التقطيع والحرق في أنحاء العالم. يسهم الرجال في أعمال البستنة بإحراقهم الغطاء الحراجي، لكن النساء قادرات على القيام بهذا العمل المنهك على أتم وجه بمفردهن. كما أنه في معظم المجتمعات

مكتبة الفكر الجديد

البدائية، عندما يكون ثمة حمولة ثقيلة يجب نقلها - حطب أو سلال البطاطا - تعتبر النساء، وليس الرجال، «بهائم التحميل».

على اعتبار أن مساهمة رجال المارينغ في العيش في حدها الأدنى، نجد أنه كلما ارتفعت نسبة النساء في العدد السكاني، زادت الفاعلية الكليّة في إنتاج الغذاء. وفي ما يتعلق بالطعام، فإن رجال المارينغ كالخنازير: يستهلكون أكثر بكثير مما ينتجون. وسيتاح للنساء والأطفال أن يأكلوا بشكل أفضل لو أنهم صبوا جلّ اهتمامهم على تربية الخنازير وليس الرجال.

وهكذا، فإن الأهمية التكيفية لحروب المارينغ لا يمكن أن تتشكل نتيجة للموت الوحشي في أثناء القتال على النمو السكاني، لا بل أعتقد أن الحرب تحافظ على النظام البيئي للمارينغ من طريق اثنتين من العواقب غير المباشرة والأقل روائجًا. تتعلق إحداها بحقيقة أنه نتيجة للحرب، تُجبر المجموعات المحلية على إهمال مناطق بساتينها الرئيسة وتركها تحت «قدرة الموطن على التّحمل (carrying capacity)». والنتيجة الأخرى هي أن الحرب تزيد من معدل وفيات الأطفال الإناث، وبالتالي، بصرف النظر عن الأهمية السكانية الضئيلة لموت الذكور في أثناء القتال، تعمل كونها منظمًا فاعلًا للنمو السكاني في المنطقة.

أولًا، دعوني أشرح موضوع إهمال البساتين الرئيسة. لا يستخدم المنتصرون ولا الغالبون منطقة البستنة المركزية الخاصة بالمجموعة المهزومة لسنوات عدة بعد الهزيمة، التي تتألف من أفضل مواقع الغابة الثانوية معتدلة الارتفاع. على الرغم من أن هذا الإهمال موقت، إلا أنه يسهم في الحفاظ على «طاقة الموطن». عندما هزم الكانديغي التسمباغا في عام 1953، دمروا مزارع التسمباغا، ودمروا المزارع الملأى بأشجار الفاكهة، ودنّسوا المقابر وأفران الخنازير، وأحرقوا المنازل، وذبحوا الخنازير البالغة كلها التي وجدوها، وأخذوا جميع الخنازير الصغيرة إلى قراهم. كان هدف السرقات، كما يقول رابابورت، أن تجعل من عودة التسمباغا إلى منطقتهم أمرًا بالغ الصعوبة، وليس الحصول على الغنائم. تراجع الكانديغي إلى منطقتهم خوفًا من انتقام أشباح أسلاف

مكتبة الفكر الجديد

التسمباغا. وعلّقوا هناك بعض أحجار القتال السحرية في أكياس شبكية داخل ملجأ مقدّس. ولم تُنزل تلك الحجارة حتى تمكن الكانديغي من شكر الأسلاف في مهرجان الخنزير التالي. وطوال فترة بقاء الأحجار، كان الكانديغي خائفين من أرواح أسلاف التسمباغا، وامتنعوا عن أعمال البستنة أو الصيد في منطقة التسمباغا. والواقع هو أن التسمباغا أنفسهم أعادوا احتلال الأراضي المهجورة في نهاية المطاف. وفي الحروب الأخرى، كما أسلفتُ، يستفيد المنتصرون وحلفاؤهم في النهاية من الأراضي التي هجرت موقتًا بسبب الهزيمة. على أي حال، إن الأثر المباشر للهزيمة هو ترك أجزاء الغابات المزروعة بكثافة بورًا بينما تُعدّ المناطق التي لم تستخدم مؤخرًا – المناطق الحدودية غير المستخدمة الخاصة بالخاسر – للحراثة.

في مرتفعات نيو غينيا، وكذلك في مناطق الغابات الاستوائية كلها، يهدد التقطيع والحرق المتكرر للمنطقة نفسها قدرة الغابة على التعويض. وإذا كان الفاصل الزمني بين الحرق المتعاقب قصيرًا جدًّا، تصبح التربة قاسية وجافة ولا تتمكن الأشجار من إعادة تلقيح نفسها. وبالتالي تغزو الأعشاب أرجاء البستان، ويتحول الموطن بأكمله تدريجيًّا من غابات بدائية غنية إلى مراع محفرّة ومعرّاة لا يمكن استخدامها لغرض زراعة الأنواع التقليدية. ومن المعروف أن ملايين الفدادين من الأراضي العشبية في العالم تشكلت بهذا التتابع.

انتشرت إزالة الغابات بشكل قليل نسبيًّا بين المارينغ. وثمة بعض البقاع حيث توجد المراعي الدائمة والغابات الثانوية المتدهورة في منطقة الجماعات الكبيرة والمعادية مثل الكانديغي- الجماعة التي كانت مسؤولة عن هزيمة التسمباغا في عام 1953. لكن العواقب المدمّرة للحياة، الناتجة من محاولة إرغام الغابة على تغذية خنازير وبشر أكثر مما يمكن أن تستوعب طاقتُها، واضحة للعيان في الكثير من المناطق المتاخمة لمرتفعات نيو غينيا. على سبيل المثال، أظهرت دراسة أجراها مؤخرًا آرثر سورنسون على منطقة فوري الجنوبية من المعهد الوطني للصحة، أن منطقة فوري (Fore) تعاني أذى كبيرًا وغير قابل للإصلاح في مواطن غاباتها البكر على امتداد أربعمئة ميل مربع من سلسلة

مكتبة الفكر الجديد

الجبال المركزية؛ إذ احتلت أعشاب الكوناي الكثيفة موقع البستان المهمل وموقع القرية، بعد الحركة الاستيطانية التي تغلغلت في الغابات العذراء. يمكن مشاهدة التدهور العام للغابات في المناطق التي جرت فيها أعمال البستنة لسنوات عدة. أعتقد أن دورات حروب المارينغ الموقوتة شعائريًّا، والسلام الذي تخلقه نبتة الرمبيم، وذبح الخنازير، ساعد في حماية موطن المارينغ من مصير مماثل.

من بين الحوادث الغريبة كلها التي تحدث خلال الفترة الشعائرية - زرع الرمبيم وذبح الخنازير وتعليق أحجار القتال السحرية والحرب نفسها - تصيبني مسألة بسيطة كالتوقيت بدهشة تفوق أي أمر آخر. ففي منطقة المارينغ، يجب أن تبقى البساتين بورًا لمدة أدناها من 10 إلى 12 عامًا متتالية قبل أن تصبح قابلة للتنظيف بالحرق والزراعة من جديد من دون تعريضها لخطر التدهور والتحول إلى أراضٍ عشبية. ثم إن مهرجانات الخنزير تُعقد بمعدل مرتين في كل جيل - أو كل 10 - 12 عامًا. ولا يمكن لذلك أن يكون مجرد مصادفة. لذلك أعتقد أنه بات الآن بوسعنا الإجابة عن السؤال: «متى تمتلك قبائل المارينغ ما يكفي من الخنازير كي تشكر بها الأسلاف الميتين؟»، الإجابة: «عندما يكون لديهم ما يكفي من الخنازير بعد أن تُزرع الغابات من جديد في منطقة البساتين السابقة الخاصة بالمجموعة المهزومة».

كغيرهم من شعوب التقطيع والحرق، يعيش المارينغ من «الاقتيات على الغابة» - حرق الأشجار وزراعة المحاصيل في الرماد. كما تمنعهم دورتهم الطقسية وحربهم الشعائرية إلى حد كبير من الإفراط في الاقتيات على الغابات. تنسحب المجموعة المهزومة من الأراضي بالطريقة الأنسب للبساتين من حيث التضاريس، الأمر الذي يسمح بتجديد الغطاء الحراجي في القطاعات المهددة بالانقراض، حيث أكثروا من الأكل هم وخنازيرهم. ربما يعود المهزومون، في أثناء مكوثهم بين حلفائهم للاستفادة من أجزاء من منطقتهم، لكن ضمن مواقع غير خطرة من الغابات البكر بعيدًا من أعدائهم. وإذا نجحوا، بمساعدة حلفائهم، في تربية عدد من الخنازير وإعادة بناء قوتهم، فسيحاولون استرداد أراضيهم

مكتبة الفكر الجديد

وإعادتها إلى وضع الإنتاج الكامل مرة أخرى. يحرِّض إيقاعُ الحرب والسلام، القوة والضعف، كثرة الخنازير وقلة الخنازير، البساتين المركزية والبساتين المحيطية، مشاعرَ متقاربة عند جميع الجماعات المتجاورة. على الرغم من أن المنتصرين لا يسعون إلى احتلال منطقة عدوهم مباشرة، إلا أنهم يزرعون المناطق الأكثر قربًا لحدود عدوهم المهزوم من تلك التي كانوا يزرعونها قبل الحرب. الأهم من ذلك أن عدد خنازيرهم قد انخفض بشكل كبير، ما أسفر عن تراجع موقت في معدل التقدم نحو عتبة «طاقة الموطن». فعندما يصل عدد الخنازير حدّه الأقصى، يُنزل المنتصرون حجارة القتال السحرية ويقتلعون الرمبيم ويستعدون لاقتحام المناطق غير المحتلّة والمستصلحة حديثًا، بشكل سلمي إن كان أعداؤهم السابقون لا يزالون أضعف من أن ينازعوهم، أو بشكل انتقامي إن كان أعداؤهم السابقون قد عادوا إلى ما كانوا عليه.

يمكننا أن نفهم من الإيقاع المشترك للناس والخنازير والحدائق والغابات لماذا تنال الخنازير تلك القدسية الطقوسية بما لا يتوافق مع احتقارها في البقاع الأخرى من العالم. وباعتبار أن خنزيرًا بالغًا واحدًا يتناول المقدار نفسه الذي يتناوله إنسان راشد من الغابة، فإن ذبح خنزير يقلل من ذبح رجل مع ذروة كل إيقاع تالٍ. لا عجب إذًا في إجلال الأسلاف للخنازير، حيث كانوا سيضطرون إلى «أكلِ» أبنائهم وبناتهم!

تبقى مشكلة واحدة، وهي أن التسمباغا عندما هُزموا وطُردوا من أراضيهم في عام 1953، طلبوا اللجوء مع سبعة من الجماعات المحليّة المختلفة. وفي بعض الحالات، كانت الجماعات التي لجأوا إليها تستقبل «لاجئين» إضافيين من حروب أخرى قبل هزيمة التسمباغا وبعدها. وبالتالي يبدو أن التهديد البيئي لمناطق الجماعات المهزومة انتقل من مكان إلى آخر، وأن اللاجئين سيبدأون قريبًا بالاقتيات من غابات مضيفيهم. لذلك، فإن مجرد انتقال الناس ليس كافيًا ليمنع عدد السكان من التسبب بالتدهور البيئي. كما يجب أن تكون هناك طريقة للحدّ الفعلي من النمو السكاني. يقودنا هذا إلى النتيجة الثانية للحرب البدائية التي ذكرتها قبل قليل.

مكتبة الفكر الجديد

تمثل الحرب في معظم المجتمعات البدائية وسيلة فاعلة للتحكم بعدد السكان، لأن القتال الضاري والمتواصل بين المجموعات يعطي أهمية قصوى لتربية الأطفال الذكور أكثر من الإناث. فكلما ازداد عدد الذكور الراشدين، ازدادت القوة العسكرية التي تستطيع المجموعة ذات الأسلحة اليدوية أن تضعها في الخدمة، وازداد رجحان بقائها على أراضيها في مواجهة الضغوط التي يمارسها جيرانها. وفقًا للمسح السكاني على 600 مجموعة من الشعوب البدائية، الذي قام به وليام ت. ديفيل من المتحف الأميركي للتاريخ الطبيعي، فإن هناك خللًا ناجمًا عن تفوّق عدد الصبية على الفتيات في سن الأطفال الصغار والقاصرين (حتى سن 15). إن النسبة المتوسطة للصبيان إلى الفتيات هي 150 في مقابل 100، ولدى بعض الجماعات فإن الصبية ضعف عدد الفتيات. فلدى التسمباغا، هبطت نسبة الصبية إلى الفتيات إلى ما يقارب 150 في مقابل 100، وعندما نتحدث عن المرحلة العمرية للراشدين، تقترب النسبة الوسطية بين الرجال والنساء بحسب دراسة ديفيل من التساوي، ما يفترض وجود معدّل وفيات أعلى للرجال الراشدين في مقابل النساء الراشدات.

تُعتبر إصابات القتال السبب الأكثر رجحانًا لمعدل الوفيات الأكثر ارتفاعًا بين الرجال الراشدين. فلدى المارينغ، يفوق عدد إصابات الرجال في المعركة عدد إصابات النساء بمقدار 10 إلى 1. لكن، ما الذي يفسّر الحالة المعكوسة في المجموعة العمرية للصغار والقاصرين؟

إجابة ديفيل هي أن كثيرًا من الجماعات البدائية يمارس القتل السافر للأطفال الإناث. إذ يتم خنق الأطفال الإناث أو يتم إهمالهن وتركهن ببساطة في الأحراش. لكن غالبًا ما يتم التستر على قتل الأطفال، وينكر الناس أنهم يمارسونه - مثلما ينكر المزارعون الهندوس أنهم يقتلون أبقارهم. كما هي الحال بالنسبة إلى الخلل الحاصل في نسبة الجنسين بين الماشية في الهند، يوجد تباين في معدل وفيات الأطفال من إناث البشر وذكورهم، وهو ناتج من الإهمال في رعاية الأطفال وليس عن أي تهديد مباشر لحياة الأطفال الإناث.

مكتبة الفكر الجديد

كما أن الفرق الضئيل قد يساهم في مدى استجابة الأم لصراخ طفلها من أجل الطعام والحماية بشكل تراكمي في الخلل العام للنسبة بين الجنسين لدى البشر.

وحدها مجموعة كبيرة من القوى الثقافية يمكن أن تفسر ممارسة قتل الفتيات والتعامل الأفضل مع الأطفال الذكور. ففي المصطلحات البيولوجية الدقيقة، تعتبر الإناث أكثر قيمة من الذكور. فالذكور فائضون على الحاجة من حيث الإنتاج، إذ يكفي رجل واحد ليجعل مئات النساء حوامل، لكن الإناث فحسب يمكن أن يلدن الأطفال وهنّ من يقمن بتغذيتهم (في المجتمعات التي تفتقر إلى قوارير الأطفال والمستحضرات الغذائية البديلة لحليب الأم). فإذا كان لا بد من وجود نوع من التمييز العنصري بين جنسي الأطفال، يصبح من المتوقع أن الذكور سيكونون الضحايا. لكن الحال معكوسة تمامًا، وسيكون هذا التناقض عصيًّا على الفهم أكثر إذا اعترفنا بأن النساء قادرات جسديًّا وذهنيًّا على أداء المهمات الجسدية كلها المتعلقة بالإنتاج والبقاء من دون أدنى حاجة إلى أي نوع من أنواع المساعدة التي يقدمها الرجال. تستطيع النساء القيام بكل مهمة يستطيع الرجال القيام بها، على الرغم من قلّة كفاءتهنّ في الشؤون التي تتطلب قوة كبيرة. فباستطاعتهنّ الصيد باستخدام القوس والسهام وصيد السمك ونصب الفخاخ وقطع الأشجار إن تمّ تدريبهن على ذلك أو سمُح لهن بالتعلم. يمكنهنّ فعليًّا نقل الحمولات الثقيلة، كما يمكنهنّ القيام بأعمال البستنة في البساتين والحقول في أي موضع من بيئتهن. كذلك في الجماعات التي تعتمد على البستنة وعلى التقطيع والحرق مثل المارينغ، تعتبر النساء المنتجات الأساسيات للطعام. حتى بين جماعات الصيد مثل البشمان، يوفر عمل النساء ما يفوق ثلثي حاجات المجموعة من الغذاء. وأما بالنسبة إلى العوائق التي ترتبط بالحمل والحيض، فإن الزعامات الجديدة المؤيدة لتحرر النساء محقة تمامًا عندما تشير إلى أن هذه «المعوقات» قابلة للتقليص في معظم المهن والأنشطة الإنتاجية من خلال إجراء تعديلات طفيفة على جداول العمل، إذ إن الأساس البيولوجي المفترض لتقسيم العمل بناء على الجنس غير منطقي أبدًا. وبما أن جميع الإناث في مجموعة ما لا يكنَّ في المرحلة نفسها من الحمل في الوقت نفسه، يمكن أن تتم إدارة جميع

مكتبة الفكر الجديد

الوظائف التي تعتبر خاصة بالذكور - مثل الصيد أو الرعي - بشكل جيد جدًّا من النساء من تلقاء ذاتهن.

إن النشاط البشري الوحيد، باستثناء الجنس نفسه الذي يكون فيه تخصص الرجل لا بد منه هو النزاع المسلح الذي يشتمل على الأسلحة اليدوية. فالرجال وسطيًّا، أطول قامة وأكثر وزنًا وأقوى عضليًّا من النساء. يستطيع الرجال رمي الرمح لمسافة أبعد ولَـيَّ قوس أكثر عسرًا واستخدام هراوة أكبر. كما يستطيع الرجال الجري أسرع، باتجاه العدو في حالتي الكرّ والفرّ. ولن تتبدل الصورة إن اتفقنا مع بعض الزعامات المؤيدة لتحرُّر النساء بأنه يمكن أن يتم تدريب النساء أيضًا على حمل السلاح اليدوي. وإن قامت جماعة بدائية ما بتدريب النساء بدلًا من الرجال ليكنّ الاختصاصيات العسكريات لديها، فستكون قد اقترفت خطأً فادحًا. وستكون هذه المجموعة قد أقدمت على الانتحار حكمًا، إذ ليس ثمة أي حالة حقيقية موثّقة من هذا القبيل في أصقاع الأرض كلها.

تعكس الحرب القيمة النسبية لمساهمة الذكور والإناث في إمكان نجاة المجموعة. ومن خلال تقديم مكافأة في مقابل زيادة عدد الذكور الراشدين الجاهزين للقتال، ترغم الحرب المجتمعات البدائية على الحدّ من اهتمامها بالإناث. ذاك هو السبب، وليس القتال بذاته، ما يجعل الحرب وسيلة فاعلة لضبط النمو السكاني. وكما يعلم الجميع في المارينغ، يساعد الأسلاف هؤلاء الذين يساعدون أنفسهم إلى الحد الأقصى من طريق وضع الكثير من الرجال في ساحة القتال وإبقائهم هناك. لذلك، أميل إلى وجهة النظر التي تقول بإن الدورة الشعائرية بأكملها ليست إلا «خدعة» ذكيّة من طرف الأسلاف ليحضّوا المارينغ على تربية الخنازير والرجال عوضًا عن النساء من أجل حماية الغابة.

في تقص أبعد للأوضاع الحيوية التي أدّت إلى الحرب البدائيّة، لا يزال عليّ أن أواجه التساؤل عن السبب الذي يكمن وراء عدم استخدام وسائل أقل عنفًا من أجل إبقاء التعداد السكاني للمجموعات المحلية تحت «طاقة التحمّل». على سبيل المثال، ألم يكن أكثر جدوى للتسمباغا وموطنهم لو أنهم حدّوا من التعداد السكاني باستخدام بعض تقنيات ضبط الولادة ببساطة؟

مكتبة الفكر الجديد

الإجابة هي لا، لأنه قبل اختراع الواقي الذكري في القرن الثامن عشر لم يكن ثمة وسائل أمان فاعلة في أي مكان تضمن متعة نسبية وتمنع الحمل في الوقت نفسه. كانت أكثر السبل «السلمية» الفاعلة للحدّ من التعداد السكاني في السابق، باستثناء قتل الأطفال، هي الإجهاض، إذ يعرف كثير من الشعوب كيف يحرض على الإجهاض بشرب مستحضر ما سام. ويوجّه آخرون الأم الحامل إلى ربط شريط من الأقمشة حول بطنها. وعندما تفشل الطرائق السابقة كلها، تستلقي المرأة الحامل على ظهرها بينما تقفز صديقة لها بكامل قوّتها على بطنها. هذه الطرائق فاعلة بصورة متوسطة، لكن جانبها المظلم يتجلى في كون احتمال قتل الأم المستقبلية أقل بقليل فحسب من احتمال قتل الجنين.

بسبب الافتقار إلى أي وسيلة آمنة وفاعلة تمنع الحمل أو الإجهاض، يجب على الشعوب البدائية التركيز على وسائلها المؤسساتية للتحكم بتعداد سكان الأفراد الأحياء. ويكون الأطفال ضحايا منطقيين لهذه الجهود، فكلما كانوا أصغر، كان ذاك أفضل - باعتبار أنهم؛ **أولًا**، لا يستطيعون المقاومة؛ **وثانيًا**، قلة الاستثمار بهم ماديًّا واجتماعيًّا؛ **وثالثًا**، من السهل كسر الارتباطات العاطفية مع الأطفال أكثر من تلك الموجودة بين الراشدين.

على أي امرئ يجد حجتي فاسدة أو «غير حضارية» أن يقرأ عن إنكلترا في القرن التاسع عشر؛ إذ درجت عشرات الآلاف من الأمهات اللاتي يفرطن بشرب الجن على إلقاء أطفالهن في نهر التايمز أو بلفّهم في ملابس المصابين بالجدري أو بتركهم في براميل القمامة أو حتى بالارتماء فوقهم في حالة من الخدر والسكر أو أنهن خطّطن لتقصير حياة صغارهن بوسائل مباشرة أو غير مباشرة. في أيامنا هذه، لا تمنعنا إلّا الدرجة العالية من التعفّف الأخلاقي من الاعتراف بأن ممارسة قتل الأطفال ما زالت مستمرة على مستوى كوني بين شعوب البلدان المتخلّفة، حيث يصل معدل وفيات الأطفال بين من هم في السنة الأولى من العمر إلى 250 لكل 1000 طفل في الحالات العاديّة.

يقوم المارينغ بفعل الأفضل ضمن الأوضاع الأسوأ - المحنة العالمية للبشر قبل تنمية وسائل منع الحمل الفاعلة والإجهاض المبكر الآمن. فهم

مكتبة الفكر الجديد

يحفّزون أو يتحملون نسبة أعلى من وفيات الإناث الرضيعات مقارنة بوفيات الذكور الرضع. إن لم يكن ثمة تمييز ضد الإناث الرضيعات، فإن كثيرًا من الأطفال الذكور سيقع ضحايا الحاجة للسيطرة على التعداد السكاني. إن الحرب التي تضع مكافأة على تربية الحد الأقصى من أعداد الذكور، مسؤولة عن المعدل المرتفع لنجاة الذكور مقارنة بالإناث الرضيعات.

خلاصة ما سبق، إن الحرب هي الثمن الذي يفترض على المجتمعات البدائية أن تدفعه في مقابل رعاية الأبناء عندما لا يمكنهم تحمل تكاليف تربية البنات.

تقودنا دراسة الحرب البدائية إلى استنتاج مفاده أن الحرب كانت جزءًا من استراتيجية التكيف المرتبطة بأوضاع تقنية وسكانية وبيئية محددة. ولا نحتاج إلى استدعاء غرائز وهمية خاصة بالقاتل أو دوافع غامضة أو متقلبة كي نفهم السبب الذي يكمن وراء الشيوع الواسع للقتال المسلح في تاريخ البشرية. في هذه الحالة، لدينا كل ما يدعو إلى الأمل في أنه عندما تقتنع الإنسانية أنها ستخسر في الحرب أكثر مما يمكنها أن تجنيه، عندها ستوجد وسائل أخرى لحلّ النزاعات بين الجماعات.

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Brookfield, H. C. & Paula Brown. *Struggle for Land*. Melbourne: Oxford University Press, 1963.

Chagnon, Napoleon. *Yanomamo: The Fierce People*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1968.

_____. «Yanomamo Social Organization and Warfare.» in: Morton, Harris & Murphy (eds.). *War: The Anthropology of Armed Conflict and Aggression*, pp. 109-159.

Divale, William T. «Systematic Population Control in the Middle and Upper Paleolithic: Inferences Based on Contemporary Hunters and Gatherers.» *World Archeology*. vol. 4 (1972), pp. 222-243, personal communication.

Fried, Morton. «On Human Aggression.» in: Otten, Charlotte M. (ed.). *Aggression and Evolution*. Lexington, Mass.: Xerox College Publishing, 1973, pp. 355-362.

Langer, William. «Checks on Population Growth: 1750-1850.» *Scientific American*. vol. 226 (February 1972), pp. 94-99.

Livingstone, Frank B. «The Effests of Warfare on the Biology of the Human Species.» in: Morton, Harris & Murphy (eds.). *War: The Anthropology of Armed Conflict and Aggression*, pp. 3-15.

Sorenson, E. Richard et al. «Socio-Ecological Change Among the Fore of New Guinea.» *Current Anthropology*. vol. 13 (1972), pp. 349-384.

Spooner, Brian (ed.). *Population Growth: Anthropological Implications*. Cambridge: MIT Press, 1972.

مكتبة الفكر الجديد

_____. «Phases of the Process of War and Peace Among the Marings of New Guinea.» *Oceania*. vol. 42 (1971), pp. 1-24.

Vayda, Andrew P. «Hypotheses About Function of War.» in: Fried, Morton, M. Harris & R. Murphy (eds.). *War: The Anthropology of Armed Conflict and Aggression*. New York: Doubleday, 1968, pp. 85-91.

مكتبة الفكر الجديد

الذكر الهمجي[1]

(1) بعض من الأفكار الواردة في هذا الفصل نُشِر في مجلة *Natural History*، في أيار/مايو 1972.

مكتبة الفكر الجديد

يمثّل قتل الإناث أحد مظاهر الفوقية الذكورية. ويظهر، بحسب ظني، أن هناك مظاهر أخرى أيضًا للفوقية الذكورية متجذرة في الضرورات الحيوية للنزاع المسلح.

يجب علينا، من أجل تفسير التراتبية الجنسية البشرية، أن نختار مرة أخرى بين النظريات التي تشدد على الغرائز غير القابلة للتعديل والنظريات التي تؤكد إمكانات تكييف أنماط الحياة في ما يتعلق بالأضاع الحيوية والدنيوية القابلة للتعديل. أميل إلى رأي مؤيدي الحركة النسائية الذي يقول إن «التركيبة البنوية ليست حكمًا لا رجعة فيه»، والذي تعني أن الاختلافات الجنسية الفطرية لا تفسر التوزيع غير المتكافئ للامتيازات والصلاحيات بين الرجال والنساء ضمن المجالات المنزلية والاقتصادية والسياسية. لا ينكر مؤيدو الحركة النسائية أن امتلاك مبيضين بدلًا من الخصيتين يقود بالضرورة إلى أنواع مختلفة من التجارب الحياتية، وإنما ينكرون وجود شيء ما في الطبيعة البيولوجية للرجل والمرأة يقرر في حد ذاته أن يستمتع ذكور البشر بامتيازات جنسية واقتصادية وسياسية أكثر من الإناث.

بصرف النظر عن الإنجاب والتخصصات ذات الصلة الجنسية، لا يأتي إسناد الأدوار الاجتماعية على أساس الجنس تلقائيًا بمراعاة الاختلافات البيولوجية بين الرجال والنساء. لا يمكن للفرد منا من خلال الاطلاع على الحقائق البيولوجية والتشريح البشريين وحسب أن يتنبأ بأن الإناث سيكنّ الجنس التابع اجتماعيًا، وذلك لأن الجنس البشري فريد من نوعه في المملكة الحيوانية، وبسبب عدم وجود توافق بين مؤهلاته التشريحية الوراثية ووسائله في البقاء والدفاع. فنحن الجنس الأكثر خطورة في العالم مع أننا لا نملك الأسنان الأكبر والمخالب الأكثر حدّة واللدغة الأكثر سميّة، أو الجلد الأكثر

مكتبة الفكر الجديد

سماكة، بل لأننا نعرف كيف نعدّ أنفسنا بالمعدات القاتلة والأسلحة التي تقوم بوظائف الأسنان والمخالب واللدغ، وتساعدنا على الاختباء بشكل أكثر فاعلية من أي معدّات تشريحية مجردة. إن وسائلنا الأساسية للتكيف البيولوجي هي الثقافة، لا التشريح. فلا أتوقع بعد الآن أن يحكم الرجال النساء لأنهم أطول وأضخم جثة، بقدر ما أتوقع أن يُحكم الجنس البشري من الماشية أو الأحصنة - الحيوانات التي تفوق الزوج النمطي بمقدار ثلاثين مرة أكثر مما يفوق زوجته. ففي المجتمعات البشرية، لا يتم بسط السيطرة الجنسية بناء على أي الجنسين هو الأكبر أو أيهما الأكثر حزمًا بالفطرة، وإنما بناء على الجنس الذي يتحكّم بتكنولوجيا الدفاع والعدوان.

لو كنتُ على دراية بقدرات الرجال والنساء البنيوية والثقافية فحسب، لتنبأتُ بأن النساء وليس الرجال مرجحات للتحكّم بتكنولوجيا الدفاع والعدوان، وأنه إذا كان لا بدّ لأحد الجنسين من إخضاع الآخر، فستكون الإناث وليس الذكور. على الرغم من أني كنت سأصاب بالدهشة لازدواجية الشكل - التفوق في طول الذكور ووزنهم وقوتهم - خصوصًا في ما يتعلق بالأسلحة اليدوية، إلّا أني كنت سأعجب أكثر بشيء تمتلكه ولا يستطيع الذكور الحصول عليه، أعني التحكم بالولادة والرعاية وتغذية الرضّع. بعبارة أخرى، تتحكم النساء بالحضانة، ولأنهن يتحكمن بالحضانة، يمكنهن بالفعل تعديل أي نمط حياة يهددهن. فهن قادرات على اتباع الإهمال الانتقائي لإنجاب نسبة جنسية فارقة لمصلحة الإناث أكثر منها لمصلحة الذكور. كما أنهن قادرات أيضًا على إعاقة نشأة ذكور «مسترجلين» من طريق مكافأة الصبية الصغار على خضوعهم بدلًا من عدوانيتهم. وأتوقع أن تركز النساء جهودهن على تربية إناث، وليس ذكورًا، قاسيات وعدوانيات. وأتوقع أيضًا أن يكون العدد القليل من الذكور الناجين في كل جيل خجولًا ومطيعًا ومجتهدًا وممتنًا للتفوق الجنسي. أتوقع أن النساء كن سيحتكرن رئاسة الجماعات المحلية، حيث إنهن سيكنّ مسؤولات عن العلاقات الشامانية مع الأطراف الخارقة الطبيعة، وأن الإله سيخاطَب بالضمير المؤنث «هي». وأتوقع في المحصلة أن النموذج الأمثل والأرقى

مكتبة الفكر الجديد

للحكم سيكون بتعدد الأزواج - امرأة واحدة تتحكم بالخدمات الجنسية والاقتصادية لكثير من الرجال.

كانت النظم الاجتماعية التي تحكمها الإناث بهذا الأسلوب مفترضة فعليًا كونها شرطًا أساسًا للبشرية من مختلف المنظّرين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر. على سبيل المثال، اعتقد فريدريك إنغلز الذي حصل على أفكاره من عالِم الأنثروبولوجيا الأميركي لويس هنري مورغان أن المجتمعات الحديثة قد مرّت بمرحلة أموميّة كان النَّسَب فيها يردّ حصرًا إلى ذريّة النساء المهيمنة سياسيًّا أكثر من الرجال. ويستمر عدد كبير من مؤيدي الحركة النسائية الحديثين في الاعتقاد بهذه الأسطورة وتبعاتها. ويُفترض أن الذكور الخاضعين تكاتفوا معًا وأطاحوا بالأمهات الحاكمات، وامتلكوا أسلحتهن، وتآمروا منذ ذاك الحين من أجل استغلال الإناث والحطّ من قيمتهن. يقول بعض النساء اللاتي يقبلن تحليلًا كهذا إنه لا يمكن تحقيق التوازن بين قدرة الذكور وقدرة الإناث إلا بواسطة مؤامرة مقابلة متشددة تماثل حرب العصابات بين الجنسين.

هناك شيء واحد خاطئ في هذه النظرية: لم يتمكن أحد قط من توثيق حالة واحدة فقط تمثل النظام الأمومي الحق. الدليل الوحيد على مرور مرحلة كهذه، بعيدًا من أساطير الأمازونيات القديمة، هو أن حوالى 10 إلى 15 في المئة من مجتمعات العالم تتبع القرابة والنسب حصريًّا من خلال الإناث. لكن تعقّب النسب من خلال الإناث هو النسبة إلى الإناث، وليس النظام الأمومي. على الرغم من أن وضع المرأة في الجماعات التي تنسب إلى المرأة يميل إلى أن يكون جيدًا نسبيًّا، إلا أن الميزات الرئيسة للنظام الأمومي غائبة، حيث يهيمن الذكور بدلًا من الإناث على الاقتصاد والحياة المدنية والدينية، كما يتمتع الرجال، وليس النساء، بالحصول بصورة تمييزية على كثير من الزوجات في آن. كما أن الأب ليس المصدر الرئيس للسلطة داخل الأسرة، والأم كذلك. إن الشخصية الاستبدادية في الأسر التي تنسب إلى المرأة هي ذكر آخر: شقيق الأم (أو شقيق أم الأم أو ابن أخت أم الأم).

مكتبة الفكر الجديد

إن انتشار الحرب هو ما يدمر المنطق الذي يستند إليه التنبؤ بنظام أمومي. والنساء قادرات نظريًّا على مقاومة وحتى إخضاع الذكور الذين قمن برعايتهم ودمجهم في المجتمع بأنفسهن، غير أن الذكور الذين تربّوا في قرية أو قبيلة أخرى يمثلون نوعًا آخر من التحدي. فعندما يبدأ الذكور لأي سبب من الأسباب بتحمل عبء الصراع بين الجماعات، لن يكون أمام النساء خيار سوى تربية أعداد كبيرة من الذكور الشرسين التابعين لهن.

إن فوقية الذكور عبارة عن حالة من «ردّة الفعل الحازم»، أو ما دعي «تضخيم التحوّل» - وقد يسبب هذا النوع من الإجراءات فوضى تفجر الأدمغة في أنظمة الخطابات العامة التي تلتقط ثم تعيد تضخيم الإشارات خاصتها. فكلما كان الذكور أشرس، ازدادت الحرب، وكانت الحاجة إلى المزيد من أمثال هؤلاء الذكور أكبر؛ وكلما كان الذكور أشرس أيضًا، أصبحوا أكثر عدوانية جنسيًّا وازداد استغلال الإناث وسادت حالة تعدد الزوجات للرجل الواحد. إن حالة تعدد الزوجات تسهم بدورها في إنقاص النساء، رافعة مستوى الإحباط بين الذكور الصغار، ومعززة دافع الذهاب إلى الحرب. يحضر التضخيم لذروة عنيفة؛ تعامَل الإناث بازدراء ويقتلن في مهدهن، ما يجعل الذهاب إلى الحرب ضروريًّا بالنسبة إلى الرجال للحصول على زوجات من أجل تربية أعداد إضافية من الرجال العدائيين.

لفهم العلاقة بين شوفينية الذكور والحرب من الأفضل دراسة أساليب حياة مجموعة محددة من أنصار التمييز الجنسي العسكريين البدائيين. اخترت لكم اليانومامو، مجموعة من حوالى 10,000 رجل من رجال القبائل الهندية الأميركية الذين يقيمون على حدود البرازيل/ فنزويلا. وُصف اليانومامو بأنهم «الشعب الشرس» من طرف الإثنوغرافي الرائد الذي درسهم، نابوليون شينون من جامعة ولاية بنسلفانيا. يتفق جميع المراقبين الذين كانوا على صلة دائمة بهم على أنهم من أكثر المولعين بالحرب عدوانية، ومن أكثر المجتمعات توجهًا للذكور في العالم.

بحلول الوقت الذي يبلغ فيه ذكر اليانومامو النموذجي مرحلة النضج، يكون مثخنًا بالجروح والندوب الناجمة عن المشاجرات والمبارزات والمداهمات

مكتبة الفكر الجديد

القتالية التي لا تحصى. وعلى الرغم من أنهم يزدرون النساء إلى حدّ كبير، إلا أن رجال اليانومامو يتشاجرون دومًا بسبب أفعال حقيقية أو خيالية من الزنا، وصولًا إلى حنث الوعود للآخرين بإهدائهم الزوجات. تغطي نساءَ اليانومامو الندوبُ والكدمات أيضًا، ومعظمها نتيجة العنف الذي يتعرّضن له من المغرِّرين والمغتصبين والأزواج. لا تنجو أي امرأة من اليانومامو من النفوذ الوحشي لزوج اليانومامو النمطي المقاتل، متعاطي المخدرات، ذي الطبع الحاد. يتسبب جميع رجال اليانومامو بالإساءة الجسدية لزوجاتهم. أما الرجال اللطفاء فيتسببون لهن بكدمة وتشوّه فحسب؛ وأما الشرسون فيجرحون ويقتلون.

إنّ إحدى الوسائل المحببة في ترهيب الزوجة هي انتزاع قرط عيدان القصب الذي تضعه النساء في ثقوب شحمات آذانهن. فقد ينتزعها الزوج الغاضب بقسوة بالغة، حيث تتمزّق شحمة الأذن وتنفتح. عندما كان شينون في الحقل، قام رجل اشتبه بزني زوجته بأكثر من ذلك، حيث قطع أذنيها الاثنتين. وفي قرية مجاورة، قطع زوج آخر قطعة كبيرة من اللحم من ذراع زوجته بالمنجل. يتوقع الرجال من زوجاتهم خدمتهم وخدمة ضيوفهم والاستجابة لجميع الطلبات بسرعة ومن دون احتجاج. وإن لم تمتثل المرأة بسرعة كافية، يضربها زوجها بقطعة من الحطب، أو يسدد إليها ضربة بمنجله، أو يضع عصًا خشبية متوهجة على ذراعها. وإذا كان غاضبًا حقًّا، ربما يطلق الزوج سهمًا حادًّا إلى ربلة ساق زوجته أو أردافها. في إحدى الحالات التي وثّقها شينون، ضلّ السهم، فدخل معدة المرأة، وجعلها على حافة الموت. غضب رجل اسمه باريوريوا عندما استجابت زوجته لأوامره ببطء شديد لا يلائمه، فأمسك بفأس، ورماها به، فتفادته وهربت تصرخ، حينها ألقى باريوريوا بالفأس الذي مرّ بأزيزه قرب رأسها، ثم لحق بها وشقّ يدها باستخدام منجله وفتحها قبل أن يتمكن زعيم القرية من التدخل.

هناك أيضًا كثير من العنف غير المبرر مطلقًا ضد النساء. يعتقد شينون أن بعض ذلك يتعلق بحاجة الرجال إلى أن يثبتوا لبعضهم أنهم قادرون على شنّ هجوم قاتل. ومن الأمور المقبولة لـ «صورة» الرجل أن يضرب زوجته في

مكتبة الفكر الجديد

العلن بهرواة. وهكذا، تُستخدم المرأة ببساطة أيضًا ككبش فداء ملائم. أراد أحد الرجال أن ينفّس عن غضبه من شقيقه فأطلق السهم على زوجته؛ صوب إلى جزء غير مميت، لكن السهم أخطأ فقتلها.

لا تتوقع النساء الهاربات من أزواجهن إلّا حماية محدودة من أقاربهن الذكور، لأن معظم الزيجات عبارة عن تعاقد بين رجال يوافقون على تبادل الأخوات. يميل صهر الرجل لأن يكون القريب الأقرب والأكثر أهمية بالنسبة إليه. يقضي هؤلاء الرجال ساعات طويلة في رفقة بعضهم بعضهم الآخر، ينفخون المهلوسات في أنوف بعضهم، ويستلقون في الأرجوحة نفسها معًا. وفي حالة ذكرها شينون، غضب شقيق زوجة هاربة من شقيقته لزعزعة علاقة الصحبة التي كان يتمتع بها مع زوجها لدرجة أنه ضربها بفأسه.

أحد الجوانب المهمة لسيطرة ذكور اليانومامو هي احتكار الذكور لاستخدام المهلوسات. وحين يتعاطى الرجال هذه المخدرات (الأكثر شيوعًا هو الإيبين، المشتق من كرمة الغاب)، فإنهم يستغرقون في رؤى خارقة للطبيعة لا يمكن للمرأة اختبارها. هذه الرؤى تمكّن الذكور من أن يصبحوا شامان، فيقومون بزيارات مع الشياطين، ويتحكّموا بالقوى الحاقدة. يساعد استنشاق الإيبين أيضًا الرجال على تثبيط الإحساس بالألم الشديد والتغلب على مخاوفهم في أثناء المبارزات والمداهمات. ربما تنتج المناعة الواضحة ضد الألم التي تظهر في مسابقات قرع الصدر وضرب الرأس، التي سأذكرها بعد قليل، عن آثار المخدرات الجانبية المسكنة للألم. يقدّم الرجال الذين «يتمايلون» عرضًا مميّزًا قبل أن يفقدوا وعيهم أو يدخلوا في غيبوبة. فيقطر المخاط الأخضر من أنوفهم، ويصدرون ضجيجًا غريبًا هادرًا، ويمشون على أربع، ويتحدثون مع شياطين غير مرئية.

يقدّم اليانومامو تسويغًا لشوفينية الذكور من خلال أسطورتهم الأصلية كما في حالة تقاليد المسيحية – اليهودية. في بداية العالم، كما يقولون، لم يكن هناك سوى الرجال الشرسين الذين تكوّنوا من دم القمر. بين هؤلاء الرجال السابقين كان هناك شخص اسمه كانابوراما (Kanaborama) حبلت ساقاه.

مكتبة الفكر الجديد

وخرجت من ساقه اليسرى النساء ومن اليمنى خرج الرجال المؤنثون - ويكون هؤلاء مترددين في المبارزة وجبناء في المعركة.

يعتقد اليانومامو، كغيرهم في الثقافات الأخرى التي يهيمن عليها الذكور، أن دم الحيض شرير وخطر. لذا تسجن الفتاة عندما تحيض أول مرة في داخل قفص من سيقان البامبو المصنوع خصيصًا لذلك ويجبرونها على البقاء من دون طعام. بعد ذلك، يجب عليها عزل نفسها في كل فترة حيض وتبقى جالسة القرفصاء وحيدة في ظل المنزل.

تقع نساء اليانومامو ضحايا منذ الطفولة وحتى الكبر. عندما يضرب الأخ الأصغر أخته، تعاقب إن ردّت له الضربة. بينما لا يعاقب الصبية الصغار أبدًا بسبب ضربهم لأي أحد، بل يولول آباء اليانومامو فرحين عندما يوجه ابنهم ذو الأربع سنوات الغاضب ضربة إلى وجوههم.

ساورني الشك في احتمال أن وصف شينون للأدوار الجنسية لليانومانو ربما عكَسَ التحيّز الذكوري للإثنوغرافي نفسه. لكن لحسن الحظ أن دراسة أخرى لليانومامو أُجريت أيضًا إنما من امرأة. تؤكّد جوديث شابيرو من جامعة شيكاغو الدور السلبي الرئيس لنساء اليانومامو. وذكرت في ما يخصّ الزواج، أن الرجال هم المبادِلون، والنساء هن من يتم مبادلتهن. إنها تترجم مصطلح اليانومامو للزواج كونه «إبعاد شيء ما» والطلاق كونه «التخلص من شيء ما». وذكرت أنه في سن الثامنة أو التاسعة، تبدأ الفتيات عمليًا بخدمة أزواجهن؛ ينمن في القرب منهم، يلحقن بهم، يعددن وجبات الطعام الخاصة بهم. وربما يحاول الرجل أيضًا أن يجامع عروسه البالغة من العمر ثماني سنوات. شهدت شابيرو مشاهد مرعبة حيث كانت فتيات صغيرات يتوسلن أقاربهن كي يأخذوهن بعيدًا من الأشخاص الذين سيكونون أزواجهن. وفي إحدى الحالات، تم اقتلاع ذراع العروس المكرَهة من مفصلها عندما جرّها أحد أقاربها، بينما كان أحد أقارب زوجها يشدّ الأخرى.

يقول شينون إن نساء اليانومامو يتوقّعن أن تتم معاملتهن من أزواجهن بخشونة، وأنهن يقوِّمن وضعهن، كونهن زوجات، من خلال تواتر الضربات

مكتبة الفكر الجديد

الطفيفة التي يوجهها أزواجهن لهن. وسمعتُ مرة من طريق المصادفة امرأتين شابتين تناقشان الندبات الموجودة في فروتي رأسيهما. كأن تقول إحداهن إنه يتعين على زوج المرأة الأخرى أن يعتني بها حقًّا، خصوصًا أنه كان يضربها على رأسها في كثير من الأحيان. تقول شابيرو، مشيرةً إلى تجربتها، إن عدم وجود خدوش أو جروح لديها كان مصدر قلق لنساء اليانومامو. قالت إن ملاحظتهن تلخصت بأن «الرجال الذين ارتبطتُ بهم لم يهتموا بي بما فيه الكفاية». لا يمكن أن نخلص إلى أن نساء اليانومامو يحبّذن أن يضربن، لكن يمكننا القول إنهن يتوقّعن أن يتعرّضن للضرب، ويجدن أنه من الصعوبة تخيّل عالم يكون فيه الأزواج أقل همجية.

تتبدى القسوة الغريبة لمتلازمة شوفينية ذكور اليانومامو بأجلى صورها في المبارزات التي تتطلب أن يحاول اثنان من الرجال أن يؤذي كل منهما الآخر إلى أقصى ما تسمح له قدرته على التحمّل. وكذلك قرع الصدر يمثّل شكلًا من أشكال إلحاق هذا العقاب المتبادل.

تخيّل حشدًا متجمهرًا من رجال يصيحون وأجسادًا مطليّة برسومات حمر وسود، وريشًا أبيض ملصقًا إلى شعورهم، وأعضاء ذكرية مكشوفة مقيّدة بسلسلة تتجه عكس بطونهم. يلوّحون بالأقواس والسهام والفؤوس والهراوات والمناجل، يهزونها ويصدرون بها أصواتًا على سبيل تهديد كل منهم الآخر. يتجمهر الرجال، منقسمين مضيفين وضيوف، في ساحة تتوسط قرية اليانومامو، تراقبهم بفارغ الصبر نساؤهم وأطفالهم الذين يبقون في الخلف تحت إفريز المسكن الجماعي الدائري الكبير. يتّهم المضيفون الضيوف بأنهم يسرقون من البساتين. يصرخ الضيوف بأن المضيفين بخلاء وبأنهم يحتفظون بأفضل الأطعمة لأنفسهم. تم منح الضيوف هدايا الوداع خاصتهم مسبقًا، إذًا لماذا لم يذهبوا إلى بلادهم؟ والآن، من أجل التخلّص منهم، يتحدّاهم المضيفون في مبارزة قرع الصدر.

يندفع محارب من القرية المضيفة إلى مركز الساحة. يفرد ساقيه، ويضع يديه خلف ظهره، ويندفع بصدره نحو المجموعة المعادية. يندفع رجل آخر

مكتبة الفكر الجديد

من بين الضيوف إلى الأمام ويدخل إلى الساحة. يلقي بنظره نحو خصمه بهدوء ويحثّه على تغيير موقفه. يلوي ذراع المستهدف اليسرى، حيث تثبت على رأسه، يقيّم الوضع الجديد، ويجري التعديل الأخير. وبينما يتخذ خصمه موقعه الصحيح، يقف الضيف في موضع على بعد مسافة ذراع، مثبّتًا موطئ قدمه بشكل راسخ في الأرض الصّلبة، يقوم بهجوم وهمي بشكل متكرر لاختبار المسافة وليتحقق من توازنه، ثم يميل إلى الوراء كرامي البيسبول، ويضع كامل قوته ووزنه خلف قبضته المشدودة التي تضرب صدر الهدف بين الحلمة والكتف. يترنح الرجل المضروب، تلتوي الركبتان، ويهتز الرأس، لكن يبقى ساكنًا من دون تعابير. يصيح أنصاره ويصرخون، «ضربة أخرى!» ويتكرر المشهد. يستعيد الرجل الأول الذي تظهر كدمة كبيرة على عضلاته الصدرية، وضعيته مرة أخرى. يحضّره خصمه، يختبر المسافة، ينحني إلى الخلف، ويسدد الضربة الثانية إلى النقطة نفسها. تنثني ركبتا المتلقي ويهوي على الأرض. يلوّح المهاجم بذراعيه فوق رأسه منتصرًا ويرقص حول الضحية مصدرًا ضوضاء هادرة شديدة ويحرك قدميه بسرعة حتى تُطمسا وتغيبا في الغبار، بينما يقرع أنصاره الذين يصرخون أسلحتهم الخشبية بعضها ببعض، ويثبون إلى الأعلى والأسفل في وضعية القرفصاء. يقوم رفاق الرجل الخاسر بتشجيعه مرة أخرى لاستيعاب المزيد من العقاب. وكل ضربة يتلقاها، سيكون قادرًا على ردّها. وكلما تحمّل أكثر، تمكن بدوره من الردّ أكثر، والأرجح أنه سيكون قادرًا على شل خصمه أو دفعه إلى الاستسلام. وبعد تلقّي ضربتين اثنتين أخريين، يتورّم ويحمر الكتف الأيسر للرجل الأوّل. وفي أثناء الصراخ الهذياني لأنصاره، يشير الآن إلى أنه تلقّى ما يكفي، مطالبًا الخصم أن يقف ساكنًا كي يحصل على نصيبه.

يستند المشهد المحدد الذي وصفته على ما قدمه شاهد العيان نابوليون شينون. وكما في الكثير من مبارزات قرع الصدر، يحدث تصعيد للعنف فور اقتراب إحدى المجموعتين من الفوز على الأخرى. على الرغم من أنّه لم يبقَّ للمضيفين صدور قابلة للخوض في المبارزات لكن لم يكونوا مستعدين لبدء أي مبادرات سلام. لذا تحدّوا الضيوف في نوع آخر من المبارزات: صفع الجانب. وتتضمن هذه المبارزة أن تقف ساكنًا في حين يضربك خصمك بيده

مكتبة الفكر الجديد

المفتوحة تحت الأضلاع مباشرة. تشلّ الضربات التي توجَّه إلى هذه المنطقة الحجاب الحاجز للإنسان، وتهوي الضحية على الأرض لاهثة فاقدة الوعي. في هذه الحالة بالذات، يشعل منظر الرفاق المقربين مستلقين واهنين في الغبار غضب المجموعتين، ويبدأ الرجال من الطرفين بتزويد سهامهم برؤوس من البامبو المسموم. كان الظلام يخيم، وبدأت النساء والأطفال بالنواح، ثم ركضوا وراء الرجال الذين شكّلوا ستارًا واقيًا. وعلى الرغم من صعوبة التنفس، يواجه المضيفون والضيوف بعضهم بعضًا في الساحة. كان شينون يراقب خلف خط من رماة السهام. بوجود مساعدة مكثفة، رأى الضيوف يحملون علامات متوهجة من الحطب وببطء يزحفون من القرية إلى ظلام الغابة.

في بعض الأحيان تكون هناك مرحلة فاصلة في أثناء تصعيد مبارزات قرع الصدر. يحمل الخصوم أحجارًا في قبضاتهم ويوجهون ضربات تجعل المتسابقين يبصقون الدم. هناك طريقة أخرى يرفّه بها المضيفون وحلفاؤهم بعضهم عن بعضهم الآخر وهي إقامة مبارزات المنجل. يتناوب أزواج من الخصوم كلّ بدوره على ضرب بعضهم بعضًا بالنّصل الحاد. وتؤدي حتى الزلّة الطفيفة إلى إصابات خطرة وحدوث مواجهات عنيفة.

إن أعلى مستوى لاحق من العنف هو القتال بالهراوة. يقوم رجل يحمل ضغينة ما ضد آخر بتحدّي خصمه بأن يضربه على رأسه بعصا طولها ثمانية أقدام إلى عشرة، تشبه عصا البلياردو. يغرز المنافس عصاه في الأرض، ويتكئ عليها، ويطأطئ رأسه. يحمل خصمه عصاه من النهاية الرفيعة، وينهال بالطرف الثقيل ضربًا على مقدمة الرأس بقوّة تسحق العظام. إن تحمّل المتلقي الضربة، تحقّ له فرصة فورية لأن يضرب خصمه بالطريقة نفسها.

يقول شينون إن رأس فرد اليانومامو النموذجي مغطّى بالندوب القبيحة الطويلة. مثل البروسيين القدماء، يفخر أفراد اليانومامو بهذه التذكارات التي يحصدونها من المبارزات. يحلقون قمة رؤوسهم لإبقائها ظاهرة، ويفركون المنطقة الصلعاء بصباغ أحمر، فتبرز كل ندبة بشكل واضح. إن عاش ذكر اليانومامو إلى سنّ الأربعين، قد يتقاطع في رأسه ما يقرب من عشرين ندبة

مكتبة الفكر الجديد

كبيرة. يبدو رأس المقاتل في مبارزات العصا بالنظر إليه من الأعلى، كما لاحظ شينون، وكأنه «خريطة طريق».

تشيع المبارزات بين الرجال من القرية نفسها كما الأمر بين رجال القرى المجاورة. وحتى أقرب الأقارب يلجأ في كثير من الأحيان إلى القتال المسلح لتسوية المنازعات. شهد شينون مواجهة واحدة في الأقل بين أب وابنه. كان الشاب قد أكل بعض الموز الذي علّقه والده حتى ينضج. وعندما تم اكتشاف السرقة، غضب الأب، انتزع عصا من العوارض الخشبية لمنزله، وحطّمها على رأس ابنه. فانتزع الابن عصا لنفسه وهاجم والده. وعلى الفور اختار كل من في القرية طرفًا وبدأ بضرب شخص آخر. وعندما ساد القتال، تغير الهدف، ما نتج منه كثير من الأصابع المسحوقة والأكتاف المرضوضة وكذلك الجماجم المتضررة. ومن المحتمل أن تندلع هذه المشاجرات في أثناء أي مبارزة فور ملاحظة المارّة مشهد الكميات الوفيرة من الدم.

يعترف اليانومامو بمستوى إضافي من التصعيد قريب من حد الارتكاب الكامل للقتل – هو حرب الرمح، حيث يصنعون رماحًا تتكون من قصبات بطول ست أقدام تم تقشيرها، زيّنت برسومات حمر وسود، وشُحذت على طولها. يمكن أن تخلّف هذه الأسلحة جروحًا بليغة، لكن نسبيًّا ليست بالشدة التي تسبب الموت. تمثل الحرب تعبير اليانومامو المطلق عن أسلوب الحياة. وبخلاف المارينغ، يبدو أن اليانومامو ليس لديهم وسيلة ما لتأسيس أي نوع من الهدنة الموثوقة. يدخلون سلسلة من التحالفات مع القرى المجاورة، لكن العلاقات بين المجموعات يشوبها عدم الثقة والشائعات الخبيثة وارتكاب الخيانات المحترفة التي لا تنتهي. تحدثت مسبقًا عن نوع الترفيه الذي يقدّمه الحلفاء بعضهم إلى بعض في أثناء ولائمهم. من المفترض أن توطّد هذه المناسبات الصداقات، لكن حتى أفضل الحلفاء يتصرف بأسلوب شرس وعدواني كي لا يترك أي ريب حول أهمية مساهمة المجموعات كافة في الحلف. وعلى الرغم من التباهي والغطرسة كلها والعرض الجنسي الذي يستمر في أثناء مناسبة يفترض أن تكون ودية، تبقى النتيجة غير متوقعة حتى

مكتبة الفكر الجديد

يعود آخر ضيف إلى بيته. إن جميع المشاركين واعون تمامًا لبعض الحوادث التي قد تقع في أثناء الاحتفالات حين تخطط القرى المضيفة عمدًا لارتكاب مجزرة بضيوفها أو عندما يحتمل أن يقوم الضيوف بأمر كهذا ويخططوا لمجزرة بالمضيفين. في عام 1950 وقع الكثير من الأقارب في القرية التي استضافت مبارزة لقرع الصدر ممن وصفتهم للتوّ بضحايا وليمة غادرة شهيرة. كانوا قد ذهبوا إلى القرية، على سفر يومين قاطعين المسافة من موقعهم لإقامة تحالف جديد. سمح لهم مضيفوهم بالرقص كما لو أن شيئًا لن يحدث. في وقت لاحق دخلوا المنزل للراحة، وهوجموا بالفؤوس والهراوات. قُتل اثنا عشر رجلًا، وتعرض الناجون الذين هرعوا إلى خارج القرية لهجوم مرة أخرى من القوة التي بقيت متسترة في الغابة، فقُتل وأصيب العشرات الآخرون من الرجال.

يعتري اليانومامو القلق الدائم من الغدر؛ لذا فإنّهم يقيمون التحالفات على أساس النجاحات والإخفاقات الأخيرة للمقدرة العسكرية وليس بناء على أي مصالح مشتركة سواء في الأشخاص أم في الموارد. ويمكن أن نتوقع في حال عانت قرية ما نكسة عسكرية قاسية أنها من الممكن أن تتعرض للهجوم مرارًا وتكرارًا، حتى من حلفائها السابقين. وإن أفضل ما تأمله القريةِ التي فقدت الكثير من الذكور في القتال هو أن تذهب للعيش مع حلفائها. لكن لا توجد مجموعة تقدم المأوى لأسباب تتعلق بالرأفة. يتوقع الأحلاف أن تقدّم المجموعة المهزومة في مقابل الأغذية والأمان الموقت نساءها هدايا.

إن الكمائن والولائم الغادرة والغارات الخفيّة عند الفجر هي الأساليب المميزة لحرب اليانومامو، فبمجرد أن يتجاوزوا مرحلة التباهي والمبارزة، يصبح هدفهم قتل أكبر عدد من رجال العدو والتقاط ما يمكن من نسائه، من دون التسبب بأي نوع من الخسائر لأنفسهم. ففي المداهمة، يصل محاربو اليانومامو إلى العدو خلسة في الليل، من دون أن يشعلوا نارًا، وينتظرون الفجر مرتعشين في غابة ظلماء رطبة. قد يتسلل محارب إلى قرية العدو ويقتل شخصًا نائمًا في أرجوحة، أو يسلّي المداهمون أنفسهم بقتل الذكور الذين جاءوا مع النساء لجلب الماء من النهر. وفي حال كان العدو في حالة تأهب ويتحرك

مكتبة الفكر الجديد

في مجموعات كبيرة فحسب، يمطر الفريق المداهم القرية بالسهام عشوائيًّا ثم يهرب إلى موطنه من دون الانتظار لمعرفة النتائج. يبدو أن المداهمات تدوم باستمرار. خلال إقامة شينون، جرت مداهمة قرية واحدة أكثر من خمس وعشرين مرة في خمسة عشر شهرًا. كانت مقدرة شينون على النجاة في ظل هذه الأوضاع، أمرًا لافتًا – إنها تزكية كبيرة لمهارته وشجاعته كونه إثنوغرافيًا.

لماذا يبالغ اليانومامو بالقتال؟ لم يقدم شينون أسبابًا مقنعة، إذ تبنّى أساسًا التفسير الذي قدمه اليانومامو. فهم يقولون إن معظم المبارزات والمداهمات واندلاع مختلف أعمال العنف إنما ينجم عن النزاع على النساء. فمن الصعب بالتأكيد الحصول على النساء، إذ يفوق عدد الذكور عدد الإناث بنسبة 120 إلى 100 على الرغم من واقع أن ربع الذكور يموتون في القتال. ومما زاد الطين بلّة، أن الزعماء وغيرهم ممن هم معروفون بالوحشية يختصّون أنفسهم بأربع أو خمس زوجات في الوقت نفسه. بالمجمل، يمتلك حوالى 25 في المئة من الرجال اثنتين أو أكثر من الزوجات. وبما أن الآباء يخطّبون بناتهن الرضيعات لكبار الشخصيات من ذوي السلطة للحصول على ميزات، أو يبادلونهن من أجل زواجهم الخاص، فإن جميع النساء البالغات جنسيًّا في القرية متزوجات. وهذا يترك الكثير من الرجال الشبان من دون أي مصدر لإشباع رغبتهم الجنسية إلّا الزنا. يذهب الشباب الذين سيصبحون ذكورًا شرسين في لقاءات غرامية مع زوجات محبطات أو مرغمات في المساء، ويلتقون في الصباح التالي في أحراش الغابة عندما يغادر الكثير من الناس القرية من أجل التبرّز والتبوّل.

سيشارك زوج اليانومامو بكل سرور واحدة من زوجاته مع الإخوة والرفاق الأصغر. لكن الذكور الذين يحصلون على النساء من خلال إعارة الزوجة يضعون أنفسهم في موقع المدين للزوج وسيكون عليهم السّداد له بالخدمات أو النساء اللاتي يقبضون عليهن في المعركة. لكن يجب على الشاب الذي تهمّه سمعته أن لا يضع نفسه في موقف التبعيّة؛ بل يفضّل بدلًا من ذلك ترغيب النساء المتزوجات وترهيبهن لإجراء ترتيبات سرية. وباعتبار أن فتيات اليانومامو يُخطَّبن حتى قبل أن يحِضن، كثيرًا ما يشتهي جميع ذكور اليانومامو

مكتبة الفكر الجديد

الشباب زوجات جيرانهم. يغضب رجال اليانومامو عندما يكتشفون أمر اللقاء الغرامي، لكن ليست الغيرة الجنسية السبب الأساس، بل لأن الذكر الزاني يجب أن يعوّض الزوج بالهدايا والخدمات.

يمثّل القبض على النساء خلال مداهمات قرى العدو أحد الأهداف الرئيسة لحرب اليانومامو. عندما يشعر الطرف الذي قام بمداهمة ناجحة أنه بمأمن من المطاردة، يغتصب المقاتلون الإناث الأسيرات اغتصابًا جماعيًّا. عندما يصلون إلى قرية المداهمين، يسلّمون النساء إلى الرجال الذين بقوا في الوطن وهؤلاء يغتصبونهم اغتصابًا جماعيًّا مرة أخرى. ثم بعد الكثير من المساومات والجدل، يزوّج المداهمون النساء الأسيرات لمحاربين معينين.

تروي هيلينا فاليرو، وهي امرأة برازيلية من اللواتي أُسرنَ من مداهم من اليانومامو عندما كانت في عمر عشر سنوات، إحدى القصص الأكثر رعبًا عن أرض اليانومامو. بدأ الرجال الذين أسروها فورًا بالاقتتال في ما بينهم. قتلت إحدى الفصائل التي هزمت الأخرى جميع الأطفال الصغار من طريق ضرب رؤوسهم بالصخور، ونقلت الإناث الناجيات إلى بلادها. أمضت هيلينا فاليرو أغلبية ما بقي من طفولتها وشبابها هاربة من إحدى مجموعات المداهمين ليتم القبض عليها من أخرى؛ ثم هربت مرة أخرى، واختبأت في الغابة من مطارديها، ثم قُبض عليها وزُوّجت لرجال مختلفين. جُرحت مرتين بالسهام ذات الرؤوس التي تحمل مادة الكُورار (دواء مرخ للعضل)، وحملت بكثير من الأطفال قبل أن تتمكن أخيرًا من الهرب إلى مقر تبشيري على نهر أورينوكو.

يشير نقص النساء وخطوبة الرضيعات والزنا وتعدد الزوجات وأخذ الأسيرات الإناث إلى أن الجنس سبب حرب اليانومامو. لكن هناك حقيقة مزعجة واحدة لا تستطيع هذه النظرية تفسيرها: إن النقص في النساء يحدث من صنيع اليد، إذ يقتل اليانومامو باطراد نسبة كبيرة من أطفالهم الإناث، ليس من خلال الإهمال الانتقائي فحسب، بل من خلال ارتكاب القتل العمد.

يطلب الرجال أن يكون مولودهم الأول ذكرًا. تقتل النساء بناتهن حتى يتمكنّ من إنجاب الأطفال الذكور. بعد ذلك، يمكن أن يُقتل الرضّع من

مكتبة الفكر الجديد

الجنسين. تقتل نساء اليانومامو أطفالهن بخنقهم في الكروم، من خلال الوقوف على طرفي عصا توضع على حنجرة الطفل، أو من خلال ضرب رأس الطفل بشجرة، أو من طريق ترك الطفل ببساطة على أرض الغابة لإعالة نفسه. إن الأثر الحقيقي لقتل الأطفال والأشكال الأكثر اعتدالًا من الاصطفاء الجنسي هو النسبة بين الجنسين؛ 154 من الذكور في مقابل 100 من الإناث الأحداث. بالنظر إلى المصاعب التي يجب أن يتحملها الرجال للحصول على زوجة، يجب أن تتوافر هناك قوة جبارة للغاية – قوة أخرى بخلاف الجنس وأكثر جبروتًا – تقودهم إلى التخلص من المصدر والهدف الأصلي لشهوانيتهم وصراعاتهم.

لعل الصفة المحيّرة لقتل الأطفال والحرب في بلاد اليانومامو هي الغياب الواضح للضغط السكاني ووجود ما يبدو أنه غزارة في الموارد. إن مصدر اليانومامو الرئيس للسعرات الحرارية الغذائية هو فاكهة موز الجنة وأشجار الموز التي تنمو في بساتين غاباتها. يجب أن يحرقوا الغابات للحصول على هذه البساتين، كما يفعل المارينغ. لكن الموز وموز الجنة ليس مثل الدرنيات أو البطاطا الحلوة، فهو من النباتات المعمّرة التي توفر عوائد عالية لكل وحدة من مساهمات العمالة على مدى سنوات متتالية. وباعتبار أن اليانومامو يعيشون وسط أضخم الغابات الاستوائية في العالم، فإن الحرق الذي يقومون به بالكاد يهدد «بالتهام الأشجار». لا تحوي القرية النموذجية لليانومانو سوى 100 إلى 200 شخص، وهو تعداد سكاني يمكنه بسهولة زراعة ما يكفي من الموز أو موز الجنة في مواقع البساتين المجاورة من دون الاضطرار إلى الانتقال. وعلى الرغم من ذلك تتنقل قرى اليانومامو باستمرار؛ ينقسمون وينقلون بساتينهم بمعدل أعلى بكثير من غيرهم من شعوب غابات الأمازون التي تعتمد التقطيع والحرق.

يقول شينون إنهم غالبًا ما ينقسمون وينتقلون بسبب اقتتالهم على النساء، ودائمًا ما يكونون في حالة حرب. وأرى أنه من الأصح أكثر القول إنهم يتقاتلون على النساء وفي حالة حرب مستمرة لأنهم يتنقلون كثيرًا. ليس اليانومامو بستانيين نموذجيين يتبعون أسلوب التقطيع والحرق، أما أسلافهم فكانوا صيادين رحّلًا وجماعات تعيش بعيدًا من الأنهار الرئيسة ضمن مجموعات

مكتبة الفكر الجديد

متناثرة صغيرة تعتمد على منتوجات الغابات البرية موردًا رئيسًا. ويمكن أن نكون على يقين أنهم بدأوا لتوّهم في الفترات الأخيرة في الاعتماد على الموز وموز الجنة غذاء أساسًا منذ تمّ جلب هذه النباتات إلى العالم الجديد من المستوطنين البرتغاليين والإسبان. حتى الفترة الأخيرة، كانت المراكز الأساس للكثافة السكانية للهنود الأميركيين في الأمازون تتوزع على امتداد الأنهار الرئيسة وروافدها. عاشت القبائل مثل اليانومامو في مناطق غير آهلة وبقيت بعيدة من أنظار الشعوب النهرية التي حظيت بقرى ثابتة وزوارق جعلتهم كثيري التنقل. دُمرت آخر القرى الهندية النهرية الكبيرة نتيجة لتجارة المطّاط وانتشار المستوطنات البرازيلية والفنزويلية بحلول نهاية القرن التاسع عشر. وكان الهنود الوحيدين الناجين على نطاق واسع في مناطق الأمازون هنود «القدم» الذين حماهم أسلوبهم التّرحالي في الحياة من بنادق الرجل الأبيض وأمراضه.

يظهر لدى اليانومامو حتى يومنا هذا علامات لا لبس فيها على أسلوب حياتهم الهندي السابق كهنود «القدم». إنهم لا يعرفون كيفية بناء أو تجديف الزوارق على الرغم من أنّ موطنهم يقع الآن على ضفاف أنهار أورينوكو ومافاكا أو في القرب منها. لا يصطادون إلّا قليلًا، على الرغم من أن مياهًا كهذه عادة ما تكون غنية بالأسماك والحيوانات المائية. يفتقرون إلى معرفة كيفية صنع أواني الطبخ، على الرغم من أن أفضل طريقة لتحضير موز الجنة هي السلق. وأخيرًا، يجهلون كيفية تصنيع الفؤوس الحجرية، على الرغم من أنهم الآن يعتمدون على الفؤوس الفولاذية في تحضير بساتين الموز الخاصة بهم.

اسمحوا لي أن أقدم تقريرًا تخمينيًّا إلى حدّ ما عن تاريخ اليانومامو الحديث. بدأ اليانومامو الرحّل الذين عاشوا في الجبال النائية بين فنزويلا والبرازيل بتجربة بساتين الموز وموز الجنة. أمّنت هذه المحاصيل زيادة كبيرة في كمية السعرات الحرارية الغذائية للفرد الواحد. ونتيجة لذلك، بدأ تعداد سكان اليانومامو أيضًا بالازدياد – وهم اليوم إحدى أكبر الجماعات الهندية من حيث عدد السكان في حوض الأمازون بأكمله. لكن لموز الجنّة والموز مشكلة لافتة: إنها معروفة بنقص البروتين. كان صيادو اليانومامو الرحّل السابقون

مكتبة الفكر الجديد

يسدّون حاجاتهم من البروتين بسهولة من طريق التهام حيوانات الغابة، بما في ذلك التابير والغزلان والخنازير المتوحشة وآكلات النّمل وحيوانات المدرع والقرود والقوارض والأغوطي والتماسيح والسحالي والثعابين والسلاحف. ثم بازدياد كثافة السكان البشريين الناجمة عن وجود محاصيل بستانية كافية، تم اصطياد هذه الحيوانات بكثافة غير مسبوقة. كما هو معروف، تمّت إبادة قطعان حيوانات الغابات ببساطة أو دفعت إلى الفرار من الصيد المكثف. تجنبت قبائل الأمازون كثيفة السكان العواقب المماثلة لذلك، في عصور ما قبل الاتصالات، من خلال استغلال وجود الأسماك في مواطنها النهرية. إلّا أن اليانومامو لم يكونوا قادرين على القيام بذلك.

يشير اختصاصيان في الأمازون آيان وإريك روس إلى أن ندرة البروتين، وليس الشبق الهائل، تفسّر الانقسام المستمر والصراعات بين قرى اليانومامو. أنا أوافق على أن اليانومامو «أكلوا الغابة» - ليس أشجارها، بل حيواناتها - وأنهم يعانون عواقب تعاظم حالة الحرب والغدر وقتل الأطفال والحياة الجنسية الوحشية.

لدى اليانومامو أنفسهم كلمتان تعبّران عن الجوع - واحدة تدل على معدة فارغة، في حين تدل الأخرى على معدة ممتلئة توّاقة للحوم. كان اشتهاء اللحوم موضوعًا ملازمًا لأغاني اليانومامو وشعرهم، وكانت اللحوم محط تركيز ولائمهم. في تقرير هيلينا فاليرو عن أسرها، قالت إن إحدى الطرائق القليلة التي تستطيع امرأة من اليانومامو استخدامها كي تجعل الرجل يتذلّل هي بأن تتذمر من سوء أدائه كونه صيادًا. يجب على الصيادين أن يبتعدوا كثيرًا من قرى اليانومامو حتى لا يعودوا بخفّي حنين. تتطلّب العودة بكميات كبيرة من الحيوانات الكبيرة رحلة صيد لعشرة أيام أو اثني عشر يومًا. يروي شينون نفسه قصة الذهاب في رحلة صيد استمرت خمسة أيام في منطقة «لم يتم الاصطياد فيها لعقود» من دون تحصيل ما يكفي من اللحوم لإطعام حتى أفراد الرحلة. تعبر الرحلات الطويلة بشكل حتمي مرارًا وتكرارًا مناطق صيد لا تخصّها، وإنما تستفيد منها قرى أخرى، باعتبار أن قرية اليانومامو النموذجية على بعد

مكتبة الفكر الجديد

أقل من سير يوم واحد على الأقدام من أقرب جاراتها. تتنافس هذه القرى على الموارد الشحيحة نفسها، وتلك الموارد ليست النساء، وإنما البروتين.

أفضّل شخصيًّا هذا الحل للغز الذكور الشرسين لأنه يفسر من الناحية العملية السبب في كون نساء اليانومامو مساهمات بفاعلية في الاستغلال الواقع عليهن سواء بالقتل أم بإهمال الأطفال الإناث أكثر من الذكور. من الصحيح أن رجال اليانومامو يفضلون الأبناء على البنات، وأن المرأة التي تخيب أمل زوجها بعدم إنجابها أبناء ذكورًا سوف تتعرض للازدراء من قبله، ومن دون شك ستكون معرّضة لخطر الضرب في كثير من الأحيان. إلّا أني أظن، وعلى الرغم من ذلك، أن نساء اليانومامو قادرات بسهولة على عكس النسبة بين الجنسين لمصلحة الإناث ضد الذكور إن رغبن في القيام بذلك. تلد النساء في الغابة، بعيدًا من القرية ومن حضور رجال، وهذا يعني أنه يمكنهن ممارسة قتل الأطفال الانتقائي ضد الذكور والإفلات من العقاب بعد ولادة ابنهما الأول. إضافة إلى أنهن يمتلكن فرص لا تعدّ لممارسة الإهمال الانتقائي ضد جميع أطفالهن الذكور من دون التعرض لخطر الاكتشاف أو الانتقام من طرف أزواجهن.

أستطيع أن أذكر مثالًا واحدًا في الأقل عن كيفية تمكّن النساء من ممارسة تحكّم ممتاز بنسبة الجنس في مرحلة حضانة اليانومامو. يقول شينون إنه رأى مرةً «أمًّا شابة ممتلئة الجسم، تتغذّى بشكل جيد وتتناول الطعام (على الأغلب لسان الحمل) الذي يمكن أن يؤكل بسهولة من جهة الأطفال». وإلى جانبها ابن بعمر السنتين «هزيل وقذر ويكاد يقتله الجوع»، كان يحاول عبثًا الوصول إلى بعض هذا الطعام. سأل شينون الأم عن السبب في أنها لم تكن تغذي طفلها، ففسّرت له أنها أصيبت بحالة شديدة من الإسهال في السابق وتوقفت عن الإرضاع، ونتيجة لذلك، جفّ حليب المرأة ولم يكن هناك شيء تستطيع أن تقدّمه. لا يمكن أن يفيد أي من الأطعمة الأخرى، قالت، لأنه «لم يكن يعرف كيفيّة تناول الأطعمة الأخرى». ثم «أصرّ شينون عليها كي تشارك طعامها مع الطفل»، فأكل الطفل الطعام بشراهة، ما دفع شينون إلى استنتاج مفاده أنها «كانت تجعل الطفل يموت ببطء من الجوع».

مكتبة الفكر الجديد

لا يمكن أن يعود السبب الحيوي والدنيوي للقتل المنهجي وإهمال الأطفال الإناث أكثر من الأطفال الذكور ببساطة إلى إجبار الرجال النساءَ على القيام بذلك. هناك كثير من الاحتمالات، كما يوضح المثال الذي أوردته توًّا، للتهرب من، والالتفاف على، رغبات الرجال في هذه المسألة. وإنّما يتعلق أساس قيام نساء اليانومامو بذلك الأسلوب من الرعاية بمصلحتهن في تربية الأولاد أكثر من البنات. تتجذر هذه المصلحة في حقيقة وجود الكثير من أفراد اليانومامو مقارنة بإمكان الاستفادة المتاحة من موطنهم، أي إنّ وجود نسبة رجال تفوق النساء يعني المزيد من البروتين للفرد الواحد (لأن الرجال هم الصيادون) كما تعني التباطؤ في معدل النمو السكاني. وهذا يعني أيضًا المزيد من حالة الحرب، لكن بالنسبة إلى اليانومانو، كما هو الحال بالنسبة إلى المارينغ، تمثل الحرب الثمن المدفوع في مقابل تربية الأبناء عندما يعجزون عن تربية البنات. لكن تدفع اليانومامو مقابلًا أضخم لقاء هذا الامتياز، نظرًا إلى أنها قد دمرت بالفعل طاقة التحمل في موطنها.

يعترف مؤيدو الحركة النسوية بدور الحرب في التحيّز الجنسي ويصرّون مع ذلك على أن النساء ضحايا مؤامرة الذكور لأن الرجال وحدهم تعلّموا كيفية القتل باستخدام الأسلحة. وهم يتساءلون لماذا لا يجوز أن تُعلَّم النساء مهارات المحارب؟ ألن تكون قرية اليانومامو التي يستخدم فيها كل من الرجال والنساء الأقواس والهراوات ذات قوة قتالية أكثر هولًا من تلك التي تجتمع فيها النساء في الظل منتظرات مصيرهن؟

لماذا يجب أن يتركز الجهد الذي يتعلق بالوحشية على الذكور؟ لماذا لا يُعلَّم كل من الذكور والإناث كيفية التعامل مع تكنولوجيا العدوان؟ هذه أسئلة مهمة. أعتقد أن الإجابة عنها تتعلق بمشكلة تدريب الإنسان - سواء الذكر أم الأنثى - كي يصبح ساديًّا وشرسًا. كما أرى، هناك نوعان من الاستراتيجيات الكلاسيكية التي تستخدمها المجتمعات لجعل الناس متوحشين: **الأولى**، بتشجيع الوحشية من خلال إعطاء الغذاء والراحة والعافية الجسدية مكافآت للشخصيات الأكثر وحشية. **والثانية**، تكمن في تخصيص أعظم المكافآت

مكتبة الفكر الجديد

والامتيازات لأكثر الشخصيات وحشية. من بين هاتين الاستراتيجيتين، تثبت الثانية فاعلية أكبر لأن الحرمان من الطعام والراحة والعافية الجسدية تأتي بنتائج عكسية من الناحية العسكرية. يحتاج اليانومامو قتلة متحفزين، لكن يجب أن يكونوا أقوياء وصلبين إن كانوا سيحصلون على وظائف اجتماعية تعويضية. والجنس هو أفضل تعزيز لتكييف الشخصيات الوحشية لأن الحرمان الجنسي يقوّي بدلًا من أن يقلّل القدرة على القتال.

تتعارض حجّتي هنا مع الافتراضات المتضمنة في صورة ذكور القبائل الشوفينيين الخاصين بنا مثل سيغموند فرويد وكونراد لورنز، وروبرت آردري. إن ما اكتسبناه من معرفة في هذه المسألة يتجلى في أن الذكور بشكل طبيعي أكثر عدوانية وشراسة لأن دور الذكور بطبيعة الحال عدواني. لكن العلاقة بين الجنس والعدوانية صنيعة اليد مثلها مثل العلاقة بين قتل الأطفال والحرب. إن الجنس مصدر الطاقة العدوانية والسلوك الوحشي فحسب لمجرد أن النظم الاجتماعية الشوفينية الذكورية تحصد المكافآت الجنسية، وتخصصها للذكور العدوانيين، وتحرمها عن الخاضعين ممن ليسوا عدوانيين.

في الحقيقة، لا أعرف لماذا لا يمكن أن ينشأ النوع نفسه من الوحشية لدى النساء. إن أسطورة الأنثى الخاضعة بالغريزة والمعطاءة والأم، مجرد صدى شكّله علم الأساطير الشوفيني الذكوري ويتعلق بالذكور الوحشيين بالغريزة. إن سُمح للإناث الشرسات «المسترجلات» بإقامة علاقات جنسية مع الذكور، لن يكون لدينا أي مشكلة في حضّ الجميع على الإيمان بأن الإناث بالغريزة عدوانيات ومتوحشات.

لو قيض للجنس يُستغل من أجل تنشيط السلوك العدواني والتحكم به، لنتج من ذلك استحالة تعايش الجنسين معًا وبدرجة متساوية. يجب أن يدرِّب أحدهما الآخر ليكون المهيمن. فلا يمكن أن يكونا كلا الأمرين. إن التعامل في ما بينهما بالقدر نفسه من الوحشية هي دعوة إلى حرب حقيقية بين الجنسين. وسوف يعني ذلك بالنسبة إلى اليانومامو أن كفاحًا مسلّحًا سيقع بين الرجال والنساء من أجل أن يتحكم بعضهم ببعضهم الآخر مكافأةً على مآثر معركة.

مكتبة الفكر الجديد

وبعبارة أخرى، إذا جُعل الجنس مكافأة للشجاعة، فيجب أن يتعلّم أحد الجنسين الجبن حكمًا.

تقودني هذه الاعتبارات إلى تصحيح طفيف في مفهوم أنصار الحركة النسوية القائل إن «التركيبة البنوية ليست حكمًا لا رجعة فيه»، بل إن التكوين البشري يمثل حكمًا لا رجعة فيه في ظل أوضاع معينة. فعندما كانت الحرب وسيلة بارزة للتحكم بعدد السكان، وعندما تكوّنت تكنولوجيا الحرب أساسًا من الأسلحة البدائية المحمولة، كانت أنماط حياة الذكور الشوفينيين بالضرورة مسيطرة. وما دام لا تنطبق أي من هذه الشروط على العالم اليوم، فإن مؤيدي الحركة النسائية على حق في توقّعهم تدهور أنماط حياة الشوفينيين الذكور. وأود أن أضيف أن معدل هذا الانخفاض والإمكان الكبير لتكافؤ الجنسين يتوقفان على تقليص كبير للشرطة والقوات العسكرية التقليدية. دعونا نأمل في أن يحدث هذا نتيجة لتراجع الحاجة إلى الشرطة أو الأفراد العسكريين بدلًا من أن يكون نتيجة لإتقان تكتيكات المعركة التي لا تعتمد على القوة البدنية. كان علينا أن نتعدّى اليانومامو إن كانت النتيجة المحضة للثورة الجنسيّة هي مكانة آمنة للنساء على رأس مجموعة من الموظفين أو في مراكز القيادة النووية.

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Biocca, Ettore. *Yanoama: The Narrative of a White Girl Kidnapped by Amazonian Indians*. New York: Dutton, 1970.

Burke Leacock, Eleanor. «Introduction.» In: Engels, Frederick. *The Origins of the Family, Private Property and the State.* New York: International Publisher, 1972, pp. 7-67.

Chagnon, Napoleon A. *Yanomamo: The Fierce People*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1968.

Harris, Marvin. *Culture, Man and Nature: An Introduction to General Anthropology*. New York: Thomas Y. Crowell, 1971.

Hogbin, Ian. *The Island of Menstruating*. San Francisco: Chandler, 1970.

Meggers, Betty J. *Amazonia: Man and Culture in a Counterfeit Paradise*. Chicago: Aldine, 1971.

Ross, Jane & Eric Ross. Unpublished papers and personal communications.

Schneider, David & Kathleen Gough. *Matrilineal Kinship*. Berkeley: University of California Press, 1961.

Shapiro, Judith. «Sex Roles and Social Structure Among the Yanomamo Indians in North Brazil.» PhD. Dissertation, Columbia University. New York, 1971.

Wilbert, Johannes. *Survivors of Eldorado*. New York: Praeger, 1972.

مكتبة الفكر الجديد

مهرجان الشتاء

مكتبة
الفكر الجديد

يحمل بعض أنماط الحياة المحيرة الموجودة في المتحف الإثنوغرافي العالمي أو معظمها، آثارًا تدل على وجود مَيل معروف باسم «ابتغاء المكانة الرفيعة». يبدو أن بعض الناس يتوق إلى الاستحسان كما يتوق آخرون إلى اللحوم. والأمر الذي يبعث على الحيرة ليس تعطش الناس إلى الاستحسان، بل أن يصبح هذا التّوق أحيانًا قويًّا جدًّا لدرجة البدء في منافسة بعضهم بعضهم الآخر بغية الحصول على مكانة رفيعة، كما يتنافس الآخرون على الأرض أو البروتين أو الجنس. حتى إن المنافسة تصبح في بعض الأحيان شرسة لدرجة تبدو فيها غاية بحد ذاتها. وبعد ذلك تتحول إلى هاجس بمعزل عن الحسابات العقلانية للتكاليف المادية، وبشكل متعارض تمامًا معها.

عزف فانس باكارد على وتر حساس عندما وصف الولايات المتحدة بأنها أمة من الساعين المتنافسين على المناصب. ويبدو أن كثيرين من الأميركيين يمضون حياتهم كلها منهمكين في تسلق أعلى الهرم الاجتماعي بغية إذهال بعضهم الآخر وحسب. ويبدو أننا نهتم إلى حد كبير بالعمل من أجل حثّ الناس على الإعجاب بثرواتنا وليس من أجل حصولنا على الثروة الفعلية عينها، التي غالبًا ما تتألف من حليّ الكُروم والمقتنيات الباهظة أو عديمة الفائدة. من المدهش كم هم الناس جاهزون للكد من أجل الحصول على ما وصفه ثورشتين فِبلِن باللذة البديلة لكون المرء خطّاءً بالنسبة إلى أعضاء طبقة لا يتعين عليها أن تعمل. تنقل عبارات فبلن اللاذعة «الاستهلاك الاستعراضي» و«التبديد الاستعراضي» شعورًا برغبة شديدة وغريبة في أن «مواكبة المعارف» تتجلى في التطوير المتنامي الدؤوب في صناعة السيارات والأجهزة والملابس.

فوجئ علماء الأنثروبولوجيا، في وقت سابق من القرن الحالي، باكتشافهم أن بعض القبائل البدائية تشارك في الاستهلاك الاستعراضي والتبديد

مكتبة الفكر الجديد

الاستعراضي إلى درجة لا يضاهيها حتى أكثر الاقتصادات الاستهلاكية الحديثة المغالية في الإسراف. كان الرجال الجشعون، التواقون إلى المناصب ينافس بعضُهم بعضَهم الآخر لنيل الاستحسان عبر إقامة ولائم ضخمة. ويقوّم أصحاب الولائم التنافسية بعضهم بناء على مقدار الأغذية المقدّمة، ولا تكون الوليمة ناجحة ما لم يتمكن الضيوف من تناول الطعام إلى أن يصيبهم الخدر، ويذهبوا مترنحين إلى الأحراش، حيث يقحمون أصابعهم في حناجرهم حتى التقيؤ، ثم يعودون طلبًا للمزيد.

اكتُشفت الحالة الأكثر غرابة من بين حالات البحث عن المكانة بين الهنود الحمر الذين سكنوا سابقًا المناطق الساحلية من جنوب ألاسكا وكولومبيا البريطانية وواشنطن. هناك مارس الباحثون عن المكانة ما يشبه حالة هوس في الاستهلاك الاستعراضي والتبديد الاستعراضي، أو ما يُعرف باسم مهرجان الشتاء. يقوم مهرجان الشتاء على التنافس بين اثنين حتى يمنح أو يتلف أحدهما ثروةً أكثر من الآخر. فإذا كان القائم على مهرجان الشتاء زعيمًا قويًّا، فإنه يحاول إلحاق العار بمنافسيه وكسب الإعجاب الأبدي من أتباعه عبر إتلاف الغذاء والكساء والمال. حتى إنه في بعض الأحيان ربما يسعى إلى المكانة الرفيعة من طريق إحراق منزله الخاص.

ذاع صيت مهرجان الشتاء من طريق روث بنديكت في كتابها **أنماط الثقافة** الذي يصف كيفية إقامة مهرجان الشتاء لدى الكواكيوتل، وهم السكان الأصليون لجزيرة فانكوفر. ظنّت بنديكت أن مهرجان الشتاء جزء من نمط حياة ثقافة الكواكيوتل المتأثر بجنون العظمة بشكل عام. كان مثل «كأس» منحها الله لهم ليتجرعوها. فكثيرًا ما كان مهرجان الشتاء يذكّر بالاعتقاد القائل إن الثقافات هي إبداعات لقوى غامضة وشخصيات مجنونة. ونتيجة لقراءة أنماط الثقافة، خلص الخبراء في الكثير من المجالات، خلال محاولتهم تفسير أنماط الحياة من حيث العوامل الحيوية والدنيوية، إلى أن ابتغاء المكانة الرفيعة يخلق حالة من الفوضى.

أريد أن أثبت هنا أن مهرجان الشتاء لدى الكواكيوتل لم يكن ناجمًا عن أهواء شخص مهووس، بل عن أوضاع اقتصادية وبيئية محددة. عندما تختفي

مكتبة الفكر الجديد

هذه الأوضاع، تثبت الحاجة إلى الإعجاب وابتغاء المكانة الرفيعة نفسها من طريق ممارسات حياتية مختلفة بشكل كلي، حيث يحل الاستهلاك غير الاستعراضي محل الاستهلاك الاستعراضي، ويمنع التبديد الاستعراضي، وينتفي وجود المتنافسين على السعي إلى السلطة.

عاش الكواكيوتل في قرى بنيت بيوتها من الألواح الخشبية قرب الشاطئ وسط الأرز وخشب التنوب في الغابات المطيرة. مارسوا الصيد والمطاردة بوساطة زوارق خشبية ضخمة على امتداد الألسنة والتشعبات البحرية التي زينت جزيرة فانكوفر. وعلى سبيل الحرص الدائم لجذب التجار، جعلوا قراهم بارزة من طريق نصب جذوع شجرة منحوتة على الشاطئ ندعوها خطأً «أعمدة وثنية»؛ تحمل المنحوتات على هذه الأعمدة ألقاب الأسلاف الذين ينتسب إليهم زعماء القرية.

لم يرض زعيم الكواكيوتل قط بالاحترام الفائق الذي كان يحصل عليه من أتباعه ومن الزعماء المجاورين، حيث كان دائم القلق على منصبه. من الصحيح أن الألقاب العائلية التي نُسِب إليها تعود إلى أسلافه. لكن كان هناك غيره من الناس ممن تحدروا من الأسلاف نفسهم ويحق لهم أن يتنافسوا معه ليحصلوا على الزعامة. وبالتالي كان كل زعيم مضطرًا إلى تبرير صحة ذرائعه المتعلقة بالزعامة وإثباتها. لذلك كان عقد مهرجان الشتاء الأسلوب الأمثل لإنجاز ذلك. كان كل مهرجان شتاء يُقام من زعيم مضيف وأتباعه لاستضافة زعيم آخر وأتباعه. أما الهدف من عقد مهرجان الشتاء فكان إظهار أن منصب الزعامة حق أكيد للزعيم المضيف، وأنه كان أكثر سموًّا من الزعيم الضيف. ولإثبات ذلك، يعطى الزعيم المضيف الزعيمَ المنافس وأتباعَه كميات من الهدايا القيمة. وكان الضيوف يستسخفون ما حصلوا عليه ويتعهدون في المقابل بعقد مهرجان شتاء يبرهن فيه زعيمهم أنه كان أعظم من المضيف السابق من خلال إعادة كميات أكبر من الهدايا الأكثر قيمة.

تتطلب الاستعدادات لمهرجان الشتاء تحضير كميات كبيرة من الأسماك الطازجة والمجففة وزيت السمك والتّوت والجلود الحيوانية والبطانيات وغيرها

مكتبة الفكر الجديد

من الأشياء الثمينة. وفي اليوم المتفق عليه، يأتي الضيوف إلى القرية المضيفة ويدخلون بيت الزعيم. وهناك يتخمون أنفسهم بسمك السلمون والتوت البري، بينما تقوم راقصات مقنّعات كالآلهة وطيور الرّعد بالترويح عنهم.

يرتب الزعيم المضيف وأتباعه الثروة المخصصة للمنح في أكوام أنيقة. يحدّق الزوار بمضيفهم بتجهّم وهو يقفز أعلى وأسفل، متفاخرًا بما سوف يمنحهم بعد قليل. وبينما هو يحصي صناديق زيت السمك وسلال التّوت المليئة وأكوام البطانيات، يعلّق بسخرية على بؤس منافسيه. وأخيرًا يعتق الضيوف ويعودون إلى قريتهم محمّلين بالهدايا. ويتعهد الزعيم الضيف وأتباعه المتألمون بعمق بأن يحرزوا تعادلًا. ولا يمكن الحصول على ذلك إلا من خلال دعوة منافسيهم في المقابل إلى مهرجان شتاء وإرغامهم على قبول كميات من الأشياء الثمينة تفوق ما منحوه. وإذا نظرنا إلى جميع قرى الكواكيوتل كونها مجموعة واحدة، فإن مهرجان الشتاء يحفّز تدفّقًا متواصلًا من المناصب والأشياء الثمينة التي تنتقل بين جهتين متعاكستين.

يقيم الزعيم الجشع وأتباعه مهرجانات شتاء تنافسية في قرى عدة مختلفة في آن واحد. يتتبّع المتخصصون بإحصاء الممتلكات ما كان ينبغي القيام به في كل قرية من أجل تعديل النتيجة. فإذا تمكّن زعيم من أن يتفوق على منافسيه في مكان ما، سيبقى عليه مواجهة الخصوم في مكان آخر.

كان على الزعيم المضيف، في مهرجان الشتاء، أن يقول عبارات مثل، «أنا الشجرة العظيمة الوحيدة. أحضروا المختصّ بإحصاء الممتلكات التي تعود إليكم، وليحاول عبثًا إحصاء الممتلكات التي سأمنحكم إياها». ثم يطلب أتباع الزعيم من الضيوف الصّمت مع توجيه التحذير: «لا تصدري أي ضجيج، أيتها القبائل. إبقي هادئة وإلا فإننا سنتلف كليًّا ثروة زعيمنا، الجبل المهيمن». لم تُمنَح البطانيات وغيرها من الأشياء الثمينة في بعض مهرجانات الشتاء، بل كانت تتلف. ويقرر الزعماء الناجحون في عقد مهرجان الشتاء أحيانًا إقامة «ولائم الزيوت» حيث تُسكب صناديق الزيت المستخلص من سمك اليَلْقون على النار في وسط المنزل. وكلما ارتفع اللهب، كلما ملأ دخان الزيت الأسود

مكتبة الفكر الجديد

الغرفة. يجلس الضيوف في الهواء من دون أدنى انفعال، بل من دون تذمر من البرد، بينما يتبجح مبدّد الثروة ويقول «أنا الوحيد على هذه الأرض، الوحيد في العالم كله الذي جعل هذا الدخان يتصاعد من بداية السنة إلى نهايتها على شرف القبائل المدعوة». يشعل اللهب في بعض ولائم الزيوت ألواح السقف ويصبح المنزل بأكمله عطيّة في مهرجان الشتاء، ما يُلحق العار الأكبر بالضيوف ويبعث البهجة العارمة بين المضيفين.

يعود سبب عقد مهرجان الشتاء، وفقًا لروث بنديكت، إلى حالة التعطّش والهوس بالمكانة لدى زعماء الكواكيوتل. «وإذا ما حكمنا على خطابات زعماء القبائل وفقًا لمعايير الثقافات الأخرى فهذا يُدعى من دون ريب جنون العظمة»، كما كتبت: «الهدف من جميع مبادرات الكواكيوتل إظهار تفوق أحد ما على منافسيه». برأيها، إن النظام الاقتصادي الكلي لسكان البلاد الأصليين لشمال غرب المحيط الهادئ «طُوِّع لخدمة هذا الهوس».

أعتقد أن بنديكت كانت على خطأ، لأن النظام الاقتصادي للكواكيوتل لم يكن مطوعًا لخدمة حالة التنافس، بقدر ما كانت حالة التنافس خاضعة لخدمة النظام الاقتصادي.

يتكرر ظهور المكونات الأساسية جميعها لعطايا الكواكيوتل، باستثناء الجوانب التدميرية، ضمن المجتمعات البدائية المنتشرة على نطاق واسع في أجزاء مختلفة من العالم. وإذا أعدنا مهرجان الشتاء إلى نواته الأولية، فإنه عبارة عن وليمة تنافسية، ما يشبه آليّة عالمية تهدف إلى تكريس إنتاج الثروة وتوزيعها بين الشعوب التي لم تحصل بشكل كلي على طبقة حاكمة.

تتيح ميلانيزيا ونيو غينيا أفضل فرصة لدراسة الولائم التنافسية في ظل أوضاع نقية نسبيًا. ففي جميع أنحاء هذه المنطقة، هناك ما يسمى الرجال الزعماء الذين يدينون بمقاماتهم السامية للعدد الكبير من الولائم التي رعاها كل منهم خلال حياته. ويجب أن تسبق كل وليمة جهود مكثفة يقوم بها الرجال الزعماء التوّاقون إلى تكديس الضروري من الثروة.

مكتبة الفكر الجديد

على سبيل المثال، يبدأ الفرد المتعطّش إلى المكانة من الناطقين بلغة الكاوكا (Kaoka) في جزر سليمان، مسيرته المهنية بجعل زوجته وأطفاله يزرعون بساتين أكبر من الدرنيات. وكما أوضح عالم الأنثروبولوجيا الأسترالي أيان هوغبين، فإن فرد الكاوكا الذي يريد أن يصبح رجلًا زعيمًا، يحض أقرباءه وأصدقاءه ممن هم في سنه على مساعدته في الصيد. وفي وقت لاحق يتضرع إلى أصدقائه للحصول على البذار وزيادة حجم قطيعه من الخنازير. وعندما تولد الخنازير (خنانيص) يحصل على المزيد من الحيوانات من جيرانه. وحينها يشعر أقاربه وأصدقاؤه بأن الشاب سيكون ناجحًا. فهم يرون بساتينه الواسعة وقطيعه الكبير من الخنازير، فيضاعفون جهدهم لجعل الوليمة التالية وليمة لا تنسى. وعندما يصبح رجلًا زعيمًا فإنهم يريدون من هذا المرشح الشاب أن يذكر أنهم ساعدوه. أخيرًا، يجتمعون جميعًا من أجل بناء منزل متميز للغاية. فيذهب الرجال مباشرة في رحلة صيد أخيرة. ثم تحصد النساء الدرنيات ويجمعن الحطب وأوراق الموز وجوز الهند. وحين يصل الضيوف، تكون الثروة مكدسة في أكوام أنيقة رُكنت لتُعرَض أمام الجميع ليحصوها ويعجبوا بها (كما في حالة مهرجان الشتاء).

في يوم الوليمة التي أقامها شاب يدعى آتانا، أحصى هوغبين العناصر التالية: 250 رطلًا من السمك المجفف، و3000 من كعك الدرنيات وجوز الهند، و11 طبقًا كبيرًا من حلوى الدرنيات، و8 خنازير. تمّ كل ذلك نتيجة مباشرة للجهد الاستثنائي المبذول في العمل الذي نظّمه آتانا. لكن بعض الضيوف أنفسهم، المترقّبين للمناسبة المهمة، جلب هدايا كي تضاف إلى الهبات. وهكذا بلغ مجموع مساهماتهم 300 رطل من السمك، و5000 كعكة، و19 طبقًا من الحلوى و13 خنزيرًا. ثم شرع آتانا بتقسيم هذه الثروة 257 جزءًا، وخصص جزءًا واحدًا لكل شخص ساعده أو كان ممن قدموا إليه هدايا، وكافأ بعضهم أكثر من غيرهم. أشار هوغبين إلى أن «البقايا فقط تُركت لآتانا». يعتبر ذلك أمرًا طبيعيًا للباحثين عن المكانة في غوادالكانال، فهم يقولون دائمًا: «صاحب الوليمة يأخذ العظام وسِقط الكعك؛ وتذهب اللحوم والدهون إلى الآخرين».

مكتبة الفكر الجديد

تشبه أيام إقامة الوليمة بالنسبة إلى الرجل الزعيم أيام مهرجان الشتاء الذي يقيمه الزعماء، فهي لا تنتهي أبدًا. يلتزم كل رجل زعيم بإشغال نفسه بالخطط والاستعدادات للوليمة التالية خشية أن يعود ليصبح من عموم الشعب من دون منصب. وبسبب وجود كثير من الرجال الزعماء في القرية والمجتمع، تؤدي هذه الخطط والاستعدادات غالبًا إلى مناورات تنافسية معقدة لكسب ولاء الأقارب والجيران. يعمل الرجال الرؤساء بجدية أكبر، ويقلقون أكثر، ويستهلكون أقل من أي شخص آخر. وتكون المكانة الرفيعة أجرهم الوحيد.

يمكن وصف الرجل الزعيم كعامل ذي مشروع - يصفه الروس بـ «العامل المجتهد بشكل استثنائي» - الذي يقدم الخدمات المهمة إلى المجتمع من خلال رفع مستوى الإنتاج. ونتيجة لشغف الرجل الرئيس في الحصول على مكانة، يعمل مزيدًا من الناس بجد أكبر وبالتالي ينتجون المزيد من الغذاء وغيره من الأشياء الثمينة.

في ظل الأوضاع يحصل فيها الجميع على فرص متساوية في امتلاك وسائل العيش، تخدم الولائمُ التنافسية الوظيفةَ الحيوية التي تمنع القوى العاملة من التراجع إلى مستويات إنتاجية لا تترك أي هامش أمان في أزمات مثل الحرب وتراجع المحاصيل. علاوة على ذلك، ونظرًا إلى غياب مؤسسات سياسية رسمية قادرة على إشراك القرى المستقلة في إطار عمل اقتصادي مشترك، فإن الولائم التنافسية تخلق شبكة واسعة من الفرص الاقتصادية. ويترتب عن ذلك حشد الجهد الإنتاجي للكثافات السكانية الكبيرة التي لا يمكن أن تحشدها أي قرية. أخيرًا، تمثّل الولائم التنافسية التي يقيمها الرجال الكبار معادلًا تلقائيًا للتقلبات السنوية في الإنتاجية بين سلسلة من القرى التي تقطن البيئات الصغيرة، مثل ساحل البحر أو البحيرة أو نجود المرتفعات. وتستضيف بشكل تلقائي أكبرَ الولائم في سنة ما، القرى التي تتمتّع بأحوال هطول الأمطار ودرجة الحرارة والرطوبة الأكثر ملاءمة للإنتاج.

تنطبق هذه الملاحظات كلها على الكواكيوتل، ذلك أن زعماءهم كانوا يشبهون الرجال الزعماء الميلانيزيين، باستثناء أنهم عملوا مع توفر حصيلة

مكتبة الفكر الجديد

تقنية أكثر إنتاجية في بيئة أكثر ثراء. ينافس بعضهم بعضَهم الآخر، مثل الرجال الزعماء، لجذب الرجال والنساء إلى قراهم. كان الزعماء الأعظم قدرًا هم المانحون الأكثر كرمًا ومقيمو مهرجانات الشتاء الأكبر. ويساهم أتباع الزعيم بطريقة غير مباشرة في مكانته الرفيعة ويساعدونه في تحقيق مقام سام. يطلب الزعماء نحت «أعمدة الطوطم»، وهي في الواقع إعلانات فخمة تُظهر من خلال طولها وتصاميمها الجريئة أن ثمة قرية كانت هنا ذات زعيم قوي تمكّن من إتمام أعمال عظيمة، وتمكّن من أن يحمي أتباعه من المجاعة والمرض. وبادعائهم الحقوق الموروثة لشارات الحيوانات المنقوشة على الأعمدة، قصد الزعماء في الواقع القول إنهم كانوا مزوِّدين عظماء للطعام والرفاه. كان مهرجان الشتاء وسيلتهم في إخبار منافسيهم أن يتحملوا أو يخرسوا.

على الرغم من الزخم التنافسي العلني في مهرجان الشتاء، قام في الأصل بوظيفة إيصال المواد الغذائية وغيرها من الأشياء الثمينة من مراكز عالية الإنتاجية إلى قرى أقلّ حظًّا. ويجب أن أشدد أكثر على هذا: بسبب الزخم التنافسي، كان هذا النقل مؤمَّنًا. باعتبار أن كانت هناك تقلبات غير متوقعة في حركة الأسماك وحصاد الفواكه البرية والخضراوات، حيث كان مهرجان الشتاء بين القرى مفيدًا من وجهة نظر سكان المنطقة كلها. فعندما تتكاثر الأسماك في المجاري المائية القريبة وينضج التوت ويصبح في متناول اليد، يصبح ضيوف العام الماضي مضيفي هذا العام. كان مهرجان الشتاء يعني في الأصل أنه في كل سنة سيهبُ مَن يملك، وسيأخذ من لا يملك. ومن أجل أن يأكل من لا يملكون الطعام، كل ما كان عليهم القيام به أن يعترفوا بأن الزعيم المنافس رجل عظيم.

لماذا غاب الأساس الحيوي لمهرجان الشتاء عن اهتمام روث بنديكت؟ بدأ علماء الأنثروبولوجيا بدراسة مهرجان الشتاء بعد مدة طويلة من دخول الشعوب الأصلية منطقة شمال غرب المحيط الهادئ في علاقات تجارية وعمل مأجور مع التجار والمستوطنين الروس والإنكليز والكنديين والأميركيين. وسرعان ما أدى هذا التواصل إلى زيادة أوبئة الجدري والأمراض الأوروبية الأخرى التي قتلت عددًا كبيرًا من السكان الأصليين. فعلى سبيل المثال:

مكتبة الفكر الجديد

انخفض عدد سكان الكواكيوتل من 23,000 نسمة في عام 1836 إلى 2,000 في عام 1886. وزاد هذا الانخفاض من حدة التنافس على القوى العاملة بشكل تلقائي. في الوقت نفسه، ضخّت الأجور التي دفعها الأوروبيون كميات غير مسبوقة من الثروة في شبكة مهرجان الشتاء عبر شركة خليج هدسون (Hudson's Bay Company)، وتلقّى الكواكيوتل آلاف البطانيات التجارية في مقابل الجلود الحيوانية. وخلال مهرجانات الشتاء الضخمة استبدلت البطانيات بالمواد الغذائية وأصبحت أهمّ عنصر في العطايا. وسرعان ما وجد التعداد السكاني المتضائل أنه يمتلك من البطانيات وغيرها من الأشياء الثمينة ما يفوق استهلاكه. ومع ذلك كانت هناك ضرورة لجذب الأتباع أكثر من أي وقت مضى نظرًا إلى نقص اليد العاملة. وبالتالي أمر زعماء مهرجان الشتاء بإتلاف الممتلكات والتخلص منها على أمل أن مثل هذه الاستعراضات المذهلة للثروة ستعيد الشعب إلى القرى المقفرة. لكن كانت تلك ممارسات ثقافة ميّتة تكافح للتكيّف مع منظومة جديدة من الأوضاع السياسية والاقتصادية؛ وهي تشبه مهرجانات الشتاء في الفترات الأصلية.

إن الولائم التنافسية التي تفكّر بها المشاركون وتحدثوا عنها وتخيلوها، مختلفة كليًا عن الولائم التنافسية التي نُظر إليها على أنّها تكيّف مع الضرورات والفرص المادية. ففي آليّة الحلم الاجتماعية - أي وعي المشتركين لنمط الحياة - تكون الولائم التنافسية مظهرًا من مظاهر الرغبة النهمة للرجل الزعيم أو زعيم مهرجان الشتاء للمكانة الرفيعة. لكن من وجهة النظر المتبعة في هذا الكتاب، فإن الرغبة النهمة في المكانة الرفيعة هي مظهر من مظاهر الولائم التنافسية. فكل مجتمع يستفيد من الحاجة إلى الاستحسان، لكن لا يربط كل مجتمع المكانة الرفيعة بالنجاح في الولائم التنافسية.

كي نُفهَم الولائم التنافسية بشكل صحيح، يجب أن يُنظر إليها بصفتها مصدرًا للمكانة من المنظور التطوري. ذلك أن الرجال الكبار مثل آتانا أو زعماء الكواكيوتل ينفّذون شكلًا من أشكال التبادل الاقتصادي المعروف باسم إعادة التوزيع (redistribution)، أي إنّهم يجمعون نتائج الجهد الإنتاجي لكثير من الأفراد ومن ثم يعيدون توزيع الثروة المراكَمة بكميات مختلفة على مجموعة

مكتبة الفكر الجديد

مختلفة من الناس. وكما قلت سابقًا، يعمل رجال الكاوكا الزعماء الذين يوزعون الثروة بجهد أكبر، ويقلقون أكثر، ويستهلكون أقل من أي شخص آخر في القرية. وذلك لا ينطبق على الزعماء الذين يوزعون الثروة من الكواكيوتل. يقوم زعماء مهرجان الشتاء بالوظائف التنظيمية والإدارية للمشروع التي كانت ضرورية لقيام مهرجان شتاء كبير؛ لكن بغضّ النظر عن الصيد المتقطع أو رحلات صيد حيوان الفقمة، تركوا أصعب المهمات لأتباعهم. كان لدى الزعماء الذين يقيمون مهرجانات شتاء عظيمة عدد من أسرى الحرب يعملون لديهم عبيدًا. أما من حيث امتيازات الاستهلاك، فقد بدأ زعماء الكواكيوتل بمخالفة أسلوب الكاوكا؛ إذ كانوا يحتفظون لأنفسهم بـ «اللحوم والدهون»، ويتركون معظم «العظام وسقط الكعك» لأتباعهم.

بتتبع مسار الخط التطوري، الواصل من آتانا، الرجل الرئيس العامل صاحب المشروع والفقير، وصولًا إلى متزعّمي الكواكيوتل شبه الوراثيين، فإننا نصل في نهاية المطاف إلى مجتمعات على مستوى الدولة يحكمها الملوك بالوراثة ممن لا يؤدّون عملًا صناعيًّا أو زراعيًّا أساسيًّا الذين يُبقون على الكميات الأوفر والأفضل من كل شيء لأنفسهم. فعلى المستوى الملكي، يحافظ الحكام المتمتعون بحقوق إلهية على مكانتهم الرفيعة من خلال بناء القصور والمعابد والأوابد الاستعراضية الضخمة. ويشرّعون حقهم في الامتيازات الوراثية ضد جميع المنافسين، ليس من طريق مهرجان الشتاء، لكن بقوة السلاح. ولو نظرنا من زاوية مقابلة، لأمكننا أن ننتقل من الملوك إلى زعماء مهرجان الشتاء وإلى الرجال الرؤساء، لنعود إلى أنماط الحياة التي تسودها المساواة في الحقوق حيث يزيل الأفراد جميع الاستعراضات التنافسية والاستهلاك الاستعراضي، ويمكن لامرئ لديه من الحماقة ما يدفعه إلى التفاخر بعظمة نفسه أن يُتَّهم بممارسة السحر ويرجم حتى الموت.

في المجتمعات التي يسودها التساوي في الحقوق، والتي استمرت لفترة طويلة بما يكفي لأن يدرسها علماء الأنثروبولوجيا، ليس هناك وجود لإعادة توزيع للثروة على شكل ولائم تنافسية، بل على العكس، يسود أسلوب التبادل

مكتبة الفكر الجديد

المعروف باسم التبادل الودي[1] (reciprocity). إن التبادل الودي مصطلح تقني للتبادل الاقتصادي الذي يحدث بين الأفراد من دون تحديد دقيق لما هو متوقّع أو ما ينتظره أي الفريقين من الآخر في المقابل. ظاهريًّا، لا يبدو التبادل الودي على أنه تبادلًا على الإطلاق، حيث تبقى توقعات أحد الطرفين والتزامات الطرف الآخر غير معلنة. كما يمكن لأحد الطرفين أن يستمر في الأخذ من الآخر لفترة طويلة من دون أن يرفض الطرف المانح ومن دون أي حرج للآخذ. ومع ذلك، لا يمكن اعتبار الصفقة هدية خالصة، حيث تكون هناك توقعات كامنة في المقابل، وإذا كُسر التوازن بين الأفراد بشكل كبير، يبدأ المانح في النهاية بالتذمر والنميمة. يتم إعلان المخاوف خشيةً على صحة الآخذ واتّزانه، وإن لم يتحسن الوضع، يبدأ الناس بالشك في أن الآخذ ممسوس من جهة الأرواح الشريرة أو أنه يمارس السحر. والأفراد الذين ينتهكون باستمرار قواعد التبادل الودي، في المجتمعات التي تسودها المساواة في الحقوق، من المحتمل أن يكونوا في الحقيقة مصابين باضطراب ذهني وأن يمثلوا تهديدًا لمجتمعهم.

يمكننا الحصول على فكرة عن ماهية التبادلات من خلال التفكير في الطريقة التي نتبادل فيها السلع والخدمات مع أصدقائنا المقربين أو الأقارب. ليس من المفترض أن يقوم الأخوة، على سبيل المثال، بحساب قيمة كل شيء يفعلونه في ما بينهم بالدولار. ينبغي أن يشعروا بحرية اقتراض قمصان وألبومات الفونوغراف بعضهم من بعضهم الآخر، كما يجب ألا يترددوا في طلب المساعدة. وفي حالة الأخوة والصداقة يقبل الطرفان مبدأ أن إذا كان أحد الطرفين يعطي أكثر مما يأخذ، فلن يؤثر في العلاقة التضامنية بينهما. فإذا دعا أحد ما صديقه إلى العشاء، ينبغي ألا يكون هناك أي تردد في تقديم أو قبول دعوة ثانية أو ثالثة حتى لو بقي العشاء الأول من دون مقابل. لكن هناك حدودًا لهذا النوع من التصرفات، لأنه بعد فترة من الوقت يصبح منح الهدايا من دون مقابل مثيرًا للريبة كما الاستغلال. وبعبارة أخرى، يحب المرء أن يبدو سخيًّا،

(1) يميز بولاني في النظم الاقتصادية، ثلاثة أنماط رئيسة للتبادل: تبادل الهدايا أو التبادل الودي، وتبادل السوق أو المقايضة، وإعادة التوزيع.

مكتبة الفكر الجديد

لكن لا يحب أن يُستنزف. هذا هو بالضبط المأزق الذي نضع أنفسنا فيه في عيد الميلاد عندما نحاول أن نعود إلى مبدأ التبادل الودي ونجهّز قوائم التسوق التي تخصنا. لا يمكن للهدية أن تكون رخيصة جدًا ولا مكلفة جدًا؛ ومع ذلك لا بدّ من أن تبدو حساباتنا عفوية تمامًا، لذلك نزيل لصاقة الثمن.

لكن، كي تدرك فعليًا كيف يجري التبادل الودي، يجب أن تعيش في مجتمع تسوده المساواة في الحقوق، لا مال فيه، وليست هناك إمكان لشراء أو بيع أي شيء. ويخضع كل ما يتعلق بالتبادل الودي للحساب الدقيق وتخمين ما يدين به شخص لآخر. في الواقع، إن جوهر الفكرة يتمحور حول إنكار أن يكون امرؤ ما مدينًا حقًّا بأي شيء. ويمكن المرء معرفة ما إذا كان أسلوب الحياة يعتمد التبادل الودي أو أي شيء آخر من كون الناس يقولون شكرًا أو لا. ففي المجتمعات التي تسودها المساواة في الحقوق، من الوقاحة إعلان الامتنان في مقابل تلقّي السلع المادية أو الخدمات. في أوساط السيماي (Semai) وسط مالايا، على سبيل المثال، لا يعبّر أحد قط عن امتنانه للحوم التي يمنحها صياد ضمن حصص متساوية تمامًا لرفاقه. وجد روبرت دِنتان الذي عاش مع السيماي، أن قول كلمة «شكرًا» أمر وقح جدًا لأنها تدل على أنك كنت تحسب حجم قطعة اللحم التي مُنحت لك، أو أنك فوجئت بنجاح الصياد وكرمه.

على النقيض من الاستعراض المبهر الذي يقيمه رجل الكاوكا الزعيم، وزعماء مهرجان الشتاء الذين يصرخون ويتبجحون، وتباهينا نحن بدلالات علو شأننا، يتبع السيماي أسلوب حياة يكون فيه الأقل استعراضًا هم أولئك الأكثر نجاحًا؛ ففي أسلوب حياتهم الذي تسوده المساواة في الحقوق، لا يكون السعي إلى المنصب من خلال إعادة التوزيع التنافسي أو أي شكل من أشكال الاستهلاك الاستعراضي أو التبديد الاستعراضي واردًا بكل معنى الكلمة. إذ إن الشعوب التي تسودها المساواة في الحقوق ترفض وتخاف من احتمال أن تتم معاملتها بكرم أو أن يظن شخص ما أنه أفضل من غيره.

يروي ريتشارد لي، من جامعة تورونتو، قصة طريفة عن معنى التبادل الودي بين الصيادين وجامعي الثمار المتساوين في الحقوق. ففي أفضل جزء

مكتبة الفكر الجديد

من السنة، قام لي باتباع البشمان في صحراء كالاهاري ومراقبة ما يأكلونه. كان البشمان متعاونين جدًا وأراد لي أن يثبت امتنانه لهم، لكن لم يكن يملك ما يعطيهم من دون أن يخلّ بنظامهم الغذائي الاعتيادي ونمط نشاطهم. ومع اقتراب عيد الميلاد عرف أن البشمان سيخيّمون على الأرجح على حافة الصحراء في القرب من القرى التي حصلوا منها في بعض الأحيان على اللحوم من خلال التجارة. كان في نيته أن يمنحهم ثورًا هدية عيد الميلاد، كان يقود سيارته الجيب من قرية إلى أخرى، محاولًا العثور على أكبر ثور يمكن شراؤه. أخيرًا وجد لي في قرية نائية، حيوانًا ذا حجم هائل، تغطيه طبقة سميكة من الدهون. كان رجال البشمان، على غرار كثير من الشعوب البدائية، يتلهفون للحوم الدهنية لأن الحيوانات التي يحصلون عليها من الصيد عادة ما تكون هزيلة وذات لحم قاسٍ. في طريق العودة إلى المخيم، انتحى لي بأصدقائه من البشمان جانبًا وأخبرهم فردًا فردًا أنه كان قد اشترى أكبر ثور رآه في حياته، وأنه سيدعهم يذبحونه في وقت عيد الميلاد.

ذُعر الرجل الأول الذي سمع الخبر بشكل واضح، سأله من أين اشترى الثور، ما لونه، وحجمه، ما حجم قرونه، ثم هز رأسه قائلًا: «أنا أعرف ذاك الثور، لماذا.. ما هو إلا جلد وعظم! لا بد أنك كنت في حالة سكر حين اشتريت مثل هذا الحيوان الذي لا قيمة له!». ولكونه مقتنعًا بأن صديقه لم يعرف حقًّا الثور كان يتحدث عنه، أفضى لي بالسر إلى رجال بشمان آخرين كثر، لكنه لم يحصل إلا على ردة الفعل المنذهل نفسه وقال كل واحد «اشتريت هذا الحيوان الذي لا قيمة له؟ بالطبع سنأكله جميعًا»، لكنه لن يشبعنا. سوف نأكل ونعود إلى المنزل للنوم بمعدة خاوية». وعندما حل عيد الميلاد، وذبح الثور أخيرًا، تبيّن أن البهيمة كانت مغطاة بطبقة سميكة من الدهون، والتُهمت باستمتاع كبير. كان هناك فائض من اللحم والدهن للجميع. لذا ذهب لي إلى أصدقائه وأصرّ عليهم أن يفسروا ذلك. فاعترف له أحد الصيادين قائلًا «نعم، بالطبع كنا نعرف كيف كان يبدو الثور في الحقيقة، لكن عندما يقتل شاب حيوانًا ذا لحم وافر يحدث أن يفكر بنفسه على أنه زعيم أو رجل رئيس، وأن يفكر في الباقين منا على أنهم عبيده أو أقل مرتبة منه. ولا يمكننا أن نقبل بهذا»، ثم أكمل: «نحن نرفض من يفاخر

مكتبة الفكر الجديد

بنفسه، لأن غروره سيجعله يقتل شخصًا ما في أحد الأيام. لذلك نتكلم دائمًا عن طعامه كما لو كان لا قيمة له. بهذه الطريقة نبرّد قلبه ونعيده إلى اعتداله».

يعرب الأسكيمو عن خوفهم من مانحي الهدايا المتبجحين والأسخياء بالمثل الشعبي القائل «تروّض الهدايا العبيد كما تروض السياط الكلاب». وهذا بالضبط ما حدث. فمن وجهة النظر التطورية، قدّم مانحو الهدايا في البدء هداياهم من عملهم الإضافي؛ ثم سرعان ما وجد الناس أنفسهم يعملون بجد للردّ بالمثل لإتاحة المجال لمانحي الهدايا لمنحهم المزيد من الهدايا؛ وفي المحصلة أصبح مانحو الهدايا ذوي نفوذ واسع للغاية، ولم يعودوا بحاجة إلى الانصياع لقواعد التبادل الودي. وبات بإمكانهم أن يجبروا الناس على دفع الضرائب والعمل لديهم من دون إعادة توزيع ما كان في مخازنهم وقصورهم في الواقع. بطبيعة الحال، أدرك الرجال الكبار والسياسيون الكُثر أنه لا يزال من الأسهل الحصول على «عبيد» يعملون لمصلحتك من طريق إقامة وليمة كبيرة لهم في بعض الأوقات بدلًا من جلدهم بالسياط طوال الوقت.

إذا كانت الشعوب مثل الإسكيمو والبشمان والسيماي قد وعت مخاطر منح الهدايا، فلماذا سمح الآخرون لمنح الهدايا أن يزدهر إذًا؟ لماذا سُمح للرجال الزعماء بالتباهي، حيث تمكّنوا من الانقلاب واستعباد الناس الفقراء الذين ساهموا بعملهم في صنع مجد هؤلاء؟ مرة أخرى، أظن أنني على وشك محاولة تفسير كل شيء في آن. لكن اسمحوا لي أن أقدّم بعض الاقتراحات.

إن التبادل الودي شكل من أشكال التبادل الاقتصادي المتكيّف بشكل رئيس مع الأوضاع التي يعقب فيها تحفيز الجهود المكثّفة الإنتاجية الإضافية تأثيرًا معاكسًا في بقاء المجموعة. وُجدت هذه الأوضاع بين بعض الصيادين وجامعي الثمار مثل الإسكيمو والسيماي والبشمان الذين اعتمد بقاؤهم بشكل كلي على صرامة الملكيات المشتركة الطبيعية للنباتات والحيوانات في موطنهم. وإن قام الصيادون فجأة بجهود متضافرة لصيد المزيد من الحيوانات واقتلاع المزيد من النباتات، فإنهم يخاطرون في التسبب بعرقلة دائمة في إمدادات الطرائد في منطقتهم.

مكتبة الفكر الجديد

وجد لي، على سبيل المثال، أن البشمان الذين عرفهم عملوا لضمان الكفاف في مقابل عشر ساعات إلى خمس عشرة ساعة في الأسبوع. يقضي هذا الاكتشاف على واحدة من أشد أساطير المجتمع الصناعي زيفًا – وهي أننا نمتلك اليوم وقت فراغ أكثر من أي وقت مضى. إلّا أن الصيادين وجامعي الثمار البدائيين عملوا أقل مما نعمل نحن – من دون الاستفادة من وجود اتحاد عمالي واحد – لأن نظمهم الإيكولوجية لا تتحمل أسابيع وشهورًا من الجهد الإضافي المكثف. فالشخصيات العاملة المجتهدة من البشمان، التي تتنقل بشكل استثنائي وتحضّ الأصدقاء والأقارب على العمل بجد أكبر من ذي قبل متعهدين بإقامة وليمة كبيرة لهم، تشكل خطرًا جليًّا على المجتمع. فإن تمكّن أحدهم من جعل أتباعه يعملون مثل الكاوكا لمدة شهر، سيقوم رجل زعيم من البشمان بقتل جميع الطرائد الحيوانية التي تبعد أميالًا أو تخويفها، وتجويع شعبه حتى الموت قبل نهاية السنة. لذلك يسود التبادل الودي وليس إعادة التوزيع بين البشمان، وبالتالي فإن الصياد الذي يمكن الاعتماد عليه، والذي لا يتفاخر بإنجازاته، والذي يتجنب أي إشارة إلى أنّه سيمنح هدية ما عندما يقطّع حيوانًا كان قد قتله، سيحصل على المكانة الرفيعة الأسمى.

تجاوزت الولائم التنافسية والأشكال الأخرى لإعادة التوزيع حدّ الاعتماد على التبادل الودي عندما أصبح بالإمكان زيادة أمد وكثافة العمل من دون إلحاق ضرر لا يقبل الإصلاح على الطاقة الاستيعابية للموطن. بشكل أساس، أصبح ذلك ممكنًا وعاديًّا عندما استُبدلت الموارد الغذائية الطبيعية بالنباتات والحيوانات المنزلية. ضمن الأطر العريضة، كلما عملتَ أكثر في زراعة الأنواع المنزلية وتربيتها، تمكنت كثيرًا من إنتاج المزيد من الطعام. وتكمن العقبة الوحيدة في أنّ الناس لا يعملون عادة بجدّ يفوق ما هو واجب عليهم. وكانت إعادة التوزيع حلًّا لهذه المشكلة. بدأت إعادة التوزيع بالظهور عندما عمل الناس بجدّ أكبر من أجل المحافظة على توازن متبادل مع المتعطشين إلى المكانة السامية، أي المنتجين المتحمسين جدًا. وبما أن المبادلات القائمة على التبادل الودي أصبحت غير متوازنة، تحولت إلى هدايا مرة أخرى؛ وبسبب تراكم الهدايا، تمّت مكافأة مانحي الهدايا بالمكانة الرفيعة والهدايا في المقابل.

مكتبة الفكر الجديد

ثم طغت على الفور إعادة التوزيع على التبادل الودي وذهبت المكانة الرفيعة الأسمى إلى الأكثر تبجحًا، إلى مانحي الهدايا دقيقي الحسابات الذين تملقوا وأهانوا وأجبروا الجميع بالمطلق على العمل بجدّ أكبر مما تخيل البشمان أنه قابل للاحتمال.

أحيانًا، كما يشير مثال الكواكيوتل، وُجدت الأوضاع الملائمة لظهور الولائم التنافسية وإعادة التوزيع أيضًا لدى شعوب غير زراعية؛ إذ وفّر التدفق السنوي لسمك السلمون والأسماك المهاجرة الأخرى والثدييّات البحرية، النظير الإيكولوجي للمحاصيل الزراعية لدى الشعوب الساحلية لشمال غرب المحيط الهادئ. يتدفق سمك السلمون أو اليَلْقون في أعداد ضخمة، حيث إنه بإمكان الناس دومًا اصطياد المزيد من السمك إن عملوا بجدّ أكبر. وعلاوة على ذلك، لم يكونوا ليتمكّنوا من اصطياد كميات من الأسماك تضرّ بتكاثر هذه التدفقات واستنزاف غذاء السنوات التالية، ما داموا يصطادون باستخدام مصيدة تحمل باليد.

يمكننا، بابتعادنا حاليًا من دراستنا لنظم التبادل الودي وإعادة التوزيع من أصحاب المكانة الرفيعة، أن نخمن أن كل نمط رئيس من الأنظمة السياسية والاقتصادية يستخدم «النفوذ» بطريقة مميزة. فعلى سبيل المثال، أصبح الاقتناء التنافسي للثروة مرة أخرى معيارًا أساسيًا لمنصب الرجل الزعيم مع ظهور الرأسمالية في أوروبا الغربية. في هذه الحالة وحدها، حاول الرجال الزعماء أن يسلبوا بعضهم الثروة، وكانت المكانة الرفيعة الأسمى والسلطة من نصيب الفرد الذي تمكّن من مراكمة وتكديس الثروة الأعظم. وخلال السنوات الأولى من الرأسمالية، كان النفوذ الأعلى من نصيب أولئك الذين كانوا الأغنى لكنهم عاشوا بالطرائق الأكثر اقتصادًا. ثم لجأت الطبقة الرأسمالية العليا، بعد أن أصبحت ثروتها مضمونة، إلى الاستهلاك والتبديد الاستعراضيين على نطاق واسع من أجل إذهال المنافسين. فبنى أفرادها القصور العظيمة وارتدوا حليًا استثنائية وزيّنوا أنفسهم بجواهر كبيرة وتحدثوا بازدراء عن الجماهير الفقيرة. وفي الوقت نفسه، واصلت الطبقات الوسطى والدنيا منح المكانة الرفيعة

مكتبة الفكر الجديد

الأسمى لأولئك الذين عملوا بجدّ أكبر وأنفقوا أقل ورفضوا بشكل واع جميع أشكال الاستهلاك والتبديد الاستعراضيين. لكن حين بدأت الطاقة الإنتاجية الصناعية بإغراق السوق الاستهلاكية، كان لا بد للطبقات الوسطى والدنيا من الفطام مبتعدة من عاداتها التوفيرية. وساهم الإعلان ووسائل الإعلام بحشد القوى لحثّ الطبقات الوسطى والدنيا على وقف التوفير واللجوء إلى الشراء والاستهلاك والتبديد والتبذير، بمعنى آخر: التخلص من أي كميات فائضة من السلع والخدمات. ولذلك باتت المكانة الرفيعة من نصيب أكبر وأبرز مستهلك بين الساعين إلى المناصب من الطبقة المتوسطة.

لكن في الوقت نفسه، وجد الأغنياء أنفسهم مهددين بأنماط جديدة من الضرائب التي تهدف إلى إعادة توزيع ثروتهم. وأصبح الاستهلاك الاستعراضي في أشكاله الهائلة خطرًا، لذلك، ومن جديد، تؤول المكانة الرفيعة الأسمى الآن إلى أولئك الذين يمتلكون الكثير، لكنهم الأقل استعراضًا. وبما أن معظم الأفراد ذوي المراتب الرفيعة في الطبقة العليا لم يعد يتفاخر بثروته، جرى التخلص من بعض الضغط المنصبّ على الطبقة الوسطى للمشاركة في الاستهلاك الاستعراضي. وهذا ما يستدعي إلى ذهني أن ارتداء الجينز الممزق ورفض الاستهلاك الاستعراضي بين شباب الطبقة الوسطى حديثًا، يتعلق بتقليد الموضة التي رسختها الطبقة العليا أكثر مما رسختها ما تسمى الثورة الثقافية.

ثمة نقطة أخيرة. كما بينتُ، إن إحلال السعي التنافسي إلى المناصب محل التبادل الودي، جعل من نجاة التكتلات السكانية الأكبر وازدهارها في منطقة معينة أمرًا ممكنًا. قد يخاتل المرء بقوة التشكيك في عقلانية العملية التي تم بواسطتها خداع البشرية ومداهنتها من أجل العمل بجدّ بغية إطعام المزيد من الناس بقدر مشابه لِمستويات الرفاهية المادية التي تمتعت بها الشعوب مثل الإسكيمو أو البشمان، أو حتى أقل منها. والتفسير الوحيد الذي أراه متاحًا لمشكلة كهذه يكمن في أن الكثير من المجتمعات البدائية رفضت توسيع جهدها الإنتاجي وفشلت في زيادة كثافة سكانها لأنها اكتشفت أن تقنيات «توفير العمالة» الجديدة كانت تعني في الواقع أن عليها العمل بجدّ، وكذلك

مكتبة الفكر الجديد

أنّ عليها أن تتكبد الخسارة في مستويات المعيشة. لكن مصير هذه الشعوب البدائية كان بحكم المنتهي حال تجاوز أي منها - مهما يكن بعيدًا - عتبة إعادة التوزيع والتقسيم الطبقي الواسع النطاق للفئات التي تقف وراء ذلك. إن الطبقات الحاكمة التي نظّمت المجتمعات الأكبر والأكثر قوة، والتي أوصلت الإنتاج والعدد السكاني إلى أقصاه، قضت تقريبًا على جميع الصيادين وجامعي الثمار ممن يتبعون التبادل الودي، أو تم نفيهم إلى المناطق النائية. في النهاية، كان هذا الاستبدال في الأساس مسألة متعلقة بقدرة المجتمعات الأكبر، والأكثر كثافة، وذات التنظيم الأفضل، على هزيمة الصيادين وجامعي الثمار في النزاعات المسلحة. لأن الأمر كان كالتالي: اعمل بجدّ أو مُتْ.

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Benedict, Ruth. *Patterns of Culture*. New York: Mentor, 1946.

Boas, Franz. «The Social Organization of the Kwakiutl.» *American Anthropologist*. vol. 22 (1920), pp. 111-126.

Codere, Helen. *Fighting with Property: A Study of Kwakiutl Potlatches and Warfare*. Monographs of the American Ethnological Society. 18. 1950.

Damas, David. «Central Eskimo System of Food Sharing.» *Ethnology*. vol. II (1972), pp. 220-239.

Dentan, Robert K. *The Semai: A Non-violent People of Malaya*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1968.

Fried, Morton. *The Evolution of Political Society*. New York: Random House, 1967.

Hogbin, Ian. *A Guadalcanal Society: The Kaoka Speaker*. New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1964.

_____. «Social Advancements in Guadalcanal.» *Oceania*. vol. 8 (1938).

Lee, Richard. «Eating Christmas in the Kalahari.» *Natural History* (December 1969), pp. 14ff.

_____. «Kung Bushman Subsistence: An Input-Output Analysis.» in: Vayda, Andrew P. (ed.). *Environment and Cultural Behavior*, pp. 47-79.

Oliver, Douglas. *A Solomon Islands Society*. Cambridge: Harvard University Press, 1955.

Piddocke, Stuart. «The Potlatch System of the Southern Kwakiutl: A New Perspective.» in: Vayda, Andrew P. (ed.). *Environment and Cultural Behavior*. Garden City, N.J.: Natural History Press, 1969, pp. 130-158.

مكتبة الفكر الجديد

Rohner, Ronald P. & Evelyn C. Rohner. *The Kwakiutl: Indians of British Columbia*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1970.

Sahlins, Marshall. «On the Sociology of Primitive Exchange.» in: Banton, Micheal (ed.). *The Relevance of Models for Social Anthropology*. London: Association of Social Anthropology Monograph 1, 1965, pp. 139-236.

_____. *Tribesmen*. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1968.

Vayda, Andrew P. «A Re-Examination of Northwest Coast Economic Systems.» *Transactions of the New York Academy Sciences*. Series II. vol. 23 (1961), pp. 618-624.

Veblen, Thorstein. *The Theory of the Leisure Class*. New York: Modern Library, 1934.

مكتبة الفكر الجديد

عقيدة الأحمال الوهمية

مكتبة
الفكر الجديد

اخترت أن أحدثكم عن عقيدة الأحمال الوهمية في هذه المرحلة لارتباطها المباشر بالمبادلات الاقتصادية ونظام الرجال الزعماء. قد لا تلاحظون هذا الارتباط مباشرة، ذلك أن لا شيء يتعلق بعقيدة الأحمال الوهمية يمكن إيضاحه بشكل فوري.

في المشهد، مطار غاب في أعالي جبال نيو غينيا. في الجوار، حظيرة طائرات مسقوفة بالقش، وكشك لبيع الأجهزة الإلكترونية، وبرج منارة مصنوع من سيقان البامبو. وهناك طائرة مصنوعة من الأعواد والأوراق على البَرّ. يخضع مطار الغاب للحراسة على مدى أربع وعشرين ساعة خلال اليوم من مجموعة من السكان المحليين ممن يرتدون حليًّا في أنوفهم وشارات صدفية. ويتركون موقد نار مشتعلًا في أثناء الليل ليعمل كمنارة، فهم يتوقعون وصول رحلة جوية على قدر من الأهمية: طائرات من الحِمْل تزخر بأغذية معلبة وثياب وأجهزة لاسلكي محمولة وساعات يد ودرّاجات نارية. سيقود هذه الطائرات الأسلاف الذين عادوا إلى الحياة. لكن لِمَ التأخير؟ يدخل رجل إلى كشك بيع الأجهزة الإلكترونية ويصدر تعليمات عبر مكبر الصوت المصنوع من علبة من الصفيح. تمرّ الرسالة عبر هوائي مصنوع من الخيوط والعرائش: «هل تسمعني؟ استلم وانتهى». ربما يشاهدون من وقت إلى آخر أثر طائرة نفاثة عبر السماء؛ ويسمعون بالمصادفة صوت محركات بعيدة. ها هم الأسلاف في السماء! إنهم يبحثون عنهم. لكن البيض في البلدات الدنيا يرسلون الرسائل أيضًا. إن الأسلاف مشوشون، وقد هبطوا في المطار الخاطئ.

بدأ انتظار السفن والطائرات لجلب الأسلاف الميتين والحِمْل منذ وقتٍ طويل. وكان أهل الساحل في الديانات السابقة يترقبون قاربًا كبيرًا. ثم، تطلّعوا إلى المراكب الشراعية. وفي عام 1919، تفحص زعماء الديانة الأفق باحثين

مكتبة الفكر الجديد

عن آثار دخان بواخر. وبعد الحرب العالمية الثانية، كان من المتوقع وصول الأجداد في سفن إنزال (LST) وفوج من الناقلات ومقاتلات قاذفة للقنابل. والآن، سيأتون في «بيوت طائرة» تتجاوز في علوها الطائرات.

كما أن الأحمال نفسها خضعت بدورها للتحديث. ففي الأزمنة الفائتة، نُظر إلى عيدان الثقاب والمعدّات الفولاذية، ولفّات قطن الكاليكو على أنها تشكل أغلبية الحِمْل. ثم تحولت إلى أكياس الأرز والأحذية واللحم المعلّب والسردين والبنادق والسكاكين، ثم الذخيرة والتبغ. وفي الآونة الأخيرة، باتت أساطيل الأحمال تشمل السيارات وأجهزة الراديو والدراجات النارية. ويتنبأ بعض أنبياء الحِمْل غرب إيريان بوجود بواخر ستضخ معامل بحالها ومصانع للصلب.

سيكون إجراء جرد مفصل لمحتويات الأحمال مضلّلًا، فالسكان المحليون ينتظرون تطويرًا كليًا لحياتهم، وستحمل السفن والطائرات الوهمية بدايةً لعهدٍ جديدٍ كليًا. سيُعاد لمّ شمل الأموات والأحياء، وسيُطرد الرجال البيض أو ستتم السيطرة عليهم؛ لن يكون هناك المزيد من الكدح؛ ولن يكون هناك نقص في أي شيء. بعبارة أخرى، سيمثل وصول الأحمال استهلالًا لفردوس على الأرض. يختلف هذا التصور عن التوصيفات الغربية للألفية فحسب، من حيث البروز الغريب للمنتوجات الصناعية. فنجد الطائرات النفاثة والأسلاف، الدراجات النارية والمعجزات، أجهزة الراديو والأشباح. إن أعرافنا تعدّنا للخلاص وإعادة البعث والخلود، لكن هل بالطائرات والسيارات وأجهزة الراديو؟ ليس هناك سفن وهمية بالنسبة إلينا. فنحن نعلم من أين تأتي هذه الأشياء. أو هل حقًّا نعلم؟

يقوم المبشرون والمدراء الحكوميون بالترويج بين السكان المحليين ما مفاده أن العمل بجد والآلات ستجعل الازدهار الصناعي يغدق عليهم نهرًا من الثروة. لكن يتمسك أنبياء الأحمال بنظريات أخرى. فهم يصرّون على أن الثروة المادية للعصر الصناعي خُلقت حقًّا في مكان بعيد، ليس على يد البشر، بل بوسائل خارقة للطبيعة. يعلم المبشرون والتجار وموظفو الحكومة كيف

مكتبة الفكر الجديد

تُرسل إليهم هذه الشحنات من الثروة بالسفينة أو بالطائرة، فهم يمتلكون «سر الأحمال». وإن أنبياء الأحمال المحليين يوفّقون أو يخفقون بحسب تمكنهم من اكتشاف هذا السر وتسليم الأحمال إلى أيدي أتباعهم.

تطورت نظريات السكان المحليين في شأن الأحمال تبعًا للأوضاع المتغيرة باستمرار، حيث كان للأجداد، قبل الحرب العالمية الثانية، بشرة بيضاء ثم قيل إنهم يشبهون اليابانيين؛ لكن عندما طردت حشود الأميركيين السود اليابانيين جرى تصوير الأجداد على أنهم ذوو بشرة سوداء.

بعد الحرب العالمية الثانية، تركّزت نظرية الأحمال حول الأميركيين. قرر الناس، في نيو هِبْرايدز، أن هناك جنديًّا أميركيًّا اسمه جون فرام سيكون ملك أميركا. بنى أنبياؤه مطارًا تهبط فيه المقاتلات الأميركية القاذفة للقنابل التي ستكون مملوءة بأحمال من الحليب والمثلجات. تظهر الآثار الباقية في ساحات معارك جزيرة المحيط الهادئ أن جون فرام كان هناك. كما تعتقد إحدى المجموعات أن سترة المعركة ذات رتبة الرقيب الخاصة بالجيش والصليب الأحمر الخاص بالفيلق الطبي الموجود على الأكمام كان قد ارتداه جون فرام عندما تعهد بأن يعود بالأحمال. أقيمت صلبان حمر خاصة بالفيالق الطبية الصغيرة، وأحيط كل منها بسور أنيق في جميع أنحاء جزيرة تانا. أشار زعيم قرية جون فرام في مقابلة له في عام 1970 إلى أنه «قد انتظر الناس حوالى 2000 عام من أجل عودة المسيح، لذا سنتمكن من انتظار جون فرام لفترة أطول».

في خلال عام 1968، أعلن نبيٌّ على جزيرة نيوهانوفر في أرخبيل بسمارك أن سر الأحمال كان مكشوفًا لرئيس الولايات المتحدة فحسب. وبرفضهم دفع الضرائب المحلية، وفّر أتباع الديانة مبلغ 75000 دولار لـ «شراء» ليندون جونسون وجعله ملكًا على نيوهانوفر إذا أخبرهم بالسر.

في عام 1962 وضعت القوات البحرية التابعة للولايات المتحدة علامة مسح إسمنتية كبيرة على قمة جبل تورو قرب ويواك في نيو غينيا، ما جعل النبي ياليوان ماثياس واثقًا من أن الأميركيين هم الأسلاف وبأن الأحمال موجودة

مكتبة الفكر الجديد

تحت العلامة. لذا قام بمشاركة أتباعه، في أيار/مايو 1971، بعد ليلة من الصلاة وبمرافقة موسيقى البوب على راديو الترانزستور خاصتهم، بالتنقيب تحت العلامة. لم تكن هناك أحمال. وعلل ياليوان ذلك بأن السلطات قد أخذته بعيدًا. ولم يفقد شركاؤه الذين شاركوه بـ 21500 دولار الأمل.

من السهل نبذ معتقدات الأحمال على أنها هذيان العقول البدائية: إما أن الزعماء الأنبياء أنذال بارعون للغاية ويقومون بالاستغلال معتمدين على جشع إخوتهم وجهلهم وسذاجتهم، وإما أنهم مضطربون عقليًا وينشرون أفكارهم المجنونة المتعلقة بالحِمْل من طريق التنويم المغناطيسي والهستيريا الجماعية. تكاد تلك النظرية تكون مقنعة لو لم يكن هناك غموض حول كيفية تصنيع الثروة الصناعية وتوزيعها. لكن في الحقيقة، ليس من السهل إيضاح سبب أن بعض البلدان فقير والأخرى غنية، كما ليس من السهل أيضًا إيضاح سبب وجود فروق شاسعة كهذه في توزيع الثروة في الدول الحديثة. لذا فأنا أظن أن ثمة غموضًا حقيقيًا يخصّ الأحمال، وأن محاولة السكان المحليين جلاءه أمر مسوّغ.

علينا التركيز على حالة بعينها بغية اكتشاف سر الأحمال. واخترت من أجل ذلك ديانات منطقة مادانغ (Madang) على الساحل الشمالي لنيو غينيا الأسترالية، التي وصفها بيتر لورنس في كتابه **الأحمال التي لها أحقية الطريق** (*Road Belong Cargo*).

كان ميكلوهو ماكلاي، المستكشف الروسي من القرن التاسع عشر، أول الأوروبيين الذين زاروا ساحل مادانغ. وبدأ رجاله بتوزيع الفؤوس الفولاذية ولفائف الأقمشة وهدايا قيّمة أخرى لدى وصول قاربه. قرر السكان المحليون أن الرجال البيض كانوا أسلافهم، وصقل الأوروبيون هذا التصوّر عن عمد وذلك بعدم سماحهم للسكان المحليين أن يلاحظوا موت رجل أبيض، حيث كانوا يتخلصون من الجثث سرًا في البحر ويفسرون ذلك بأن الرجال المفقودين قد عادوا إلى السماء.

في عام 1884، أنشأت ألمانيا أول حكومة استعمارية في مادانغ، ثم تبعها المبشرون اللوثريون بعد فترة قصيرة، لكنهم لم ينجحوا في جذب متحوّلين عن

مكتبة الفكر الجديد

الدين. استمرت إحدى البعثات لثلاثة عشر عامًا من دون تعميد فرد واحد من السكان المحليين. وعندها لزم تقديم رشوة إلى المتحولين عن دينهم تتمثل بالمعدات الفولاذية والطعام. والآن بإمكانكم أن تتبينوا سبب قولي إن مفهوم الرجل الزعيم يدخل في صميم الموضوع. وكما تم وصف الرجال الزعماء المحليين في الفصل السابق، بقي الرجال الزعماء الموجودون خارج البلاد موثوقين وعادلين ما داموا يحصلون على الهدايا بشكل مستمر. لم يكن هناك فرق سواء أأجدادًا عائدين كانوا أم آلهة، باستثناء أن الرجال الزعماء أشباه الآلهة عليهم أن يقدموا عطاءات تفوق ما يقدمه الرجال الزعماء العاديون. لم يعد أداء التراتيل والوعد بالخلاص المستقبلي كافيًا ليبقى السكان المحليون مهتمين. أرادوا وتوقعوا وصول الأحمال؛ أي كل ما تسلّمه المبشرون ورفاقهم بواسطة السفن من البلاد الواقعة خلف البحار.

كما رأينا، على الرجال الزعماء إذًا إعادة توزيع ثروتهم. ويعتقد السكان المحليون أن ليس هناك من هو أسوأ من رجل زعيم بخيل. كان المبشرون واقفين دونهم بوضوح، يحتفظون بـ «اللحم والدسم» لأنفسهم ويتنازلون عن «العظام وسقط الكعك». عمل السكان المحليون بجِّد في أماكن إقامة البعثة بالأعمال الجماعية، على الطريق، وفي المزرعة مترقبين وليمة دسمة، لكن لمَ لم تحدث؟ في عام 1904، اتفق السكان المحليون على قتل جميع الرجال الزعماء البخلاء، لكن السلطات علمت بالمؤامرة وأعدمت جميع قادة هذه المجموعة. وأُعلنت الأحكام العرفيّة.

بعد هذه الهزيمة، بدأ مفكرو السكان المحليين بتطوير نظريات جديدة عن أصل الأحمال. كانت الأحمال من صناعة الأسلاف المحليين، وليس الأوروبيين. لكن الأوروبيين كانوا يمنعون السكان المحليين من الحصول على حصتهم، ثم حصل تمرد مسلح ثان في عام 1912. نشبت بعده الحرب العالمية الأولى، وهرب الرجال الزعماء الألمان وسيطر الرجال الزعماء الأستراليون.

بعد ذلك عقد السكان المحليون اجتماعات أجمعوا خلالها على أن قيام مقاومة مسلحة إضافية أمر لا يمكن تنفيذه الآن، وبات من الواضح أن

مكتبة الفكر الجديد

المبشرين يعرفون سر الأحمال. وبالتالي فإن الأمر الوحيد الذي كان عليهم فعله هو أن يعرفوا السر منهم. اندفع السكان المحليون أفواجًا إلى الكنائس والمدارس التبشيرية وأصبحوا مسيحيّين متعاونين ومتحمسين. واستمعوا بانتباه إلى القصة التالية: في البدء، خلق إله، اسمه إنيوس في ميثيولوجيا السكان المحليين، السماء والأرض، ومنح آدم وحواء فردوسًا مليئًا بالأحمال: جميع اللحوم المعلبة والمعدات الفولاذية وأكياس الأرز وأعواد الثقاب التي يستطيعون الاستفادة منها. وعندما اكتشف آدم وحواء الجنس، أخذ إنيوس الأحمال بعيدًا منهم وأرسل الفيضان. علّم إنيوس نوح كيف يبني باخرة خشبية ضخمة، وجعله قبطانها. أطاع سام ويافث والدهما نوح. لكن حام كان أحمق ولم يطعه. أخذ نوح الأحمال من حام وأرسلها إلى نيو غينيا. أشفق إنيوس على أبناء حام بعد أن عاشوا لسنين في الجهل والظلام وأرسل المبشرين كي يلغوا خطيئة حام، قائلًا: «عليكم أن تقنعوا سلالته بالاهتداء إليّ ثانيةً، وعندما يتبعوني مرة ثانية سأرسل الأحمال إليهم كما أرسلتها إليكم الآن أيها الرجال البيض».

أدى إقبال المتحولين الجدد على الكنيسة والاتزان والاحترام الذي قدموه إلى تشجيع الحكومة والبعثات. أدركت قلة من البيض مدى انحراف مفهوم الدين المسيحي لدى السكان المحليين عن مفهومهم له. فألقيت عظات بلغات كثيرة، خليط من الألمانية والإنكليزية واللغات الأصلية، وعرف المبشرون أن السكان المحليين فهموا عبارة «وقد بارك الله نوح»، على أنها «وقد منح الله نوح الأحمال». وعلموا أنهم عندما يلقون من إنجيل متّى هذه العظة: «لكن اطلبوا أولًا ملكوت الله، وبرَّه، وهذه كلها تُزاد لكم»، فإن السكان المحليين فهموا هذا المقطع على أنه: «سيكافأ المسيحيون الأبرار بالأحمال». لكنهم علموا أنه في حال قدمت مكافآت على طاعة المسيحيين بشكل روحي بالمطلق وأخرى بشكل ذي محتوى دنيوي، فإما أن السكان المحليين لن يصدقوهم وإما أنهم سيفقدون الاهتمام ويتجهون إلى كنيسة شخص آخر. كانت الرسالة جلية وواضحة بالنسبة إلى السكان المحليين الأذكياء: كان المسيح والأسلاف سيقدّمون الأحمال إلى المؤمنين، وأما غير المؤمنين فلن يُحرموا من الأحمال وحسب، بل أيضًا سيُحرقون في الجحيم. لذلك في العقد الثالث من القرن

مكتبة الفكر الجديد

العشرين، اهتم الزعماء المحليون بصبر بواجباتهم المسيحية؛ غنّوا التراتيل، عملوا في مقابل سنتات قليلة في الساعة، دفعوا ضرائب الرأس المفروضة عليهم، تخلّوا عن زوجاتهم الإضافيات، وأظهروا الاحترام للرؤساء البيض. لكن بحلول العقد الرابع بدأ صبرهم ينفد. فلو كان للعمل الشاق أن يجلب الأحمال، لكانوا حصلوا عليها الآن. أفرغوا أحمال أعداد لا تحصى من سفن وطائرات سادتهم البيض من دون أن يستلم أحد السكان المحليين صندوقًا واحدًا من تلك البلاد البعيدة.

كان ملقنو التعليم المسيحي والمساعدون في البعثة متضايقين على نحو استثنائي؛ إذ لاحظوا، من ناحية، الفرق الجسيم بين ثروتهم وثروة الرجال الكبار الأوروبيين. كما لاحظوا الفشل الواضح في تقليص هذه الفروق نتيجة للجهد المبذول في الحصول على المزيد من المتحولين عن الدين وعلى التحوّل إلى مسيحيين جيدين. دخل وزير لوثري بارز، هو رولاند هنزيلمان إلى كنيسته صبيحة يوم أحد في عام 1933 ووجد جميع مساعديه من الرجال المحليين واقفين خلف حبل نصبوه عبر الممشى. وقرأوا له العريضة التالية: «لِمَ لا يُكشف لنا سر الأحمال؟ إن المسيحية لا تساعدنا نحن السود بطريقة فاعلة. الرجال البيض يخفون سر الأحمال». وكانت هناك أعذار إضافية: فالكتاب المقدس لم يترجم بطريقة صحيحة سواء عمدًا أم عرضًا، خضع للرقابة؛ وكانت الصفحة الأولى مفقودة، وتم التكتم على اسم الله الحقيقي.

قاطع السكان المحليون البعثات ووضعوا أمامهم حلًّا جديدًا لمسألة سر الأحمال، وهو أن المسيح منح الأحمال إلى الأوروبيين، والآن يريد منحها إلى السكان المحليين. لكن اليهود والمبشرين تآمروا ليبقوها لأنفسهم. أمسك اليهود بالمسيح وأبقوه سجينًا في سيدني، أستراليا. لكن سيتحرر المسيح قريبًا وستبدأ الأحمال بالوصول. سيحصل الأكثر فقرًا على الكمية الأكبر «سيرث الودعاء». توقف الناس عن العمل، ذبحوا خنازيرهم، أحرقوا حدائقهم وتجمعوا في المقابر.

ترافقت هذه الحوادث مع نشوب الحرب العالمية الثانية. ولم يكن لدى السكان المحليين في البداية أي مشكلة في استيعاب سبب هذه الحرب

مكتبة الفكر الجديد

الجديدة. طرد الأستراليون الألمان والآن سيطرد الألمان الأستراليين، وفي هذا الوقت تحديدًا سيكون الألمان أسلافًا متخفّين على هيئة جنود ألمان. سجنت الحكومة زعماء الديانة لنشرهم البروباغندا الألمانية. لكن على الرغم من إخفاء الأخبار، سرعان ما بدأ السكان المحليون يدركون أن إدارتهم الأسترالية معرضة لخطر الطرد من نيو غينيا، ليس من الألمان، بل من اليابانيين.

جهدَ أنبياء الأحمال لفهم هذا التطور الجديد الصاعق؛ إذ أعلن أحد زعماء الديانة واسمه تاغاراب (Tagarab) أن المبشرين كانوا يخدعونهم طوال الوقت. فالمسيح كان إلهًا غير ذي شأن أما الإله الحقيقي - إله الأحمال - فهو إله محلي معروف باسم كيليبوب (Kilibob). جعل المبشرون السكان المحليين يصلّون لإينوس. لكن إينوس كان بشريًّا عاديًّا - صادف أنه أب كيليبوب الذي كان بدوره أب المسيح. كان كيليبوب على وشك معاقبة البيض على خيانتهم. كان هو والأسلاف في طريقهم، ومعهم أحمال على السفينة من الأسلحة والذخيرة ومعدات عسكرية أخرى. كانوا سيبدون كالجنود اليابانيين حين يصلون. سيُطرد الأستراليون وسيحصل الجميع على حِمْل. واستلزم الاستعداد أن يتوقف كل فرد عن الأعمال العادية، ويذبح الخنازير والدجاج ويبدأ ببناء المخازن للحِمْل.

عندما غزا اليابانيون مادانغ في كانون الأول/ ديسمبر 1942، احتفى بهم السكان المحليون على أنهم المحرِّرون. وعلى الرغم من أن اليابانيين لم يجلبوا الأحمال معهم، فإن الأنبياء فسّروا وصولهم على أنه تحقيق جزئي في الأقل لنبوءة الحِمْل. لم يحاول اليابانيون استغلالهم، بل أعطوا السكان المحليين انطباعًا بأن الأحمال تأخرت موقتًا لأسباب تتعلق باستمرار القتال - قالوا إنه بعد انتهاء الحرب ستصبح مادانغ جزءًا من منطقة الازدهار المشترك التابعة لليابان في شرق آسيا. سيحصل الجميع على حصة من الحياة الجيدة الآتية، لكن ثمّة ما يجب إنجازه من الأعمال في وقت الفراغ؛ كانت هناك ضرورة لأن يسهم السكان المحليون في هزيمة الأستراليين وحلفائهم الأميركيين. لذلك هرع السكان المحليون إلى المساعدة في إفراغ أحمال السفن والطائرات؛

مكتبة الفكر الجديد

كانوا شديدي التحمّل، وأحضروا هدايا من الخضار الطازجة. فوجئ الطيارون الأميركيون الهابطون واعتراهم الاضطراب للعداء الذي لقوه في الأحراش. فبمجرد وطئهم اليابسة أحيطوا برجال القبيلة ممن دهنوا أجسادهم فكبلوا أيديهم وأرجهلم وعلقوهم على السواري وساقوهم إلى أقرب شرطي ياباني. كافأ اليابانيون أنبياء الحِمْل بتزويدهم بسيوف ساموراي وتجنيدهم في قوات الشرطة المحلية.

لكن سرعان ما وضع تمدد الحرب حدًّا لهذه الفترة السعيدة، إذ بادر الأستراليون والأميركيون إلى قطع خطوط الإمداد اليابانية. وبسبب تدهور الوضع العسكري لليابانيين، توقفوا عن السداد في مقابل الطعام أو العمل. وعندما اعترض تاغاراب، متقلدًا سيف الساموراي خاصته، تعرض لإطلاق النار. كما بدأ «الأسلاف» بنهب حدائق السكان المحليين وبساتين جوز الهند العائدة لهم، ومزارع قصب السكر والموز. وسرقوا آخر ما بقي من الخنازير والدجاج. وعندما نفد كل ذلك، لاحقوا الكلاب وأكلوها. وعندما نفدت الكلاب، اصطادوا السكان المحليين وأكلوهم أيضًا.

وجد الأستراليون الذين استردوا مادانغ في نيسان/أبريل 1944، السكان المحليين حاقدين وغير متعاونين. وكان أنبياء الأحمال في بعض المناطق التي لم يكن لليابانيين نشاط محدد فيها، قد توقعوا مسبقًا عودة اليابانيين بأعداد أكبر من ذي قبل. ومن أجل كسب ثقة باقي السكان، بدأ الأستراليون بالتحدث عن «التنمية» في الفترة التالية للحرب. أُبلغ الزعماء المحليون بأن البيض والسود سيعيشون منسجمين في فترة السلم المقبلة. وسيحصل الجميع على سكن ملائم وكهرباء ودراجات نارية وزوارق وملابس لائقة إضافة إلى كثير من الطعام.

في غضون ذلك، عرف أكثر الزعماء المحليين علمانية وذكاء أن المبشرين كانوا بلا ريب كاذبين. كان النبي يالي (Yali) الذي سأتتبع مهماته من الآن، متعصبًا لهذه الفكرة. بقي يالي وفيًّا للأستراليين خلال الحرب وكوفئ بمنحه رتبة مساعد أول في الجيش الأسترالي . وهكذا اصطحبوه إلى أستراليا ليرى ما أرادوه أن يعتقد أنه سر الأحمال: معامل السكر ومصانع الجعة وموضع إصلاح الطائرات

مكتبة الفكر الجديد

ومستودعات المرفأ. وبينما استطاع يالي أن يرى بأمّ عينه بعض جوانب عملية الإنتاج، حيث تمكن أيضًا من معرفة أنه ليس كل من يقود سيارته ويعيش في بيت كبير كان يعمل في المعامل ومصانع الجعة. رأى رجالًا ونساءً يعملون في مجموعات منظمة، لكنه لم يدرك المبادئ الأساسية التي ارتكز عليها عملهم. لم يساعده كل ما شاهده في استيعاب السبب في عدم وصول زخات ولو ضئيلة من تلك الثروات الوافرة إلى رفاقه المحليين في الوطن.

لم تكن الطرق والأضواء أو الأبنية المرتفعة ما أثار دهشة يالي القصوى، بل كان متحف كوينزلاند وحديقة حيوانات بريسبن. امتلأ المتحف بشكل أثار دهشته بالأعمال اليدوية للسكان المحليين لنيو غينيا، بل احتوت إحدى المعروضات على القناع الاحتفالي المزخرف لأبناء شعبه من المحليين، الذي كانوا يرتدونه في الشعائر الكبيرة لبلوغ الرجولة في الأيام السالفة؛ إنه القناع ذاته الذي أطلق عليه المبشرون اسم «أفعال شيطانية». إنه الآن محفوظ خلف الزجاج بحذر، ويُقدَّس من القساوسة بعباءاتهم البيض والزوار ذوي الحلل الأنيقة المتوافدين بانتظام الذين يتحدثون بنبرة هادئة. كما وجد في المتحف صناديق احتوت على مجموعات مختلفة غريبة من عظام الحيوانات المصانة بحذر. تم أخذ يالي، في بريسبن، إلى حديقة الحيوانات، حيث رأى البيض يطعمون ويهتمون بالمزيد من الحيوانات الغريبة. وبوصوله إلى سيدني، أولى يالي اهتمامًا خاصًا بعدد القطط والكلاب التي احتفظ بها الناس حيوانات منزلية.

لم يدرك يالي إلى أي درجة كذب المبشرون على السكان المحليين إلا بعد انتهاء الحرب، وذلك في أثناء حضور مؤتمر حكومي في ميناء مورسبي، عاصمة نيو غينيا الأسترالية. فخلال أعمال المؤتمر عُرض على يالي كتاب يحوي صورًا لقرود وسعادين تتطوّر تدريجيًّا لتصبح مشابهة للبشر، وفي النهاية بزغت له الحقيقة: قال المبشرون إن آدم وحواء هم أسلاف البشر، لكن البيض يعتقدون أن القرود والكلاب والقطط والحيوانات الأخرى هي أسلافهم. وتلك تحديدًا كانت المعتقدات التي آمن بها السكان المحليون إلى أن جاء المبشرون وخدعوهم حتى انحرفوا عن وثنيتهم.

مكتبة الفكر الجديد

ثم، في أثناء نقاشه تجربته مع النبي غوريك (Gurek)، قبل يالي الاقتراح القائل إن متحف كوينزلاند هو في الواقع روما، المكان الذي أخذ المبشرون إليه آلهة نيو غينيا وأساطيرها من أجل السيطرة على سر الأحمال، وإن تم استرداد هذه الآلهة إلى نيو غينيا، ستبزغ مرحلة جديدة من الازدهار، لكن عليهم أولًا الارتداد عن المسيحية والعودة إلى ممارستهم الوثنية.

كان يالي غاضبًا من ازدواجية المبشّرين. كان مستعدًا وتوّاقًا إلى مساعدة المسؤولين الأستراليين كي يضعوا حدًّا لجميع ديانات الأحمال التي تعطي الإله أو المسيح أي أهمية.

كان في ظن حاكم الإقليم، بسبب إدراكه دور يالي في الحرب، ومعرفته ببريسبن وسيدني، وبسبب اتهاماته الواضحة للديانات، أن يالي لم يؤمن بالأحمال. طُلب من يالي مخاطبة الحشود في الاجتماعات التي تدعو إليها الحكومة. فسخِر باندفاع من معتقدات الأحمال المسيحية وأكد للجميع أن الأحمال لن تصل إلا إذا عمل الجميع بجد وأطاعوا القانون.

كان يالي مستعدًا أيضًا للتعاون مع المسؤولين الأستراليين لأنه لم يكن قد فقد الأمل من الوعود التي قُدمت إليه عندما كان في الجيش في أثناء الحرب. أولى يالي اهتمامًا كبيرًا للكلمات التي قالها مسؤول التجنيد البريسباني في عام 1943: «في الماضي، تم إبقاؤكم أيها السكان المحليون متخلفين عن الآخرين، لكن الآن إن ساعدتمونا لننتصر في الحرب ونتخلص من اليابانيين، سنساعدكم، نحن الأوروبيين، سنساعدكم في الحصول على منازل بأسقف حديد مجلفنة وجدران مدعّمة وأضواء كهربائية ودراجات نارية وزوارق وملابس جديدة، وطعام جيد. ستكون حياتكم مختلفة جدًّا بعد الحرب».

قدم الآلاف ليستمعوا إلى يالي وهو يشجب الطريق القديمة إلى الأحمال؛ بعد أن أجرى (إحماءً) لمهمّته مزوَّدًا بمنصة ومكبرات صوت، ومحاطًا بالمسؤولين المبتهجين، ورجال الأعمال البيض. فكلما شجب المعتقدات السابقة للأحمال، أدرك السكان المحليون بأن كلامه، أي يالي، يدل على معرفته بالسر الحقيقي للأحمال. عندما وصلت كلمات من هذا التفسير إلى «مدربي»

مكتبة الفكر الجديد

يالي في الحكومة، طلبوا منه أن يلقي المزيد من الخطابات ليخبر السكان المحليين أنه لم يكن أحد الأسلاف العائدين، وأنه لم يكن يعرف سر الأحمال. أقنع هذا الإنكار العلني المتكرر السكان المحليين بأن يالي إنما يمتلك قدرات خارقة للطبيعة وبأنه سيجلب الأحمال.

عندما دُعي يالي إلى ميناء مورسبي، جنبًا إلى جنب مع متحدثين محليين آخرين أوفياء، اعتقد أتباعه أنه سيعود على رأس أسطول هائل من سفن الأحمال. حتى يالي نفسه اعتقد بوجود امتيازات مهمة على وشك أن تُمنح له. توجه مباشرة إلى المدير المسؤول وسأله متى سيستلم السكان المحليون المكافأة التي وعدهم بها المسؤول في بريسبن، ومتى سيحصل الجميع على مواد البناء والآلات التي تحدث عنها الجميع. يمكن الاطلاع على رواية لورنس عن رد المسؤول على يالي المثبّتة في **الأحمال التي لها أحقية الطريق** (*Road Belong Cargo*).

تذرع المسؤول في رده بأن الإدارة كانت بالطبع شاكرة للخدمات التي قدمتها مجموعات السكان المحليين ضد اليابانيين وكانت في الواقع ستمنح الناس مكافأة حقيقية. كانت الحكومة الأسترالية تغدق المبالغ الهائلة من المال على التنمية الاقتصادية والتعليمية والسياسية وعلى تعويض أضرار الحرب، ومشروعات الخدمات الطبية والصحة والسلامة. ستكون تلك عملية بطيئة بالطبع، لكن في المحصلة سيكون السكان المحليون ممتنين لنتائج جهد الإدارة. وأما احتمال المكافأة التي تخيل يالي طبيعتها - أي صدقة مجانية ضخمة من الأحمال - لم يكن واردًا قط. كان المسؤول آسفًا، لكن تلك كانت بروباغندا وليدة لحظة خاصة وضعها مسؤولون مستهترون في زمن الحرب.

بالنسبة إلى سؤاله عن موعد تأمين الكهرباء للسكان المحليين، كان جواب المدراء أنهم سيحصلون عليها عندما يتمكنون من سداد تكلفتها، وليس قبل ذلك. وأما يالي فاستاء أيّما استياء. كذبت الحكومة بمقدار ما كذب المبشرون.

بعد عودته من مرفأ مورسبي دخل يالي في تحالف سري مع نبي الأحمال غوريك. أذاع غوريك، بحماية من يالي، كلامًا مفاده أن آلهة نيو غينيا، وليس الآلهة

مكتبة الفكر الجديد

المسيحية، كانت المصدر الفعلي للأحمال. وبالتالي يجب على السكان المحليين أن يتخلوا عن المسيحية ويعودوا إلى ممارساتهم الوثنية كي يحصدوا الثروة والسعادة. كما سيُعاد إحياء الشعائر المتوارثة، والأعمال اليدوية، وتربية الخنزير وصيده. وستؤدَّى احتفالات بلوغ الرجولة عند الذكور من جديد. كذلك ستوضع طاولات صغيرة مُغطّاة بأقمشة قطنية ومزينة بقوارير مملوءة بالزهور. كما أن تقديم الطعام والتبغ عند هذه المقامات (المستوحاة من المناظر المنزلية التي تمكن رؤيتها في المنازل الأسترالية) سيُقنع الآلهةَ الوثنية والأسلاف بإرسال الأحمال. سيجلب الأسلاف البنادق والذخيرة والتجهيزات العسكرية والأحصنة والأبقار. وسيخاطَب يالي منذ الآن على أنه الملك. وسيُستبدَل يوم الأحد بيوم الخميس، يوم ميلاد يالي ليصبح كالسبت بالنسبة إلى السكان المحليين. قال غوريك إن يالي يستطيع إنجاز المعجزات، وبأنه يستطيع قتل الناس إن بصق عليهم أو لعنهم.

طُلب من يالي نفسه بشكل متكرر القيام بجولات لقمع أتباع ديانة يالي. فاستغل هذه الفرص ليقمع الأنبياء المنافسين له ولينشئ شبكة واسعة تابعة له تحوي «صبيان الرئيس» في القرى. ففرض الضرائب والعقوبات، واستقدم العمال، وأنشأ قوات الشرطة الخاصة به. موّل يالي مؤسسته بنظام توزيع سري. وتعهد بأن يكون رجلًا زعيمًا بكل معنى الكلمة.

استمر المبشرون في حثّ المدراء على التخلص من يالي، لكن كان من الصعب عليهم إثبات أنه السبب وراء السلوك المتغطرس للسكان المحليين. وكان من الصعب أيضًا البرهنة على وجود عقيدة الأحمال، لأن أُوعِزَ إلى جميع أتباع العقيدة بأن يقسموا على أنهم لا يؤمنون بأي معتقدات تتعلق بالأحمال. أبلغ السكان المحليون أنهم في حال تجرأوا وأفصحوا عن نشاطهم المتعلق بالحِمْل، سيسرق الأوروبيون آلهة نيو غينيا لأنفسهم مرة ثانية. وفي حال سئل السكان المحليون عن الطاولات والزهور، فعليهم الإجابة أنهم رغبوا في تجميل منازلهم كما يفعل الأوروبيون. وكلما اتُّهم يالي بالتحريض على مشكلة ما، كان يعترض بأن لا علاقة له بالمتطرفين في القرى الذين قدّموا قناعاته المعلنة إلى العموم بطريقة خاطئة.

مكتبة الفكر الجديد

بعد فترة واجهت الحكومة الأسترالية ما اعتُبر ثورة مفتوحة. ففي عام 1950، أُوقف يالي وقدم إلى المحاكمة بتهم التحريض على اغتصاب حرية الآخرين وسلبها. وجُرّم وحكم عليه بالسجن لمدة ست سنوات، لكن لم تنته مهمة يالي؛ إذ استمر أتباع عقيدة يالي بمراقبة الأفق، منتظرين عودته المظفرة على رأس أسطول من التجار والسفن الحربية. وأخيرًا، في العقد السابع من القرن العشرين، مُنحت بعض الامتيازات الاقتصادية والسياسية لسكان نيو غينيا المحليين. وقام أتباع يالي بمنحه الثقة للمعدل المتزايد لبناء المدارس، وافتتاح مجالس تشريعية للمرشحين من السكان المحليين، والزيادة في الأجور، وإنهاء الحظر على تناول المشروبات الروحية.

بعد إطلاق سراحه من السجن، أعلن يالي جازمًا أن سر الأحمال يوجد في مجلس نواب نيو غينيا. وقام بمحاولة كي يُنتخب في مجلس مادانغ، ولكنه هزم. إلّا أنه، وهو رجل مسن، أصبح موضع التبجيل. فكانت «بنات الزهور» يقمن بزيارته كل عام كي يأخذن نطافه في القوارير. كما استمر الناس في تقديم الهدايا إليه، وجمعَ رسومًا من أجل تعميد المسيحيّين الذين أرادو أن يغسلوا إثم المسيحية ويعودوا إلى الوثنية.

كانت نبوءة يالي الأخيرة أن نيو غينيا ستحصل على استقلالها في 1 آب/ أغسطس 1969. واستعد لهذه المناسبة بتعيين سفراء في اليابان والصين والولايات المتحدة.

إن أي نشاط بشري سيبدو مبهمًا في حال تقسيمه جزيئات دقيقة جدًا قياسًا إلى الصورة التاريخية الكلية. وبالنظر إليه وفق مسار محدد، نلحظ أن الأحمال كانت ناجحة ومحافظة على بقائها إذا وضعنا في الحسبان النقاط الأقل مناعة لصراع عسير غير متوازن. جسدت الأحمال مكافأة في الصراع على المصادر البشرية والطبيعية في هذا الأرخبيل - القارّة. وتطابقت كل جزيئة من الغموض اللامتحضر مع جزيئة من الجشع المتحضر، وكان الكل معتمدًا على المكافآت المادية والعقوبات بدلًا من الأوهام.

مكتبة الفكر الجديد

كسائر الجماعات الأخرى، اللامتحضرة والمتحضرة، ممن كانت سلطتها وحريتها مهددتين بالغزاة، حاول شعب مادانغ أن يحمل الأوروبيين على العودة إلى بلادهم. لكن ليس منذ البدايات المبكرة، لأن سنوات كثيرة كانت قد انقضت قبل أن يظهر الغزاة رغبتهم النهمة في الأراضي البكر والعمال المحليين رخيصي الأجر. إلا أن محاولة تدمير العدو لم تتأخر طويلًا، لكن حكم عليها بالفشل، لأنه، وكما في فصول كثيرة أخرى من الصراع الاستعماري، كان الترابط بين القوات المناضلة ضعيفًا للغاية. عانى السكان المحليون في مادانغ عائقين عصيين: حاجتهم إلى الأسلحة حديثة، وتَفَتُّتهم إلى مئات القبائل والقرى العاجزة عن الاتحاد ضد عدو مشترك.

لم يتلاشَ الأمل باستعمال القوة لطرد الأوروبيين قط؛ إذ تعرض للقمع، لكنه لم يخمد. تراجع السكان المحليون، ثم تقدموا مجددًا في ما بدا خطوط تماس جنونية. عومل الغزاة على أنهم رجال زعماء متغطرسون - أقوى بكثير من أن يتم تدميرهم، لكن غير محصنين ضد الدهاء. لذلك حاول السكان المحليون أن يتعلموا لغتهم من أجل حثّ هؤلاء الرجال الزعماء على مشاركتهم في المزيد من ثروتهم، ولتلطيف شهيتهم للأراضي والعمل، وليكتشفوا أسرارهم. وهكذا بدأت مرحلة التحول عن المسيحية، والتخلي عن العادات المحلية، والخضوع للضرائب والتسخير للعمل. تعلّم السكان المحليون «الاحترام» وانخرطوا في الاستغلال الواقع عليهم.

كانت لهذه الفترة عواقب لم يقصدها ولم يتنبأ بها أي من الطرفين. جاءت القرى والقبائل المنفصلة والمعادية سابقًا لخدمة الزعيم نفسه. واتحدوا معتقدين أنه يمكن التحايل على الرجال الرؤساء المسيحيين ليقيموا دولة من الخلاص الجميل للجميع. فأصرّوا على أعادة توزيع الحِمْل. ولم يكن ذلك ما قصده المبشرون بالمسيحية. بل وتصرّف السكان المحليون تبعًا لمصلحتهم الذاتية من خلال رفضهم جعل المسيحية كما أرادها المبشرون. أصروا على دفع الأوروبيين إلى التصرف كرجال رؤساء حقيقيين؛ وعلى أن هؤلاء الذين يمتلكون الثروة مرغَمون على التخلي عنها.

مكتبة الفكر الجديد

كان الغربيون في دهشة من أمرهم لعجز المحليين المضحك عن فهم أسلوب حياة الأوروبيين الاقتصادي والديني. ما يعني أن هؤلاء المحليين متخلّفون دومًا وحمقى، أو مؤمنون بالخرافات لدرجة تحول دون فهمهم مبادئ الحضارة. وهذا بالتأكيد ما شوّه الحقائق في حالة يالي. فلم يكن الأمر أن يالي لم يفهم المبادئ المذكورة، وإنما وجدها غير مقبولة. كان معلّموه مذهولين من أن شخصًا رأى المعامل الحديثة لا يزال يؤمن [بوجود] الأحمال. لكن كلما زادت معرفة يالي بكيفية إنتاج الأوروبيين الثروة، تراجع استعداده لقبول شرحهم للأسباب التي تمنعه وشعبه من تشارك هذه الثروة. هذا لا يعني أنه فهم كيف أصبح الأوروبيون أثرياء جدًا، بل على العكس، كان آخر ما رشح عنه أنه كان يعمل على نظرية مؤداها أن غنى الأوروبيين نتج من بناء بيوت الدعارة. لكنه كثيرًا ما تمتع بحسّ قوي بأن عليه دحض تفسيرات الأوروبيين النموذجية، أي «العمل بجد» لأنها خدعة محسوبة. كما يمكن للمرء ملاحظة أن الرجال الزعماء الأوروبيين – المغايرين لنماذجهم البدائية من السكان المحليين – نادرًا ما يقومون بعمل شيء على الأطلاق.

كان يالي يفكر في الكون على أنه يكاد يكون حكرًا على العقل الوحشي. تمتع المبشرون المسيحيون في البحار الجنوبية، كما في المناطق الاستعمارية الأخرى، بانتداب افتراضي لا يقبل المهادنة بحجة تأمين التعليم للسكان المحليين. لم تكن هذه البعثات تتعلق بنشر الأدوات الفكرية للتحليل السياسي؛ لم تصدر تعليمات تخص نظرية الرأسمالية الأوروبية، ولم تعتمد تحليلًا للخطة الاقتصادية الاستعمارية، بل عوضًا عن ذلك، قدموا عظاتهم عن الخلق والأنبياء والرؤى والملائكة والمخلّص المنُتظر وخلاص البشرية الخارق للطبيعة وإعادة البعث والملكوت السرمدي، حيث سيجتمع من جديد الأحياء والأموات في أرض الملذات.

كان على هذه الأفكار – المشابهة بشكل دقيق جدًّا لِثيمات نظام للمعتقدات الأصلية – أن تصبح، بشكل غير قابل للإنكار، عبارة اصطلاحية استُعملت للتعبير عن ممانعة الحشود للاستغلال الاستعماري. كانت «البعثة

مكتبة الفكر الجديد

المسيحية» رحمًا للثورة. كما تكفّل الأوروبيون بأنفسهم، من خلال قمعهم لأي شكل من أشكال الاضطرابات المفتوحة والصدامات والاتحادات أو الأحزاب السياسية، الفوز بالأحمال. كان من السهولة ملاحظة كذب المبشرين حين قالوا إن الأحمال ستُمنح فحسب للذين يعملون بجد. لكن ما كان عصيًّا على الاستيعاب هو وجود رابط دقيق بين الثروة التي يتمتع بها الأستراليون والأميركيون وعمل السكان المحليين. فلولا انخفاض أجر عمل السكان المحليين، وتجريد السكان المحليين من أراضيهم، ما كانت القوات الاستعمارية لتصبح بهذا الغنى الشديد. بالتالي كان للسكان المحليين، بمعنى ما، حق في منتوجات الدول الصناعية على الرغم من عدم تمكّنهم من دفع ثمنها. وكان الحِمْل طريقتهم في التعبير عن الأمر. وهنا، في ما أعتقد، يكمن سرّه الحقيقي.

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Berndt, Ronald M. & Peter Lawrence (eds.). *Politics in New Guinea*. Nedlands: University of Western Australia Press, 1971.

Berndt, Ronald M. «Reaction to Contact in the Eastern Highlands of New Guinea.» *Oceania*. vol. 23 (1952), pp. 190-228, 255-274.

Christansen, Palle. *The Melanesian Cargo Cult: Millenarianism as a Factor in Cultural Change*. Copenhagen: Akademish Forlag, 1969.

Cochrane, Glyn. *Big Men and Cargo Cults*. Oxford: Clarendon Press, 1970.

Guiart, Jean. «John Frum Movement in Tana.» *Oceania*. vol. 22 (1951), pp. 165-175.

Hobsbawn, E. J. *Primitive Rebels*. New York: W. W. Norton, 1965.

Lanternari, Vittorio. *The Religions of the Oppressed*. New York: Knopf, 1963.

Lawrence, Peter. *Road Belong Cargo*. Manchester: Manchester University Press, 1964.

Pacific Islands Monthly (July 1970- April 1972).

Thurpp, Sylvia (ed.). *Millennial Dreams in Action*. The Hague: Mouton and Co., 1962.

Worsley, Peter. *The Trumpet Shall Sound: A Study of «Cargo» Cults in Melanesia*. New York: Schocken Books, 1968.

مكتبة الفكر الجديد

المُخلِّصون

مكتبة
الفكر الجديد

أنا على يقين أنكم لاحظتم أوجه الشبه بين معتقدات الأحمال (cargo cults) والمعتقدات المسيحية المبكرة. تنبأ يسوع الناصري بسقوط الشر، وبالعدالة من أجل الفقراء، وبنهاية البؤس والمعاناة، وبإعادة التوحد مع الأموات، وبمملكة القديسين الجديدة الكاملة. وهذا ما فعله يالي. هل يمكن للغز شبح البضائع أن يساعدنا في فهم الأوضاع المسؤولة عن منشأ أنماط الحياة الدينية الخاصة بنا؟

يبدو أنّ هناك بعض الفروق المهمة. كُرّست معتقدات الأحمال لإسقاط نظام سياسي خاص ومستقر، وإنشاء مملكة في مكان محدد على الأرض. يتوقع السكان الأصليون أن يعود الموتى إلى الحياة كجنود في لباس موحد يحملون الأسلحة لمواجهة رجال الشرطة والقوات المرابطة في نيو غينيا. ولم يكن يسوع الناصري مهتمًّا بإسقاط أي نظام سياسي محدد؛ كان فوق السياسات، ومملكته «ليست من هذا العالم». عندما تكلم المسيحيون الأوائل عن «المعركة» ضد الشر، كانت «سيوفهم» و«نيرانهم» و«انتصاراتهم» مجرد استعارات أرضية لحوادث روحية متسامية. في الأقل هذا ما يؤمن به كل شخص تقريبًا، وأنّ ثقافة يسوع الأصلية كانت تتمحور كلها حول ذلك.

لعله من المستحيل بالنسبة إلى نمط حياة غيبي في أساسه إلى هذه الدرجة، ومكرّس إلى هذه الدرجة للسلام والحب والإيثار، أن يكون بأي معنى جوهري نتاجًا لشروط مادية محددة. وما زال هذا اللغز، مثل الألغاز الأخرى كلها، يتلمس الحل في القضايا العملية للشعوب والأمم.

في الواقع هناك لغزان يحتاجان إلى الدراسة. ظهرت المسيحية أولًا بين اليهود القاطنين في فلسطين. وكان الإيمان بمجيء الفادي الذي يدعى المخلِّص - وهو رب على شاكلة رجل - المَعْلم البارز لليهودية في زمن

مكتبة الفكر الجديد

يسوع. وآمن أتباع يسوع الأوائل، وجلهم من اليهود، بأن يسوع هو هذا الفادي. (اشتقت كلمة «المسيح» من كلمة كريستوس (krystos) التي كانت طريقة اليهود للإشارة إلى أملهم بالمنقذ عند التحدُّث باليونانية). ولحلّ لغز نمط الحياة المسيحي المبكر، سوف أشرح أولًا الأساس الذي يقوم عليه إيمان اليهود بالمخلِّص.

تؤمن الشعوب القديمة كلها، كما معظم الشعوب الحديثة، بأنّه لا يمكن الفوز بالحروب من دون مساعدة إلهية. فكي تكسبوا إمبراطورية، أو أن تحظوا بمجرد البقاء دولة مستقلة، فإنكم تحتاجون إلى محاربين كان الأسلاف أو الملائكة أو الأرباب راغبين في التعاون معهم.

زعم داوود، مؤسس أول إمبراطورية يهودية وأكبرها، أن علاقة شراكة مقدسة تربطه مع الربّ اليهودي يهوه. سمّى الناس داوود بالمخلِّص (بالعبرية: mashia)، وهو المصطلح الذي يُطلق أيضًا على الكهنة والتّروس وجدّ داوود شاؤول وابن داوود سليمان. وهكذا، فإن مصطلح المخلِّص ربما كان يعني في الأصل أي شخص أو أي شيء يمتلك قداسة عظيمة وقوة دينية. وكان داوود يُدعى أيضًا الشخص الممسوح (Anointed one) الذي كان مخوَّلًا، بالتعاون مع يهوه، بأن يحكم ممالك اليهود الأرضية كلها.

سُمّي داوود عند ولادته الحنان بن يسي. وأُطلق عليه اسم داوود، الذي يعني «القائد العظيم»، تخليدًا لانتصاراته في ميدان المعارك. وقدّم صعوده إلى السلطة من البدايات المتواضعة الإلهامَ الرئيس - غاية الحياة - لأجل المسيرة اليهودية الحربية - الخلاصية المثالية. وُلد داوود في بيت لحم وقضى فترة شبابه كراع. وفي ما بعد، أصبح زعيمًا خارجًا على القانون لعصابة في صحراء يهودا. واتّخذ من كهف مقرًّا لقيادته، وأحرز انتصاراته ضد خصم لا يقهر على ما يبدو؛ تلخّص بالقتال ضد جالوت (Goliath).

أصرّ الكهنة اليهود حتى زمن يسوع أن يهوه أقام عهدًا مع داوود. ووعد يهوه بأن سلالة داوود الحاكمة لن تنتهي أبدًا. لكن إمبراطورية داوود في

مكتبة الفكر الجديد

الواقع بدأت تتقوّض بعد فترة وجيزة من موته. واختفت موقتًا عندما استولى نبوخذنصّر على أورشليم في عام 586 قبل الميلاد ونفى أعدادًا كبيرة من اليهود إلى بابل. بعدئذ استعادت الدولة اليهودية وجودها العابر كونها تابعًا مرتبطًا بهذه القوة الإمبراطورية أو تلك.

خاطب يهوه موسى: «أنت سوف تحكم أممًا كثيرة لكنهم لن يحكموك». وكانت أرض يهوه الموعودة لا تزال بقعة بعيدة المنال ومنها سيكون الانطلاق إلى فتح العالم. لغرض بعينه، كانت هناك الطريق الحربية العريضة - الرواق الرئيس، التي على امتدادها طاردت الجيوش الإمبراطورية كلها الآسيوية والأفريقية والأوروبية بعضها بعضًا إلى مصر ومنها. وقبل أن يتجذر أي نمو إمبراطوري طبيعي في فلسطين، وأُخمد بوساطة بضعة ملايين من أقدام لجيش عابر في هذا الاتجاه أو ذاك. واجتاح المصريون والأشوريون والبابليون والفرس والإغريق والرومان الأرض المقدسة في ذهابهم وإيابهم، وغالبًا ما أحرقوا المكان نفسه مرتين قبل أن يخضعوا للتالي المقبل على الطريق.

تركت هذه التجارب ضغطًا كبيرًا على مصداقية كتب يهوه المقدسة وباقي كهنوته. لماذا سمح يهوه لكثير من الأمم أن تصبح عظيمة على هذه الصورة بينما كان شعبه المختار محتلًا ومستعبدًا مرات عدة؟ ولماذا لم يحافظ يهوه على وعده لداوود؟ كان ذلك اللغز العظيم الذي استمر رجال الدين والأنبياء اليهود في محاولة فك شيفرته.

كان جوابهم: لم يفِ يهوه بوعده لداوود لأن اليهود لم يفوا بوعودهم ليهوه. انتهك الناس القوانين المقدسة ومارسوا طقوسًا نجسة. ارتكبوا الآثام وكانوا مذنبين وتسببوا بخرابهم، لكن يهوه كان ربًّا رحيمًا وسيبقى محافظًا على وعده إذا استمر اليهود، وعلى الرغم من العقوبة التي شملتهم، بالإيمان بأنه كان الربّ الحقيقي الوحيد. ومن خلال الاعتراف بما فعلوه، ومن خلال الندم وطلب المغفرة، يمكن أن يكفّر الشعب عن ذنوبه وسوف يعيد يهوه العمل بالعهد، وينقذهم ويخلصهم ويجعلهم أعظم ممّا كانوا عليه في أي وقت مضى. وبصورة سرية، وعندما يكتمل التكفير - في لحظة معلومة لدى يهوه وحده -

مكتبة الفكر الجديد

سوف ينتقم لشعبه. سوف يبعث يهوه أميرًا مسلّحًا آخر مثل داوود، مخلِّصًا، ممسوحًا ليدمر الأمم العدوة. ستخاض المعارك العظيمة، وستجيش الأرض كلها لتصادم الجيوش وسقوط المدن. سوف يكون ذلك نهاية عالم وبدء عالم آخر. وبالنسبة إلى يهوه، لن يكون له أن يجعل اليهود ينتظرون ويعانون من دون أن يكون في نيّته منحهم مكافأة أعظم من أي مكافأة عرفها الإنسان من قبل. وهكذا، يحفل العهد القديم بالأنبياء المفتدين - أشعيا وإرميا وحزقيال وميخا وزكريا وآخرين - وكلهم يلحّون أو يقبلون تبنّي نمط حياة حربي - مسيحي.

يتحدث أشعيا وهو «ناصح رائع، وربّ قدير، وأب أبدي، وأمير السلام» الذي سيحكم أبد الدهر على عرش داوود. هذا المنقذ سوف يسحق الأشوريين «مثل وحل الشوارع»؛ ويحيل بابل مدينة قاحلة مسكونة بالبوم والغيلان و«المخلوقات الكئيبة الأخرى»؛ ويجعل شعب موآب «أصلع وأمرد، ويحيل دمشق إلى كومة من الركام»، ويحرض مصر للوقوع في حرب أهلية، «كل واحد ضد جاره، وكل مدينة ضد مدينة، وكل مملكة ضد مملكة».

استحضر إرميا قولًا ليهوه: «في تلك الأيام وفي ذلك الوقت، سأكون سبب نمو (فرع البرّ) حتى داوود؛ وهو سوف يُقيم العدل والصلاح في الأرض». وعندئذ «السيف سيبيد المصريين، وهو سوف يشبع ويصنع من دمائهم شرابا». والفلسطينيون «سوف يصرخون، وكل سكان الأرض سوف يولولون». من موآب «سوف يرتفع بكاء متواصل». سوف تصبح عمّون (Ammon) «ركامًا مدمّرًا وسوف تُحرق أخواتها في النار». سوف تكون أدوم (Edom) «خرابًا». في دمشق «سيسقط الشبان في شوارعها». سوف تصبح حاصور (hazor) «مأوى للتنانين». وستكون عيلام (Elam) «مُبادة بالسيف»، كما بالنسبة إلى بابل: «يأتون ضدّها من كل حدب وصوب، وتُفتح مخازنها؛ وتُرمى كركام وتُدمَّر عن بكرة أبيها ولا يبقى منها شيء».

كما تحدّث سِفر دانيال - المكتوب حوالى 165 قبل الميلاد، عندما كانت فلسطين محكومة من الإغريق السوريين - عن الافتداء الحربي - المسيحي من ممسوحٍ، الأمير الذي يمشي قدمًا نحو إمبراطورية اليهود العظمى: «رأيت

مكتبة الفكر الجديد

رؤى ليلية، ولمحت ابن الإنسان يأتي مع غيوم السماء... وهنا مُنح له الحكم، والمجد، والمملكة، وإنّ كل الشعوب والأمم واللغات سوف تخدمه... حاكم إلى الأبد... مملكة لن تُدمَّر».

إن ما يجعل معظم الناس يفشل في إدراك ماهية النبوءات الانتقامية هو أنهم كانوا مرتبطين بحروب تحرير فعلية، تُشن بقيادة المخلِّصين المنتَظرين في الحياة الحربية الواقعية. تتمتع هذه الحروب بالدعم الشعبي لأنها لم تساعد في استعادة الدولة اليهودية وحسب، بل لأنها وعدت أيضًا باستبعاد المظالم الاقتصادية والاجتماعية التي فاقمها الحكم الأجنبي إلى ما يفوق القدرة على التحمل.

على غرار عقيدة الأحمال، وُلدت ثقافة المخلِّص المنتقم وأعيد إنتاجها باستمرار خارج الصراع الهادف لإسقاط المنظومة الاستغلالية للاستعمار السياسي والاقتصادي. في هذه الحالة وحسب، كان السكان الأصليون - اليهود - من الناحية الحربية أكثر من ندٍّ للفاتحين، وكانوا تحت قيادة جنود - أنبياء متعلمين، الذين استعادوا ذكرى الزمن الغابر عندما حكم «الأسلاف» إمبراطوريتهم الخاصة بهم.

خلال فترة الحكم الروماني، إذا كان يمكن القول عن أي نمط حياة إنه الأكثر روعة في فلسطين، فإنه نمط حياة المخلِّص الحربي المنتقم. فباستيحاء نموذج انتصار داوود على جالوت ووعد الافتداء الحربي - المسيحي لداوود، خاضت العصابات اليهودية صراعًا متواصلًا ضد الحكام الرومان والجيش الروماني. وتطورت ثقافة المخلِّص المسالم - نمط حياة يسوع وأتباعه - في غمرة حرب العصابات هذه وفي المقاطعات الفلسطينية ذاتها التي كانت المراكز الرئيسة لنشاط المتمردين، في تضاد تام على ما يبدو مع تكتيكات قوى التحرر واستراتيجياتهم.

فشلت الأناجيل المسيحية في تفسير، أو حتى ذكر، علاقة المسيح بصراع التحرر اليهودي. ولن تعرفوا من خلال الأناجيل وحدها أبدًا بأن يسوع قضى معظم حياته في المسرح المركزي لإحدى انتفاضات حرب العصابات الرهيبة

مكتبة الفكر الجديد

في التاريخ. وأقل وضوحًا أيضًا بالنسبة إلى قراء الأناجيل هو أن هذا الصراع استمر بالتفاقم أمدًا طويلًا بعد إعدام يسوع. لن تخمنوا أبدًا أنه في عام 68 بعد الميلاد ذهب اليهود إلى مرحلة الثورة العارمة التي تطلّبت التعامل معها من قبل ستة فيالق رومانية بقيادة اثنين من أباطرة الرومان المستقبليين قبل أن يتم إخمادها. لكن ما لم يمكنكم أن تتوقعوه تقريبًا هو أن يسوع نفسه مات ضحية لمحاولة الرومان تدمير الوعي الحربي – المسيحي للثوار اليهود.

بصفتها مستعمرة رومانية، عانت فلسطين الأعراض التقليدية الاقتصادية والسياسية كلها لسوء الحكم الاستعماري. وكان اليهود الذين احتلوا مواقع مدنية أو دينية مرموقة، دمى أو عملاء. كما عاش كبار الكهنة وملاّك الأراضي الأغنياء والتجار في بذخ شرقي، بخلاف الكتلة السكانية المؤلفة من أولئك الذين لا يمتلكون الأراضي، والفلاحين المنفيين والمُفقرين من تراكم الديون، أو الحرفيين العاطلين عن العمل، والخدم والعبيد. ورزحت البلاد تحت وطأة الأملاك المصادَرة بوصفها ضرائب والفساد الإداري والرسوم الاعتباطية وأعمال السخرة والتضخم المتسارع. وعاش ملاك الأراضي في نعيم في أورشليم بينما تحمّل أجراؤهم ضريبة مقدارها 25 في المئة فرضها الرومان على المنتوجات الزراعية، علاوة على نسبة الـ 22 في المئة كحق انتفاع مزعوم من الهيكل. كانت كراهية فلاحي الجليل لأرستقراطية أورشليم واضحة ومتبادلة بصورة خاصة. ففي الشروحات التلمودية، نُصح اليهود الحقيقيون بألا يزوِّجوا بناتهم من «شعب الأرض»، كما كان يُطلق على فلاحي الجليل، «لأنّهم حيوانات غير نظيفة. وأوصى الحبر أليعازر متهكِّمًا بذبح هذه الأنواع حتى في أكثر أيام السنة قداسة، حيث لا يمكن أن يُقتل أي من الحيوانات. وقال الحبر يوحانان: «يمكن للمرء أن يمزق أحد العوام إلى أجزاء مثل سمكة، بينما قال الحبر أليعازر: «إنّ عداوة الشخص العامي للعالِم هي أكثر شدة حتى من تلك التي يشعر بها الوثني نحو الإسرائيليين».

ذهبت الحماسة الشعبية للمثال الحربي – الخلاصي أبعد من الرغبة في رؤية القوميين اليهود يحلّون محل الدمى الأجنبية. وأراد الجليليون إحياء

مكتبة الفكر الجديد

مملكة داوود لأن الأنبياء قالوا إن المخلِّص سوف ينهي الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي ويعاقب الكهنة الأشرار وملاك الأراضي والملوك. هذا الموضوع كان مذكورًا في سِفر أخنوخ[1] (Enoch):

«الويل لك، أيها الغني، لأنك آمنت بثرواتك، ومن ثرواتك سوف تُمزَّق من غير تردد... الويل لك، يا من جازيت جارك بالشر، بسبب ذلك سوف تُحاسب حسب أعمالك. الويل لك، أنت تستلقي منتظرًا... لكن لا تخف، يا من تعاني، لأن الشفاء سوف يكون من نصيبك».

تنطوي جدلية مملكة يهوه بالضرورة على مجمل الخبرة الإنسانية. وكما في حالة عقيدة الأحمال، كانت المكونات الدينية والدنيوية كلًّا لا يتجزأ، من حيث إنها الموضوعات «العالمية» والغيبية التي لم تكن منفصلة. كانت السياسة والدين والاقتصاد ملتحمة بعضها مع بعضها الآخر؛ وكانت السماء والأرض مشوشتين، وكانت الطبيعة متزوجة من الرّب. في هذا الكون الجديد، سوف تكون الحياة مختلفة كليًّا؛ كل شيء سينقلب رأسًا على عقب. اليهود سيحكمون والرومان سيخدمون. الفقير سيصبح غنيًّا، والملعون سيعاقب، والمريض سيشفى، ويعود الميت إلى الحياة.

بدأ اليهود حربهم ضد روما قبل فترة وجيزة من تنصيب هيرودس (Herod) العظيم ملكًا دمية من مجلس الشيوخ الروماني. في بداية الأمر، كانت العصابات معروفة لدى الرومان والطبقة اليهودية الحاكمة على أنهم مجرد قطّاع طرق (باليونانية: Lestai). لكن قطاع الطرق هؤلاء لم يكونوا مذنبين كثيرًا في ما يتعلق بارتكاب السرقات بوصفها خططًا موجهة ضد ملاك الأراضي المتغيبين وجامعي الضرائب الرومان. المصطلح الآخر الذي أُطلق على مقاتلي

(1) الشخصية المذكورة في التوراة، أي أنوش، لها ترجمات عدة في اللغة العربية. فمنهم من سموه «أنوخ: وآخرون أطلقوا عليه اسم «أخنوخ» و«إنوك» وذلك بحسب اللغة المترجمة منه. لكن الترجمة من الاسم الأصلي في العبرية (أنوش) يصبح «أنس» في العربية؛ إذ يستبدل السين بالشين بين اللغتين وعادة تفتح ضمة العبرية في اللغة العربية. أما في الإسلام فيعتبره بعضهم هو النبي إدريس نفسه. وقد ترجم بعضهم اسمه إلى «أنس الله».

مكتبة الفكر الجديد

العصابات كان «المتعصبون» (zealots) أو الغيورون - للإشارة إلى حميّتهم للقانون اليهودي والوفاء لعهد يهوه.

لا يمكن أن يعبّر مصطلح ما بحد ذاته عما كان يفعله هؤلاء الناشطون. إنهم مجرد قطّاع طرق متعصبين - عصابات - وإنّ مآثرهم يمكن أن ترتبط بالسياق اليومي المبتذل لعالمهم. واعتقدت عصابات قطاع الطرق هذه بأنها، وبمساعدة المخلِّص، سوف تتمكن من الإطاحة بالإمبراطورية الرومانية. لم يكن إيمانها محض مزاج؛ بل كان أمثلة ثورية عملية تتضمن التضييق والتحرّش والنهب والاغتيال السياسي والإرهاب وإبداء التحدي الذي ينتهي بالموت. كان بعضهم متخصّصًا بتكتيكات العصابات المدنية ويطلق على أعضائها «رجال الخناجر» (باللاتينية: Sicarii)؛ بينما عاش الباقون في الريف، في الكهوف والمخابئ الجبلية معتمدين على الفلاحين في الطعام والحماية.

إنّ أي وصف للحوادث الحربية والسياسية في فلسطين خلال القرن الأول بعد الميلاد يجب أن يستند بصورة كبيرة إلى كتابات أحد المؤرخين الكبار في العالم القديم، فلافيوس يوسيفوس. ولأن القضايا التي أنا بصدد الخوض فيها هي على الأرجح غير شائعة، دعوني أقل كلمة بخصوص مصداقية هذا المصدر. كان يوسيفوس معاصرًا لكتّاب الأناجيل المسيحية الأولى. حظي كتابان من كتبه: **الحرب اليهودية والآثار اليهودية العتيقة**، بتقدير العلماء باعتبارهما لا يقلّان أهمية عن الأناجيل نفسها بالنسبة إلى تاريخ فلسطين في القرن الأول. عرفنا بصورة لا لبس فيها من هو يوسيفوس وكيف توصل إلى تدوين كتابيه - تلك المعرفة التي لا نمتلكها في ما يتعلق بمؤلفي الأناجيل. وُلد يوسيفوس المعروف باسم جوزيف بن متياس في عام 37 بعد الميلاد في عائلة يهودية من الطبقة العليا. وفي عام 68 بعد الميلاد، عندما بلغ من العمر 31 عامًا فقط، أصبح حاكمًا للجليل وقائدًا في جيش التحرير اليهودي في أثناء الحرب ضد روما. وبعد تصفية أتباعه في حصار يوتاباتا (يودفات) (Jotabata)، استسلم يوسيفوس ومثل أمام فسباسيان، القائد الروماني، وابن فسباسيان تيتوس. عند ذلك، أعلن يوسيفوس أنّ فسباسيان

مكتبة الفكر الجديد

كان المخلِّص الذي انتظره اليهود، وأنّ كلًّا من فسباسيان وتيتوس سوف يصبح إمبراطوري روما المقبل.

أصبح فسباسيان بالفعل إمبراطورًا لروما في عام 69 بعد الميلاد، ومكافأةً لكلماته التنبؤية، اصطُحب يوسيفوس إلى روما كونه جزءًا من حاشية الإمبراطور الجديدة. ومُنح المواطنية الرومانية، وجناحًا سكنيًّا في القصر الإمبراطوري، وراتبًا تقاعديًّا على أساس الدخل من المزارع التي صادرها الرومان غنائمَ حربية في فلسطين.

أمضى يوسيفوس باقي حياته في تأليف الكتب، شارحًا أسباب ثورة اليهود ضد روما، ولماذا انحاز هو نفسه إلى جانب الرومان. وهو يكتب في روما لأجل القرّاء الرومان – وكثير منهم، بمن فيهم الإمبراطور، كانوا شواهد العيان على الحوادث الموصوفة – لا يبدو أنّ يوسيفوس فبرك الوقائع الأساسية من تاريخه. أما التحريف الذي لوحظ فيعود إلى الأساليب الواضحة لرغبة يوسيفوس في ألا يُصنَّف خائنًا، ويمكن بسهولة إسقاطه من دون إضعاف مصداقية السرد الرئيس.

تبين الحوادث المروية من يوسيفوس بجلاء أنّ نشاط العصابات ووعي اليهود الحربي – الخلاصي صعد وهبط في موجات متلاحقة؛ إذ كانت الأرض الموعودة المغبرَّة وذات الشمس الحارقة حافلة بالرجال المقدسين الجوّالين، مرتدين الأثواب الغرائبية لذوي الوحي، الذين تكلموا بالأمثال والقصص الرمزية وأطلقوا نبوءاتهم حول المعركة المقبلة لحكم العالم. وكان قادة العصابات الناجحون ملهمين لمطلقي الإشاعات التي ازدهرت في ضوء التأملات الخلاصية المتجددةَ بصورة دائمة. خطا تيار متدفق من القادة الملهمين إلى الأمام بهدي التاريخ ليدعوا إلى الخلاصية؛ وثمة اثنان منهم في الأقل ألحّا على العصيان المسلح الذي هزّ الإمبراطورية الرومانية بالفعل.

كان هيرودس الكبير أول من لفت حُماته الرومان لأنّه قاد حملة عسكرية عنيفة ضد زعيم عصابة قطاع طرق كان قد سيطر على مقاطعة كاملة شمال الجليل. ووفقًا ليوسيفوس، قبض هيرودس على زعيم العصابة هذا، الذي كان

مكتبة الفكر الجديد

اسمه حزقيا، وأعدمه في المكان. لكننا نعرف أن حزقيا كان في الواقع قائدًا في حرب العصابات أكثر من كونه لصًّا عاديًّا لأن المتعاطفين مع قطاع الطرق في أورشليم كانوا أقوياء بما يكفي لإجبار هيرودس على الخضوع للمحاكمة على جريمة القتل هذه. وتدخل ابن عم يوليوس قيصر للحصول على إطلاق سراح هيرودس، وأوصاه بتعيينه ملكًا دمية على اليهود في عام 39 قبل الميلاد.

استمر هيرودس بقتال المزيد من قطّاع الطرق كي يعزز سيطرته على فلسطين كلها. وأعلن يوسيفوس أن «قطاع الطرق اجتاحوا جزءًا كبيرًا من البلاد، مسببين كثيرًا من البؤس للسكان كما في كل حرب». وهكذا تولى هيرودس أمر المعركة في الميدان ضد قطّاع الطرق في الكهوف. وعندما حُوصروا في الداخل، عادوا لاصطحاب عائلاتهم، ورفضوا الاستسلام. ووقف أحد قطاع الطرق في فوهة كهف لا يمكن الوصول إليه، وعلى مرأى واضح من هيرودس، قتل زوجته وأطفاله السبعة جميعهم و«ذهب إلى حد السخرية من هيرودس»، قبل أن يلقى حتفه، محدّثًا نفسه «أنا الآن سيد الكهوف وقاطنيها». ثم غادر هيرودس قاصدًا السامرة. لكن مغادرته أزالت العقبات كلها من أمام «مثيري الاضطرابات العاديين في الجليل» الذين كانوا قد قتلوا للتو قائدًا رومانيًّا يدعى بطليموس و«نهبوا البلاد بصورة منهجية، متخذين من المستنقعات والأماكن الأخرى التي لا يمكن بلوغها مأوى لهم».

بعد موت هيرودس في السنة الرابعة قبل الميلاد اندلعت الانتفاضات في المناطق النائية كلها. واستولى ابن حزقيا، يهوذا الجليل، على ترسانة ملكية. غير أنه ظهر في بيريا (Peraea) في الجانب الآخر من الأردن، وفي الفترة نفسها، عبدٌ اسمه شمعون «أحرق القصر في أريحا وكثيرًا من المساكن الفخمة في البلاد». وظهر ثائر ثالث، كان في ما مضى راعيًا يدعى أثرونجيوس (Athrongaeus)، و«نصّب نفسه ملكًا»؛ وهي على الأرجح طريقة يوسيفوس في القول إنّه اعتُبِر مخلّصًا من أتباعه. وقبل أن يقتل الرومان أثرونجيوس وأربعة من أخوته، واحدًا تلو الآخر، نجح قطّاع الطرق هؤلاء «بإنهاك يهودا كلها بلصوصيتهم». واستعاد فاروس (Varus)، الحاكم الروماني لسوريا، القانون

مكتبة الفكر الجديد

والنظام، واعتقل 2000 من قادة العصابات وصلبهم جميعًا. حصلت هذه الحادثة في العام الذي وُلد فيه يسوع.

سرعان ما برز يهوذا الجليل زعيمًا لقوات العصابات الرئيسة. يقول يوسيفوس إنّه «طمح للوصول إلى كرسي الملكية»، كان ذلك في الأوقات المميزة له وهو «حَبر شديد الفطنة». وفي العام السادس بعد الميلاد حاول الرومان إجراء إحصاء رسمي للسكان، فأهاب يهوذا برجاله في البلد إلى المقاومة لأنّ الإحصاء سوف يؤدي إلى «ما لا يقل عن عبودية كاملة». وحمل يوسيفوس على القول إنّ «اليهود لا ملك لهم سوى يهوه». وبالتالي لن تُدفع الضرائب للرومان» و«سوف يساعدهم يهوه بالتأكيد إن كان لديهم إيمان بقضيتهم». وكتب يوسيفوس أنّ أولئك الذين حضّروا للخضوع لروما كانوا يعامَلون أعداء: لقد سيقت ماشيتهم وحُرقت دُورهم.

لم تبقَ أي معلومات متعلقة بكيف ومتى لاقى يهوذا الجليل مصيره. فلسنا نعلم سوى أنّ أبناءه استمروا في الكفاح. صُلب اثنان منهم، وادّعى آخر الخلاصية في بداية ثورة الأعوام 68-73. كانت حركة المقاومة الأخيرة في تلك الحرب هي الدفاع المستميت عن حصن مسعدة الذي قاده سليل آخر ليهوذا الجليل.

بدأ يسوع الدعوة إلى مبادئه الخلاصية بشكل نشيط في حوالى عام 28 بعد الميلاد. في هذه الأثناء، اندلعت «حرب الرُّماة» (shooting war)، ليس في الجليل فحسب، بل في يهودا وأورشليم أيضًا. لم تكن ثقافة يسوع الأكثر انتشارًا ولا الأكثر تهديدًا مقارنةً بالمواقف الثورية التي كان بيلاطس الحاكم الروماني الذي وقّع على موت يسوع يعتزم التصدي لها. فعلى سبيل المثال، يسهب يوسيفوس في وصف مظهر رعاع المدينة القبيحين المحتشدين الآتين من أنحاء البلاد عندما انتهك بيلاطس حرمة الصور اليهودية المحفورة في القدس. في ما بعد، كان بيلاطس محاطًا برعاع آخرين محتجين على سوء استعمال الموارد المالية للهيكل من أجل بناء القناة. نعلم من خلال الأناجيل بأنّ يسوع نفسه قاد حملة على الهيكل، وأنّ ما يشبه الانتفاضة قد اندلع قبل فترة وجيزة من محاولة

مكتبة الفكر الجديد

يسوع، إذ إن قاطع الطريق المعروف القائد باراباس وعددًا من رجاله كانوا في السجن في هذه المرحلة.

استمر الرومان، بعد مقتل يسوع، في تطهير ريف يهودا من «قطّاع الطرق». وكتب يوسيفوس أن زعيمًا كبيرًا آخر من قطّاع الطرق يدعى ثولومايوس ألقي القبض عليه في عام 44 بعد الميلاد. ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت في الصحراء شخصية خلاصية تدعى ثيوداس؛ إذ تخلّى أتباع هذه الشخصية عن بيوتهم وأملاكهم وتجمعوا على ضفاف نهر الأردن. قال بعضهم إنّ ثيوداس أراد أن يوزِّع المياه كما فعلوا في يوشع، وقال آخرون إن هذا المخلِّص ذهب في طريق أخرى، غربًا، نحو القدس. لا فرق - حيث أرسل الحاكم الروماني كسبيوس فادوس سلاح الفرسان، فقطعوا رأس ثيوداس وذبحوا أتباعه.

في أثناء عيد الفصح اليهودي في عام 50 بعد الميلاد رفع جندي روماني سترته وأخرج ريحًا أمام حشد من الحجاج ومتعبدي الهيكل، «قُيّد صاحب الفعل الناقص على أيدي الشبان واندفعت الجموع الهائجة من الشعب بصورة عفوية إلى المعركة»، كتب يوسيفوس: استُدعيت كتيبة مشاة رومانية ضخمة، فأحدثت ذعرًا هائلًا أدى، بحسب يوسيفوس، إلى موت 30 ألف شخص سحقًا تحت الأقدام (بعضهم يقول إنّه يعني على الأرجح ثلاثة آلاف). تزامن هجوم يسوع على الهيكل مع حجّة عيد الفصح اليهودي في عام 33 بعد الميلاد. كما سوف نرى، دفع القلق من ردّة فعل رعاع الحجاج مثل هؤلاء الذين قضوا في حادثة الذعر في عام 50 بعد الميلاد، السلطات اليهودية والرومانية للانتظار حتى أرخى الليل سدوله لأخذ يسوع إلى السجن.

ثم تطور الأمر إلى ما يشبه ثورة شاملة في عام 52 بعد الميلاد بزعامة أليعازر بن دينايوس، وهو من «قطّاع الطرق الثوريين» الذين كانوا في الجبال لمدة تقارب العشرين عامًا. ردَّ عليها الحاكم كومانوس بأن «جمع أتباع أليعازر، وقتل كثيرًا منهم». لكن الشغب انتشر «وعمّت أعمال السلب كامل أرجاء البلد وارتفعت الروح المعنوية الجريئة لتتحول إلى ثورة». وحينئذ تدخل موفد سوري، فقطع رؤوس ثمانية عشر من الأنصار، وصلب جميع

مكتبة الفكر الجديد

المساجين الذين جمعهم كومانوس. ثم سحقت الثورة في نهاية المطاف على يد حاكم جديد هو فيلكس الذي قبض على أليعازر وأرسله إلى روما – ليشنقه على الأرجح أمام الملأ. يقول يوسيفوس: «قطاع الطرق الذين صُلبوا»، و«السكان المحليون المرتبطون بهم الذين قُبض عليهم وعُوقبوا، كانت أعدادهم لا تُحصى».

شاعت في أورشليم الاغتيالات السياسية التي نفذها رجال الخناجر، أي الذين أخفوا خناجرهم تحت أثوابهم. كان أحد أهمّ ضحاياهم الكاهن ذا المرتبة العليا جوناثان. وفي خضم عملية إراقة الدماء هذه ظهر المتنافسون الحربيون – الخلاصيون مرة بعد مرة. يشير يوسيفوس إلى مجموعة من القادة الخلاصيين الأنذال بأفعالهم الأقل إجرامًا، لكن ذات المقاصد الأكثر شرًّا، الذين مارسوا الأذى أكثر من القتلة أنفسهم – الغشاشون والمخادعون. خطط مدّعو الوحي لإحداث تغيرات ثورية بتحريض الرّعاع ليتصرفوا وكأنهم ممسوسون، وذلك من خلال سوقهم إلى الأرياف البرية والادعاء أنه يوجد هناك رب سوف يريهم علامات اقتراب الحرية.

فسّر فيلكس هذه الغزوة على أنها مرحلة أولى من الثورة وطلب إلى سلاح الفرسان تقطيع الرعاع إلى أجزاء.

بعد ذلك جاء اليهودي المصري «النبي الدجال». جمع هذا النبي آلافًا عدة من «المغرر بهم»، وقادهم إلى الصحراء، ثم انعطف وحاول مهاجمة القدس – مشترطًا، إذا احتاج إليه الرومان، إثباتًا على هؤلاء الناس جميعهم كانوا خطرين من الَناحية السياسية. وقدّم يوسيفوس الصورة الآتية للحالة في فلسطين حوالى عام 55 بعد الميلاد:

اجتمعت قوات الدجالين الدينيين وزعماء قطاع الطرق وتمّ تحريضهم على الثورة. وبعد تقسيمهم مجموعات، طافوا بهم في أنحاء الريف، فنهبوا بيوت الأثرياء، وقتلوا ساكنيها، وأحرقوا القرى، حتى وصل جنون طوافهم كل زاوية من يهودا. ومن يوم إلى آخر اشتد القتال وأصبح أكثر ضراوة.

مكتبة الفكر الجديد

خلال عام 66 بعد الميلاد حلّ قطاع الطرق في كل مكان؛ وتغلغل عملاؤهم بين جماعة كهنوت الهيكل وتحالفوا مع أليعازر، ابن الكاهن ذي المرتبة العليا حنانيا. ونشر أليعازر ما يشبه بيان الاستقلال: إذ إنه طلب منع التضحية اليومية بالحيوانات المكرّسة لصحة نيرون (Nero)، حامل لقب الإمبراطور. ثم بدأت الزّمر المتحالفة مع الرومان والمعادية لهم بالتقاتل في ما بينها في شوارع القدس: رجال الخناجر والعبيد المحرَّرون ورعاع أورشليم الذين يقودهم أليعازر من جهة؛ وكبار الكهنة والأرستقراطية الهيرودية والحرس الملكي الروماني من جهة ثانية.

في غضون ذلك، وفي الأراضي الموعودة، اجتاح مناحيم، الابن الحي الأخير ليهوذا الجليل، حصن مسعدة، مسلِّحًا عصاباته بالأسلحة الرومانية المستولى عليها من الترسانة، وزحف نحو القدس. مندفعًا في مشهد فوضوي، مصدرًا أمر العصيان - «مثل ملك»، كما يقول يوسيفوس. ثم توجه بعيدًا من الفرق الرومانية وسيطر على ناحية الهيكل، وقتل الكاهن ذا المرتبة العليا حنانيا. ثم تزيّن مناحيم بالملابس الملكية متبوعًا بجوقة من قطّاع الطرق المسلحين، وتحضّر لدخول حرم الهيكل. لكن أليعازر، ربّما ليثأر لموت أبيه، نصب كمينًا للموكب. فرَّ مناحيم لكن قبض عليه و«حكم عليه بالموت بعد تعذيب مرير».

استمر اليهود بالقتال، مقتنعين بأنّ المخلِّص الحقيقي لم يظهر. وعقب تعرض الرومان لنكسات عدة، استدعى نيرون أفضل جنرالاته، فسباسيان، المحارب القديم في الحملة ضدّ البريطانيين. بجيش مؤلف من 65 ألف رجل وأنواع متطورة من الآلات الحربية والخبرة الحرفيّةً في الحصار، ليعيد الرومان السيطرة على المدن الصغيرة ببطء.

بموت نيرون في عام 68 بعد الميلاد برز فسباسيان مرشحًا مفضَّلًا عوضًا عن الإمبراطور. فأنهى تيتوس ابن فسباسيان الحرب بعد أن ضمن جميع الرجال والمعدات كلها التي ربما يحتاج. وعلى الرغم من مقاومة المتعصبين، حطَّ تيتوس رحاله في أورشليم في عام 70 بعد الميلاد، فأضرم النار في الهيكل، وسلب وأحرق كل شيء على مدّ البصر.

مكتبة الفكر الجديد

بعد أن فكر في الكلفة التي قدمها اليهود وتقدر بمليون ضحية، دان يوسيفوس بمرارة أصحاب الوحي الخلاصيين. كانت ثمة أعاجيب رهيبة – أضواء ساطعة فوق المذبح، وبقرة تلد حملًا وديعًا، وعربات خيل رباعية وأفواج عسكرية تنطلق عبر السماء عند الغروب – لكن قطاع الطرق وأنبياءهم الملاعين فوّتوا إشارات الإدانة هذه. هؤلاء «المخادعون وهؤلاء الرسُل الكَذَبة غرّروا بالشعب ودفعوه إلى الاعتقاد أنّ الخلاص الخارق أصبح ملك يمينهم».

حتى بعد سقوط أورشليم لم يكن قطّاع الطرق قد اعتقدوا أنّ يهوه أهملهم. ثمة جهد بطولي آخر – قربان دموي آخر – وسوف يقرر يهوه إرسال الممسوح (anointed) الحقيقي. وكما أشرت من قبل، وقع آخر قربان عند حصن مسعدة في عام 73 بعد الميلاد. أوصى قاطع طرق آخر يدعى أليعازر، سليل حزقيا ويهوذا الجليل، قوّته الباقية المؤلفة من 960 رجلًا وامرأة وطفلًا، بقتل بعضهم بعضًا عوضًا عن الاستسلام للرومان.

لنُجمِل ما أوردناه سابقًا: بين عامي 40 قبل الميلاد و73 بعده، أشار يوسيفوس إلى خمسة في الأقل من اليهود المخلِّصين المنتَظرين الحربيين، ليس من بينهم يسوع أو يوحنا المعمدان. وهؤلاء هم: أثرونجيوس وثيوداس و«النذل» المجهول الذي أعدمه فيليكس واليهودي المصري «النبي الدجال» ومناحيم. كما يلمّح يوسيفوس مرارًا إلى مخلِّصين منتَظرين من الذين لم يُتعب نفسه بذكر أسمائهم أو توصيفهم. علاوة على ذلك، يبدو من الواضح تمامًا بالنسبة إلي أنّ كثيرًا من أتباع ذريّة المتعصبين – رجال العصابات – قطاع الطرق هؤلاء المتحدرين من حزقيا عبر يهوذا الجليل ومناحيم وأليعازر، يؤمنون بأنهم المخلِّصون المنتَظرون أو الأنبياء المنتَظرون. وبمعنى آخر، وفي زمن يسوع، كان هناك كثير من المخلِّصين المنتَظرين في فلسطين بقدر ما يوجد اليوم من أنبياء عقيدة الأحمال في البحار الجنوبية.

شكّل سقوط مسعدة الصعب نهاية لنمط الحياة اليهودي الحربي الخلاصي. وأعيد إنتاجه باطّراد كونه حاجة عملية في مواجهة الاستعمار والفقر، واندلعت فورة ثورية جديدة لاحقًا بعد ست سنوات من سقوط

مكتبة الفكر الجديد

مسعدة، ضمن دراما أكثر خلاصية. في عام 132 بعد الميلاد، جمع بار كوخبا (BarKochva) – «ابن الكوكب» – قوة من 200 ألف رجل وأقام الدولة اليهودية المستقلة التي انتهت في غضون ثلاثة أعوام. وبسبب انتصاراته الخارقة، باركه عقبيا، كبير أحبار القدس، كونه مخلِّصًا منتظرًا. وأبلغ الناس عن رؤيا لبار كوخبا وهو يمتطي أسدًا. ولم يواجه الرومان منذ هنيبعل مقاومة مسلحة بمثل هذه البسالة؛ قاتل بار كوخبا في صفوف الجبهة وفي أكثر المواقع خطرًا. وتبدد فيلق روماني بكامله **قبل أن يُصرع** بار كوخبا. سوّى الرومان ألف قرية بالأرض، وقتلوا نصف مليون شخص، ونقلوا الآلاف على متن السفن إلى خارج البلاد كعبيد. وفيما بعد تحدثت أجيال من العلماء اليهود الساخطين بأسف عن بار كوخبا كونه «ابن الكذبة» الذي خذلهم وأفقدهم وطنهم.

يبيّن التاريخ **أنّ نمط الحياة** اليهودي الخلاصي الحربي فشل في التكيف، إذ لم ينجح باستعادة **مملكة** داوود، وإلى حد ما، تسبب بفقدان تام لجلّ أراضي الدولة اليهودية. وبالنسبة إلى السنوات الألف والثمانمئة الآتية أضحى اليهود أقلية تابعة وغير ذات شأن حيثما عاشوا. هل يعني ذلك أنّ الخلاصية العسكرية كانت نمط حياة نزويٍّ وغير عملي وحدثًا جنونيًا؟ وهل استنتجنا من تلقاء ذاتنا مع يوسيفوس وأولئك الذين دانوا لاحقًا بار كوخبا بأن اليهود فقدوا وطنهم لأنهم تركوا الخلاصيين نهبَ السراب القاتل وورطوهم بمهاجمة قوة روما التي لا تقهر؟ أعتقد أن الأمر ليس كذلك.

يعود سبب الثورة اليهودية ضد روما إلى مظالم الاستعمار الروماني، وليس بسبب النزعة الخلاصية اليهودية الحربية. لا نستطيع أن نحاكم الرومان بوصفهم أكثر «عمليةً» أو «واقعيةً» لأنهم ببساطة كانوا غالبين. كلا الجانبين ذهب إلى الحرب **مدفوعًا** بأسباب عملية ودنيوية. أفترض أنّ جورج واشنطن خسر الحرب الثورية **الأميركية**؛ فهل سنخلص إلى أنّ جيش البرّ كان ضحية وعي نمط الحياة **غير العقلاني** المكرَّس للأمل الخادع الذي يدعى «الحرية»؟

في الثقافة، كما في الطبيعة، تفشل المنظومات التي تكون نتاج القوى الانتقائية مرارًا في الحياة، ليس لأنها معطوبة وغير عقلانية، بل لأنها تواجه

مكتبة الفكر الجديد

منظومات أخرى أفضل تكيفًا وأكثر قوة. أعتقد أنني أوضحت أن ثقافة المخلِّص المنتقم، مثل عقيدة الأحمال، كانت متكيفة مع الضرورات العملية للنضال ضد الاستعمار. كانت موفقة جدًّا بما هي وسائل لحشد المقاومة الجماعية في ظل غياب الأدوات الأساسية لإعداد جيش وتدريبه. ولن أحكم على رجال العصابات من المتحمسين الدينيين لخداعهم باستثناء تبيان أن احتمال هزيمتهم كان كبيرًا جدًّا منذ البداية، حيث لم يتوافر مقدار من الجهد مما يمكن أن يفضي لأي نتيجة أخرى غير تلك التي كشف عنها التاريخ في الوقت الحاضر. لكن ليس ثمة سبيل إلى إقامة الدليل على أن قطّاع الطرق المتعصبين كان يمكنهم التنبؤ بأن هزيمتهم محتومة. كشف التاريخ بصورة نهائية وعادلة أن يهوذا الجليل كان محقًّا وأن القياصرة كانوا على خطأ في ما يتعلق بالزعم أن الإمبراطورية الرومانية لا تُقهر. لم تُدمَّر الإمبراطورية الرومانية أخيرًا وحسب، بل إن الشعوب التي دمرتها كانت مستعمَرة مثل اليهود، بل كانوا على نحو كبير أقل عددًا وعتادًا ومهارات حربية من الرومان.

أعتقد، تحديدًا، أن الثورة كانت تعني أن سكانًا مستغَلين سوف يلجأون إلى وسائل متهورة في مواجهة احتمالات هائلة من أجل إسقاط طغاتهم. وعادةً تقبل الطبقات والأعراق والأمم تحدي مثل هذه الاحتمالات ليس لأنها مخدوعة بأيديولوجيات غير عقلانية فحسب، بل لأن البدائل مقيتة ما يكفي لأن تجعل حتى المخاطر العظيمة جديرة بأن توضع في الاعتبار. أعتقد أن ثمة سببًا لثورة اليهود ضد روما، وأن ثمة سببًا لانتشار الوعي الحربي اليهودي – الخلاصي على نطاق واسع في زمن المسيح.

نظرًا إلى امتداد معتقَد المخلص المنتقم وتجذرها في الكفاح العملي ضد الاستعمار الروماني، اتخذ معتقَد المخلِّص المسالم مظهرًا متناقضًا وغامضًا بصورة جلية. جاء المخلص المسالم للنصرانية في لحظة بعيدة الاحتمال للغاية في مسيرة 180 عامًا من الحرب ضد روما. تطور معتقَد يسوع بينما كان الوعي الحربي – الخلاصي لا يزال في تصاعد واتساع وتحليق نحو انتشاء غير ملطخ لنعمة يهوه. ويبدو أن توقيتها بمجمله كان خاطئًا. ففي عام 30 بعد الميلاد لم

مكتبة الفكر الجديد

يكن هناك من عائق كبير لمواجهة اندفاع قطاع الطرق المتعصبين الثوريين. وكان الهيكل سليمًا ومقصدًا لرحلات حج سنوية ضخمة. وكان أبناء يهوذا الجليل على قيد الحياة. كما أن رعب مسعدة كان أيضًا غير قابل للتصور. لماذا كان يجب على اليهود أن يتطلعوا إلى المخلِّص المسالم أعوامًا كثيرة قبل أن يكرّس الحلم الحربي - الخلاصي كلٌّ من مناحيم وبار كوخبا؟ لماذا خضعت فلسطين للسادة الرومان عندما لم تكن القوة الرومانية كبيرة ما يكفي لأن تحزّ حافة الترس المقدس ليهوه؟ لماذا كان الميثاق الجديد بينما كان الميثاق القديم لا يزال قادرًا على هزّ الإمبراطورية الرومانية مرتين؟

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Baron, Salo W. *A Social and Religious History of the Jews*. 2nd revised and enlarged ed. New York: Columbia University Press.

Farmer, William R. *Maccabees, Zealots and Josephus*. New York: Columbia University Press, 1956.

Fromm, Erich. *The Dogma of Christ: And Other Essays*. Garden City, N. J.: Anchor paperback, 1966.

Grant, Robert. *A Historical Introduction to the New Testament*. New York: Harper and Row, 1963.

The Holy Bible: Scofield Reference Bible. New York: Oxford University Press, 1945.

The Jewish Encyclopedia.

Josephus, Flavius. *Jewish Antiquities*. trans. H. St. John Thackeray. 6 vols. London: Heinemann, 1926.

_____. *The Jewish War*. trans. G. A. Williamson. Baltimore: Penguin Books, 1970.

Rostovtsev, Mikhail. *The Social and Economic History of the Roman Empire*, 2 vols. Oxford: Clarendon Press, 1957.

Smith, Morton. «Zealots and Sicarii: Their Origins and Relations.» *Harvard Theological Review*. vol. 64 (1971), pp. 1-19.

Stone, Michael E. «Judaism at the Time of Christ.» *Scientific American* (January 1973), pp. 80-87.

Walace, Wilson D. *Messiah: Their Role in Civilization*. Washington D. C.: American Council on Public Affairs, 1943.

مكتبة الفكر الجديد

سرّ أمير السلام[1]

(1) أغنية النصر من:
Edwards, George R. *Jesus and the Politics of Violence*. New York: Harper and Row, 1972.

مكتبة الفكر الجديد

لا تختلف آلية الحلم في الحضارة الغربية بصورة جوهرية عن آليات الحلم عند الشعوب الأخرى. وحده الإلمام بالأوضاع العملية هو ما نحتاجه لاختراق ألغازها.

في الحالة التي أمامنا، ثمة بالفعل القليل من الخيارات العملية كي ننتقي منها ما يلائمنا. وسوف يكون أكثرها ملاءمة هو ما إذا كان تأريخ كهنوت يسوع خاطئًا - إذا كان من الممكن تبيُّن أن يسوع لم يبدأ بتحريض أتباعه اليهود على حبّ الرومان حتى بعد سقوط القدس. لكن خطأً لا يمكن تصوره وقع واستمر لأربعين عامًا في التسلسل الزمني التقليدي للحوادث كثورة ضرائب يهوذا الجليل أو الحاكم بيلاطس البنطي.

مع أننا لا يمكن أن نكون على خطأ في ما يتعلق بـ «متى» تكلم يسوع، فثمة كثير من الأسباب تدفعنا إلى الافتراض أننا على خطأ بخصوص «ماذا» تكلم. إن الحل العملي البسيط للأسئلة التي طُرحت في ختام الفصل السابق هي أن يسوع لم يكن مسالمًا بالقدر الذي شاع اعتقاده، وإن تعاليمه الواقعية لم تمثّل انقطاعًا جوهريًّا عن تقليد الخلاصية - الحربية اليهودية. وربما تخلّل كهنوته الأصلي مؤيدون لقطّاع الطرق الأقوياء ومنحازون ضد الرومان. ولعل القطيعة الحاسمة مع تقليد الخلاصية اليهودية جاء بالضبط بعد سقوط القدس، عندما استشرى المحتوى الأصلي الحربي - السياسي لتعاليم يسوع بوساطة المسيحيين اليهود القاطنين في روما وغيرها من مدن الإمبراطورية كاستجابة تتلاءم والنصر الروماني. هذه هي الحجّة التي سأوظفها، جزئيًّا في الأقل، كي أربط تناقضات الخلاصية السلمية بمجريات القضايا البشرية الواقعية.

مكتبة الفكر الجديد

توحي الاستمرارية بين تعاليم يسوع الأصلية والتقليد الخلاصي الحربي بالصلة الوثيقة القائمة بين يسوع ويوحنا المعمدان. ذلك أن يوحنا المعمدان، بارتدائه جلود الحيوانات واكتفائه بتناول الجراد والعسل البري، ينتمي بجلاء إلى ذلك النوع من الرجال المقدسين الذين وصفهم يوسيفوس كمتجولين في أرجاء الأراضي الوعرة لوادي الأردن، محرضين الفلاحين والعبيد، ومثيرين الاضطرابات بالنسبة إلى الرومان وعملائهم اليهود.

ما تتفق عليه الأناجيل الأربعة كلها هو أن يوحنا المعمدان كان رائد الدرب المباشر ليسوع، وكانت مهمته هي إنجاز عمل إشعيا بالذهاب إلى البرية – الأراضي الموعودة الموبوءة بقطاع الطرق والحافلة بالكهوف التي ردّدت أصداء ذكريات عهد يهوه – وهو يصرخ: «وأنتم تحضّرون طرق الربّ؛ اجعلوا مساراتها مستقيمة» (توبوا عن آثامكم، اعترفوا بذنوبكم، بحيث يمكن أن تكافأوا على الأقل بالإمبراطورية الموعودة). من المرجح أن يوحنا «عمَّد» اليهود الذين اعترفوا بذنوبهم وأعلنوا التوبة، غسلهم في نهر أو جدول ليطهرهم من ذنوبهم بصورة رمزية. ووفقًا للأناجيل كان يسوع التائب المعمَّد الأكثر شهرة. وعلاوة على كونه مغسولًا في نهر الأردن، شرع يسوع بالمرحلة/ الذروة من حياته – مرحلة تبشيره الحثيث التي ستنتهي بموته مصلوبًا.

كانت مهنة يوحنا المعمدان استعادة لنمط حياة أصحاب الوحي الصحراويين الموصوفين في الفصل السابق. وعندما تنامت حوله الحشود لدرجة كبيرة، اعتقله أقرب حارس للقانون والنظام الرومانيين. حدث ذلك عندما كان الملك الدمية، هيرودس أنتيباس، حاكمًا لجزء من فلسطين شرق الأردن حيث كان المعمدان ينشط بقوة.

لم يكن هناك من تلميح في الأناجيل إلى أن يوحنا المعمدان جرى توقيفه باعتبار أن نشاطاته تمثل تهديدًا للقانون والنظام. كان البعد الحربي – السياسي برمته غائبًا. وعوضًا عن ذلك، وصلَنا أن اعتقال يوحنا المعمدان جاء على خلفية انتقاده لزواج هيرودس من هيروديا، الزوجة المطلقة من أحد أخوة

مكتبة الفكر الجديد

هيرودس. وذهبت القصة لأن تعزو إعدام يوحنا المعمدان لا إلى أي دافع سياسي، بل بسبب رغبة هيرودس بالانتقام وحسب. طلبت هيروديا من ابنتها شالومي الرقص من أجل الملك هيرودس. وكان الملك مسرورًا جدًا بهذا الأداء لدرجة أنه وعد الراقصة بأي شيء تتمناه. أعلنت شالومي بأنها تريد رأس يوحنا المعمدان على طبق كبير، وامتثل هيرودس. وقيل لهيرودس إنه سيتغلب على الندم، تمامًا كما أُبلغ بيلاطس البنطي لاحقًا بأنه سيتغلب على الندم عند إعدام يسوع. وإذا أخذنا في الحسبان ما الذي رواه يوحنا المعمدان للحشود في البرية قبل اعتقاله، فإن نقص المرجعيات السياسية والندم الذي عُزيَ إلى هيرودس لا يُعتبر في مكانه على الأغلب. إن الذي وعظ به يوحنا كان تهديدًا حربيًا خلاصيًا صرفًا:

سيأتي شخص أقوى مني - سيعمّدكم بروح ونار، وفي يده مروحة يذري بها، وسيتمكّن من تنظيف أرضه المحصودة، ويجمع القمح في حظيرته، لكن القش الذي سيحرقه لن تخمد نيرانه.

هل كان هيرودس أنتيباس أعمى في ما يتعلق بالصلة بين أصحاب الوحي الصحراويين وقطاع الطرق المتعصبين؟ لم يكن للملك الذي استمر حكمه ثلاثة وأربعين عامًا، والذي كان ابن الطاغية القاتل وقاطع الطرق هيرودس الكبير، أن يتبيّن الأخطار المرتبطة بالسماح لبشر مثل يوحنا المعمدان باجتذاب الحشود الكبيرة في الصحراء. ثم كيف تسنى لصاحب وحي لا يرتبط مخلِّصه المنتَظر بقضية قطاع الطرق أن يجتذب مثل هذه الحشود الكبيرة؟

اتضحت مكانة المعمدان في التقليد الحربي - الخلاصي في إثر اكتشاف مخطوطات البحر الميت. وُجدت هذه الوثائق في كهف قرب خربة تعود لجماعة قديمة ماقبل مسيحية تسمى قمران (Quamran)، وتقع في المنطقة التي عمّد فيها يوحنا يسوعًا. كانت قمران نفسها قرية دينية مكرسة، مثل يوحنا المعمدان، لـ «تطهير الطريق في البرية». ووفقًا لغنى الجماعة والأدبيات المقدسة التي لم تكن مألوفة في السابق، كان تاريخ اليهود يسير نحو المعركة

مكتبة الفكر الجديد

الفاصلة التي سيلقى فيها الإمبراطور الروماني حتفه. كانت روما ستفقد مكانها لمصلحة إمبراطورية جديدة عاصمتها أورشليم يحكمها مخلِّص منتَظر يتحدر من فرع آل داوود، أقوى من أي قيصر شُوهد على الأرض حتى الآن. وسوف يذهب اليهود «أبناء النور» بقيادة «ممسوح من إسرائيل»، قائد لا يُقهر، قائد عام، إلى معركة ضد الرومان «أبناء الظلمة». وستكون حرب إبادة. ثمانية وعشرون ألف محارب يهودي وستة آلاف من قادة العجلات كانوا سيوجهون الضربة للرومان. و«سوف يستميتون في السعي من أجل القضاء على العدو في إبادة أبدية... حتى تتم تصفيته». كان النصر مضمونًا لأنَّه «كما أعلنت لنا منذ القدم؛ نجمة سوف تأتي إلينا من يعقوب، وسوف يرتفع الصولجان من إسرائيل» (النبوءة في سفر العدد الذي نُسب في وقت لاحق إلى بار كوخبا). كانت إسرائيل ستنتصر «لأنه كما في الماضي، ومن خلال ما بحوزتك من الممسوحين، أنت التهمت الشر كشعلة حارقة في رقعة من الحبوب... لأنك منذ القدم أعلنت بأن العدو... سوف يسقط بسيف ليس لإنسان، وأن السيف الذي ليس لإنسان سوف يلتهمه».

كان للقمراويين ترتيب للمعركة عملوا عليه وصولًا إلى أدق التفصيلات. كانوا جاهزين حتى مع أغنية النصر:

انهض أيها الشجاع!

قُدْ أسراك بعيدًا، أيها الرجل العظيم!

واغنم، أيها المقدام!

ضع يدك على أعناق أعدائك

وضع قدمك فوق كومة من القتلى!

اضرب أمم أعدائك

ودع سيفك يلتهم الأجساد الآثمة!

مكتبة الفكر الجديد

املأ الأرض بالمجد

واملأ إرثك بالبركة!

كثير المواشي في مراعيك،

الفضة والذهب والأحجار الكريمة في قصورك!

فلتفرح يا صهيون بعلو شأن!

اظهري وسط صيحات الفرح، يا أورشليم!

اختالي يا كل مدن يهودا!

وافتحي بواباتك للأبد.

من أجل أغنياء الأمم ليدخلوا!

دعوا ملوكهم يخدمونكم

دعوا مضطهديكم ينحنون أمامكم

واتركوهم يلعقون غبار أقدامكم!

نحن نعلم أن القمراويين أرسلوا مبشرين من أجل أن يعملوا كونهم طليعةً للممسوح. وعلى غرار يوحنا المعمدان، قيل إن هؤلاء المبشرين أكلوا الجراد والعسل البري وارتدوا جلود الحيوانات. ومثل يوحنا المعمدان، كانت مهمتهم جعل أطفال إسرائيل يتوبون. كما أنه لا يمكن إثبات أنهم مارسوا التعميد، لكن في قمران نفسها اكتشف علماء الآثار مرافق اغتسال طقسية واسعة. لعل طقوس تعميد يوحنا أُدخلت على أتم وجه كأشكال مختصرة من طقوس الوضوء والمطهرة الأكثر اتساعًا والمنجزة في مغاسل الجماعة، التي كانت بصورة أو بأخرى بعيدة من الأفكار اليهودية حول الطهارة الروحية.

مكتبة الفكر الجديد

أعتقد أن النقطة التي تحتاج إلى التوكيد هنا هي أن وجود هذا المصدر لم تجر الإشارة إليه حتى في كتابات أمثال يوسيفوس أو كتّاب الأناجيل المسيحية. وما كنا لنعرف من دون لفائف المخطوطات هذه على الإطلاق ما كان يمكن أن يصل إليه هؤلاء الرجال المقدسون المحاربون، لأن الرومان كانوا قد دمروا قمران في عام 68 بعد الميلاد. ختم أعضاء الجماعة مكتبتهم المقدسة في جرار فخارية وأخفوا مخطوطاتهم في كهف مجاور قبل أن ينقضّ عليهم «أبناء الظلمة» ويمحوا المجمع عن بكرة أبيه. ولأنه لم يتم العبث بها خلال ألفي سنة فقد نُسي أمرها، وهي الآن تشكل أحد أعظم مصادر المخطوطات حول المعلومات المتعلقة بالديانة اليهودية مباشرة قبل المسيح، وفي أثناء زمانه، وفترة وجيزة بعده.

جعلت لفائف قمران من الصعوبة فصل تعاليم يوحنا المعمدان كما وردت في الأناجيل عن التيار الرئيس للتقليد الحربي – الخلاصي اليهودي. ففي أجواء حرب العصابات المديدة والدموية مع روما، واستعارة المعمدان المجازية عن «القش المحترق في النار التي لا يخمد لظاها» لم يكن من المعقول أن يتعارض مع ما يتكهّن به القمراويون حول «الشعلة الحارقة في رقعة من الحبوب». لا أقصد القول إني أعرف ما كان يدور في خلد يوحنا المعمدان، لكن السياق الأرضي الذي من خلاله يجب أن يتم الحكم على سلوكه لا يمكن أن يكون ذلك الدين الذي لم يولد. يمكنني التفكير فحسب في أقواله وأفعاله المحفوظة في سياق جموع الرعاع المغبرّة من الفلاحين، وأفراد العصابات، والمتهربين من الضرائب، واللصوص، والمغمورين في الأردن، والحرق بكراهية لا ترتوي للطغاة الهيروديسيين، والكهنة الدمى، والحكام الرومان المتعجرفين، والجنود الوثنيين الذين يضربون في الأماكن المقدسة.

فور اعتقال المعمدان – على الأرجح بينما كان ينتظر محاكمته في سجن هيرودس أنتيباس – بدأ يسوع يلقي مواعظه وسط أناس من الطبيعة نفسها، وفي الأوضاع الخطرة نفسها. كان التشابه في نمط الحياة كبيرًا لدرجة أن من بين تلامذة يسوع الأوائل – كان اثنان في الأقل – الأخوان أندراوس

مكتبة الفكر الجديد

وسمعان بطرس (القديس بطرس) - من أتباع المعمدان السابقين. ولاحقًا وجد هيرودس أنتيباس فرقًا طفيفًا بين يسوع والمعمدان لدرجة رُويَ أنه نوّه قائلًا: «إنه يوحنا الذي قطعتُ رأسه، إنه قام من بين الأموات». ألقى يسوع في البداية معظم مواعظه في الريف البعيد، مجترحًا المعجزات وجاذبًا الحشود الكبيرة. وكثيرًا ما كان على مسافة قفزة واحدة فقط من الشرطة. وكان يسوع، مثله مثل يوحنا المعمدان والرسل المسيحيين الذين تحدث عنهم يوسيفوس، منخرطًا في مسار تصادمي سينتهي إما باعتقاله وإما بتمرد كارثي.

دفع منطق شعبية يسوع المتزايدة به قدمًا إلى مآثر خطرة على نحو متزايد. ومنذ أمد طويل، كان وتلامذته يعدّون العدة لخلصنة أورشليم، العاصمة الموعودة لإمبراطورية اليهود المقدسة المقبلة. فعبر البوابات، وهو يستحضر عن عمد الرمزية الخلاصية لكتاب زكريا، ممتطيًا ظهر حمار (وربما حصان). ادّعى معلّمو مدرسة الأحد[1] (Sunday school) أن يسوع فعل ذلك لأنه كان يقصد «كلام السلام (speak peace) في الوثنية». وذلك ما يتجاهل الدلالة الحربية - الخلاصية الساحقة لكل شيء آخر عند زكريا. بالنسبة إلى المخلِّص المنتَظر الذي جاء بعد زكريا، بتواضع وبالركوب على حمار، فإن أولاد صهيون «التهموا وأخضعوا»... وأصبحوا «رجالًا أقوياء داسوا أعداءهم في وحول الشوارع في معركة... لأن الرب معهم والفرسان سيرتبكون».

إن الشخص المتواضع [الآتي] على حمار لم يكن مخلِّصًا مسالـمًا. كان مخلِّصًا من أمّة صغيرة وعلى ما يبدو أمير حربها غير المؤذي، سليل داوود، وهو أيضًا الذي برز من الضعف الظاهر ليربك ويقهر فرسان العدو وقادة عجلاته الحربية. كان الوثنيون يريدون السلام - لكنه سلام الإمبراطورية اليهودية المقدسة التي طال انتظارها. تلك في الأقل الكيفية التي فهمت من خلالها الحشودُ المصطفة على الطريق ما الذي كان يحدث، وعندما مرّ بهم يسوع، صرخوا: «المجد لله! مبارك هذا الذي يأتي باسم الربّ، وطوبى لمملكة أبينا داوود المقبلة!».

---

(1) أو مدرسة الكتاب المقدس، تشدد على القراءة الشخصية له.

مكتبة الفكر الجديد

لم يكن ثمة شيء مسالم كما ينبغي في ما فعله يسوع وأتباعه بعد دخولهم المدينة. فهم، باختيار غزو أورشليم قبل بدء عيد الفصح اليهودي مباشرة، ضمنوا لأنفسهم حماية آلاف من حجّاج العيد الواصلين من الريف ومن أنحاء البحر الأبيض المتوسط كلها. كان قطاع الطرق المتعصبون والفلاحون والعمال والمتسولون والمجموعات الأخرى النائمة المحتملة، يتدفقون جميعًا إلى المدينة في الوقت نفسه. وأينما ذهب يسوع خلال النهار كانت الحشود الصاخبة والمنتشية تحاصره. وعندما حل الظلام انسلّ يسوع إلى بيوت الأصدقاء، مُبقيًا مكانه خفيًّا عن الجميع باستثناء النواة الداخلية لتلاميذه.

لم يفعل يسوع وتلامذته ما قد يميزهم من أعضاء الحركة الحربية – الخلاصية الأوائل، بل إنّهم أثاروا في الأقل مواجهة عنيفة واحدة، إذ اقتحموا فناء الهيكل العظيم وهاجموا جسديًّا رجال أعمال مرخَّصين يقومون بتبديل العملات كي يتمكن الحجاج الأجانب من شراء حيوانات الأضاحي. واستعمل يسوع نفسه السوط في هذه الحادثة.

روت الأناجيل كيف أن قيافا الكاهن ذا المرتبة العليا «تآمر» لاعتقال يسوع. ومنذ أن شهد قيافا الهجوم العنيف ضد الصيارفة، لم تساوره أي شكوك مطلقًا حول مشروعية وضع يسوع في السجن. ما الذي كان يجب على قيافا أن يضعه في الاعتبار لاعتقال يسوع من دون إثارة جميع الناس الذين فكروا أنه المخلِّص المنتَظر. كان الغوغاء في تلك الأيام خطرين جدًا قبل اختراع البنادق والغازات المسيلة للدموع، خصوصًا عندما ترسخ في اعتقاد الناس أن لديهم قائدًا لا يقهر. وهكذا أرشد قيافا الشرطة لأخذ يسوع، لكن «ليس في يوم العيد، خشية أن ينفجر غضب الناس».

لم يكن للحشد المحيط بيسوع الوقت لاعتماد نمط حياة غير عنفي. حتى أن تلامذته الأكثر قربًا لم يكونوا مهيئين كما يجب لـ «إدارة الخدّ الآخر». كان لاثنين منهم في الأقل ألقاب توحي بأنهما كانا مرتبطين بنشاطات مسلحة. أحدهما كان سمعان، الملقب بـ «المتعصِّب»، وكان الآخر يهوذا، الملقب بـ«الإسخريوطي». وثمة تشابه غريب بين لفظتَي الإسخريوطي وسيكاري

مكتبة الفكر الجديد

(sicarii) [رجال الخناجر]، وهي الكلمة التي استخدمها يوسيفوس لتحديد هوية حاملي السكاكين، أو رجال الخناجر القتلة. وفي بعض المخطوطات اللاتينية القديمة يدعى يهوذا في الواقع زيلوطس.

كان لتلميذين آخرين ألقاب حربية أيضًا، هما يعقوب ويوحنا، ابنا زبدة. كانا يدعيان «بوانيرجس» التي ترجمها مارك عن الآرامية بـ «أبناء الرعد»، وكانت تعني أيضًا «العنيف، الأشخاص الغاضبين». واستحق ابنا زبدة سمعتهما. ففي أحد الأماكن من الرواية الإنجيلية أرادا تدمير قرية سمارتيان برمّتها لأن أهلها لم يرحبوا بيسوع.

أشارت تلك الأناجيل أيضًا إلى أن بعض التلامذة حمل السيوف وكان متحضرًا لمقاومة الاعتقال. وقبل أن يُقاد يسوع إلى الحبس مباشرة، قال: «من ليس له سيف، فليبع ثوبه وليشتر سيفًا». دفع ذلك تلامذته لأن يعرضوا عليه سيفين - دلالة ذلك أن اثنين منهم في الأقل لم يكونا مسلحين عاديين، بل احتفظا بسيفيهما مخفيين تحت ملابسهما... مثل رجال الخناجر.

سجلت الأناجيل الأربعة كلها حقيقة أن التلامذة أعدّوا مقاومة مسلحة في لحظة إلقاء القبض على يسوع. وبعد عشاء عيد الفصح اليهودي، انسلّ يسوع ودائرته المقرّبة بعيدًا إلى الحديقة في الجسمانية (بستان الزيتون)، حيث استعدّوا لقضاء الليل. اندفع الكاهن ذو المرتبة العليا ورجاله يقودهم يهوذا الإسخريوطي عندما كان يسوع يصلي والباقي نيامًا. سحب التلامذة سيوفهم وأعقب ذلك صراع محدود فقد في إثره أحد رجال شرطة الهيكل أذنه. وحالما أمسكت الشرطة بيسوع، توقف التلامذه عن القتال وولوا الإدبار تحت جنح الليل. ووفقًا لمتّى، طلب يسوع من أحد تلامذته أن يغمد سيفه، فأطاع التلميذ الأمر، لكنه بدا من الواضح أنه غير مستعد ليسمع، لأنه غادر على الفور.

في الرواية الإنجيلية، يماثل الثمن المقدَّم إلى يهوذا اتهام هيروديا ليوحنا المعمدان. فإذا كان يهوذا هو في الواقع زيلاطس - قاطع الطريق المتعصِّب -

مكتبة الفكر الجديد

فإنه قد خان يسوع لأي سبب تكتيكي أو استراتيجي، لكن ليس ببساطة من أجل المال (تقول إحدى النظريات إن يسوع لم يكن متشددًا بصورة كافية). ومن خلال تحديد دافع يهوذا باعتباره طمعًا خالصًا، يمكن أن تكون الأناجيل قد كررت ببساطة هذا النوع من التشويه الذي استخدمه يوسيفوس والرومان تلقائيًّا مع الاحترام لكل قطّاع الطرق المتعصبين. الذين كانوا قد استعدوا للقتل من دون انتظار الحصول على الثمن - كان ذلك واضحًا في الأقل من سياق الحوادث التي وُصفت في الفصل السابق.

لماذا هرب جميع التلامذة، ولماذا أنكر سمعان بطرس يسوعَ ثلاث مرات قبل أن يمضي الليل؟ لأنهم يهود تشاركوا مع قيافا وعي نمط حياة أسلافهم، وفهموا أن المخلِّص المنتَظر كان يجب ألا يُقهر، فهو الأمير الحربي صانع المعجزات.

يفضي ذلك كله إلى نتيجة واحدة: إنّ وعي نمط الحياة الذي تشاركه يسوع والدائرة المقربة من تلامذته لم يكن هو وعي نمط حياة المخلِّص المنتَظر المسالم. ومع أن الأناجيل مالت بوضوح إلى إنكار قدرة يسوع على القيام بأفعال سياسية عنيفة، حيث احتفظت بما يبدو أن يكون اتجاهًا خفيًّا من الحوادث والمقولات المتناقضة التي تربط كلًّا من يوحنا المعمدان ويسوع بالتقليد الحربي - الخلاصي وتورطهما في حرب العصابات. السبب في ذلك أنه في الوقت الذي كُتب فيه الإنجيل الأول، كانت الحوادث والمقولات غير السلمية التي عُزيت إلى يسوع من خلال شهود العيان والمصادر الرسولية التي لا يرقى إليها الشك، كانت معروفة على نطاق واسع بين المخلِّصين. أخلّ كتّاب الأناجيل بالتوازن في وعي نمط حياة ثقافة يسوع في اتجاه المخلِّص المنتَظر المسالم، لكنهم لم يتمكّنوا من محو آثار مواصلتهم التقليد الحربي - الخلاصي. ويمكن أن نلمس الغموض ضمن الأناجيل بهذا الصدد من خلال ترتيب بعض العبارات الأكثر سلمية ليسوع في عمود والنفي غير المتوقَّع في عمود آخر:

مكتبة الفكر الجديد

طوبى لصانعي السلام (إنجيل متّى، الفصل 5: 9)	لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض. ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا (إنجيل متّى، الفصل 10: 34)
وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضًا (إنجيل متّى، الفصل 5: 39)	أتظنون أني جئت لأعطي سلامًا على الأرض؟ كلا أقول لكم، بل انقسامًا (إنجيل لوقا، الفصل 12: 51)
فقال له يسوع: رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون (إنجيل متّى، الفصل 26: 52)	فقال لهم: لكن الآن من له كيس فليأخذه، ومزود كذلك، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفًا (إنجيل لوقا، الفصل 22: 36)
لكني أقول لكم أيها السامعون أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم (إنجيل لوقا، الفصل 6: 27)	فصنع سوطًا من حبال وطرد الجميع من الهيكل، الغنم والبقر، وكبَّ دراهم الصيارف وقلب موائدهم (إنجيل يوحنا، الفصل 2: 15)

عليّ أن أشير في هذه المرحلة إلى الإنشاء واضح التضليل والمتداوَل تقليديًّا لما قاله يسوع عندما سئل عمّا إذا كان يجب على اليهود أن يدفعوا الضرائب للرومان: «اعطِ لقيصر ما لقيصر واعطِ للرب ما للرب». هذا يمكن أن يعني شيئًا واحدًا فقط للجليليين الذين شاركوا في ثورة ضرائب يهوذا الجليل – أي: «لا تدفع». وبالنسبة إلى يهوذا الجليل فقد قال إن كل شيء في فلسطين يعود إلى الربّ. لكن مؤلفي الأناجيل وقرّاءهم لم يعرفوا على الأرجح شيئًا عن يهوذا الجليل، حيث احتفظوا باستجابة يسوع بالغة الاستفزازية حول الافتراض الخاطئ لأنه بدا موقفًا تصالحيًّا حقًّا تجاه الحكومة الرومانية.

بعد أن قبضوا عليه، استمر الرومان وعملاؤهم اليهود بالتعامل مع يسوع كما لو كان زعيمًا للانتفاضة الحربية – الخلاصية الحالية أو المرتقبة. فأخضعته المحكمة اليهودية العليا للمحاكمة لإطلاقه نبوءات كاذبة وكافرة. وسرعان ما وُجد مذنبًا وأُحيل إلى بيلاطس البنطي من أجل المحاكمة الثانية حول التُّهم الدنيوية. ويبدو السبب من وراء ذلك واضحًا. كما بيّنتُ في الفصل حول عقيدة الأحمال، فإنّ المخلِّصين المنتَظرين كانوا في السياقات الاستعمارية مذنبين دومًا بجريمة سياسية – دينية، وليست أبدًا جريمة دينية صرفة. لم يكن الرومان

مكتبة الفكر الجديد

مهتمين قط برموز يسوع الدينية، كانتهاك المعتقدات الوطنية، لكنهم كانوا قلقين للغاية بخصوص تهديداته بتدمير الحكومة الاستعمارية.

إنّ تنبؤات قيافا حول كيفية ردة فعل الجموع عندما بدا يسوع عاجزًا كانت في محلها تمامًا. عرض بيلاطس الرجل المدان على الجمهور ولم يرتفع أي صوت للاحتجاج. حتى إنّ بيلاطس ذهب بعيدًا لدرجة اقتراح تحرير يسوع، إذا أراد له الجمهور أن يعود. ادّعت الأناجيل أنّ بيلاطس قدّم هذا المقترح لأنه هو نفسه آمن ببراءة يسوع. لكن بيلاطس، كما تتذكرون، كان مخادعًا، وعسكريًّا محكَم القبضة من الخط المتشدِّد، الذي بقي على خلاف مع جمهور أورشليم. ووفقًا ليوسيفوس، ساق بيلاطس حالًا بضعة آلاف من الناس إلى ملعب أورشليم، وأحاطهم بالجنود وهدّد بقطع رؤوسهم. وفي مناسبة أخرى تغلغل رجاله بين الجماهير مرتدين ألبسة مدنية فوق دروعهم ثم بإعطاء إشارة ما ضربوا بهراواتهم جميع من حولهم. وعند إحضار يسوع أمام الحشد الذي كان حتى وقت قريب يعبده ويحميه، استخدم بيلاطس منطقًا لا يرحم من التقليد الحربي – الخلاصي ليؤثر في الأهالي، مستغلًا ضيق أفقهم المعهود. هنا وقف محررهم الإلهي المفترض، ملك إمبراطوريتهم اليهودية المقدسة، عاجزًا تمامًا في مواجهة قلّة من الجنود الرومان. قد يكون الحشد استجاب بصورة جيدة جدًّا حين طالب بقتل يسوع بصفته دجالًا دينيًّا، لكن بيلاطس لم يكن مهتمًّا بصلب الدجالين الدينيين، ذلك أن الرومان لم يروا في يسوع سوى مخرب آخر لاقى مصيره المستحَق مثل جميع قطاع الطرق من مثيري التمرد والثوريين الذين استمروا في الزحف من الصحراء. ولهذا السبب كان اللقب الذي يُقرأ على صليب يسوع «ملك اليهود».

يذكّرنا س. ج. ف. براندن، العميد السابق لكلية اللاهوت في جامعة مانشستر، بأنّ يسوع لم يُصلب لوحده؛ وذكرت الأناجيل أن اثنين من المجرمين المدانين شاركاه مصيره. ما هي الجريمة التي أعدم بسببها رفيقا يسوع؟ تقول النسخ الإنكليزية من الأناجيل إنّهما كانا «لصَّين». لكن في النسخة اليونانية الأصلية أُطلق عليهما لقب ليشتي (lestai)، وهو بدقة المصطلح نفسه الذي

مكتبة الفكر الجديد

استخدمه يوسيفوس للإشارة إلى قطّاع الطرق المتعصبين. يعتقد براندن أنه يمكننا أن نحدد أكثر في الواقع شخصية «قاطعَي الطرق» هذين. وكتب مرقس أنه في وقت محاكمة يسوع كان في سجن أورشليم عدد من السجناء «الذين كانوا قد تمردوا». فإذا كان رفيقا يسوع قد سُحبا من بين هؤلاء المتمردين، فإنّ المشهد المروِّع في الجلجلة يفتقد التكامل أو أنّه ناقص: ملك اليهود المخلّص المفترض في الوسط، وإلى جانبه اثنان من قطاع الطرق المتعصبين - يتوافق المشهد مع كل ما نعرفه حول عقلية الضباط الاستعماريين المصممين على تلقين القانون والنظام للأهالي الثائرين.

اقتصرت تغطية الأناجيل الأربعة بأكملها على الدراما الكئيبة ليسوع في معاناته على الصليب بينما اختفى تلامذته من المشهد. لم يعتقد التلامذة أنّ المخلِّص المنتَظر يمكن أن يسمح بصلب نفسه. ولم يكن لديهم حتى الآن أدنى معرفة بأنّ ثقافة يسوع كانت هي ثقافة المنقذ المسالم عوضًا عن المنقذ المنتقم. في الواقع، وكما أشار براندن، اكتسب إنجيل مرقس مصداقيته المثيرة من خلال إخفاق التلامذة في إدراك سبب عدم قيام مخلِّصهم المنتَظر بتدمير أعدائه وإنقاذ نفسه من القتل.

بعد اختفاء جسد يسوع من الضريح فحسب، فُهم افتقاره الواضح للقوة الخلاصية. وبدأ عدد من التلامذة بامتلاك رؤية جعلتهم يدركون أنّ الاختبار العادي للخلاصية - النصر- لا ينطبق عمليًّا على يسوع. وبإلهام من رؤاهم، اتخذوا خطوة مهمة، لكن ليست جديدة كليًّا، بمناقشة أنّ موت يسوع لم يثبت أنه كان مخلِّصًا منتَظرًا كاذبًا آخر؛ بالأحرى، أثبت أن الرب قدّم إلى اليهود فرصة مثيرة أخرى ليروا أنفسهم يستحقون العهد. وسوف يعود يسوع إذا تاب الناس عن الشك به وطلبوا مغفرة الرب.

ليس هناك سبب للافتراض أنّ إعادة التفسير هذه لدلالة موت يسوع تفضي حالًا إلى رفض المعنى الحربي والسياسي لخلاصيته. فمعظم الأدلة تدعم وجهة النظر التي تمّت مناقشتها بصورة مقنعة من براندن، في أنّ معظم اليهود الذين انتظروا عودة يسوع في الفترة الممتدة بين صلبه وسقوط أورشليم

مكتبة الفكر الجديد

استمر في توقع المخلِّص المنتَظر الذي يطيح روما ويجعل من أورشليم عاصمة للإمبراطورية اليهودية المقدسة. في مستهل **أعمال الرسل**، وهو تفسير لوقا لما حدث بعد مقتل يسوع، احتلت الأهمية السياسية لعودة يسوع مركز الصدارة في عقول الرسل. السؤال الأول الذي طرحوه على يسوع الذي قام هو: «يا رب هل في هذا الوقت تردّ الملك إلى إسرائيل؟». ويصف مصدر آخر للعهد الجديد، هو سفر الرؤيا، عودة يسوع فارسًا يمتطي حصانًا أبيض وسط الزحام، يقاضي ويحارب، ويمتلك عينين كـ «لهب النار»، ويرتدي ثوبًا «مغموسًا بالدم»، ويحكم الأمم بـ «صولجان من حديد»، ويعود «ليطأ معصرة العنب بحنق إلهٍ غاضب هائج كلي القدرة».

هناك أيضًا بعض الأدلة المتقاربة حول هذه النقطة من مخطوطات لفائف البحر الميت. قلت منذ لحظة إنّ فكرة المخلِّص المنتَظر العائد من الموت لم تكن من دون سابقة. إذ إن مخطوطات البحر الميت تشير إلى «معلِّم الصلاح» الذي قتله أعداؤه لكنه عاد لإنجاز مهمته الخلاصية. وعلى غرار القمراويين، نظّم المسيحيون اليهود الأوائل أنفسهم في لجان بانتظار عودة «معلِّم صلاحهم».

نصّت أعمال الرسل على أن:

جميع الذين آمنوا كانوا معًا والأشياء كلها بينهم مشاع، وباعوا ممتلكاتهم وبضائعهم، واقتسموها مع الجميع، وفقًا لما يحتاجه كل شخص. ... ولم يبقَ بينهم أي محتاج، وباع كثير منهم ما يمتلكونه من أراضٍ وبيوت، وحملوا أثمان الأشياء المباعة وألقوها عند أقدام الرسل.

من المثير أنّ **مخطوطات البحر الميت** حوت وصفات لتأسيس جماعات من اليهود التائبين في المدن وتنظيمها بالطرائق الشيوعية ذاتها. وهذا دليل إضافي على أنّ الناشطين القمراويين والمسيحيين اليهود كانوا يستجيبون بالطرائق ذاتها للأوضاع الواحدة أو أنّهم كانوا فعليًّا ملامح أو فروعًا للحركة الحربية – الخلاصية الواحدة ذاتها.

مكتبة الفكر الجديد

كما أشرت في بداية هذا الفصل، لم تكن صورة يسوع كمخلِّص منتظر مسالم مكتملة على الأرجح حتى بعد سقوط القدس. وخلال الفترة الفاصلة بين موت يسوع وكتابة أول إنجيل، كان العمل جاريًا على الأرض بإشراف بولس من أجل عبادة خلاصية سلمية. لكن أولئك الذين كان من أجلهم يسوع بالمقام الأول مخلِّصا حربيًّا يهوديًّا، هيمنوا على الحركة طوال فترة توسع حرب العصابات التي قادت إلى مواجهة عام 68 بعد الميلاد. كما أنّ الخلفية العملية التي كُتبت في ظلها الأناجيل - الأناجيل التي تصور المخلِّص المنتَظر عالميًّا ومسالمًا ورعًا - جاءت في أثر الحرب اليهودية غير الناجحة ضد روما. وأصبح المخلِّص المنتَظر المسالم بصورة نقية ضرورة عملية عندما أضحى القائدان اللذان هزما تمامًا الثوريين اليهوديين الخلاصيين - فسباسيان وتيتوس - يحكمان الإمبراطورية الرومانية. قبل هذه الهزيمة، برزت ضرورة عملية بالنسبة إلى المسيحيين اليهود في أورشليم لأن يبقوا على ولائهم لليهودية. وبعد هذه الهزيمة، لم يعد المسيحيون اليهود في أورشليم يسيطرون على الجماعات المسيحية في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية، ومن بين كل هؤلاء، خصوصًا أولئك المسيحيين الذين عاشوا في روما وعانوا فسباسيان وتيتوس. وفي أعقاب الحرب الخلاصية غير الموفَّقة، دعت الضرورة العملية الملحة المسيحيين لإنكار أن عبادتهم قد نشأت خارج الاعتقاد اليهودي بالمخلِّص المنتَظر الذي سيسقط الإمبراطورية الرومانية.

قاد جماعةَ أورشليم ثلاثي كان يُطلَق عليه تسمية «الأركان» في أعمال الرسل، ويتكوّن من يعقوب وبطرس ويوحنا. من بين هؤلاء، كان يعقوب «أخ الرب»، كما نعته بولس (صلة النسب الدقيقة غير معروفة)، قد ظهر كونه شخصية بارزة. وكان يعقوب هو من قاد الصراع ضد محاولة بولس إضفاء الغموض على الأصول الحربية - الخلاصية اليهودية لحركة يسوع.

مع أنّ أورشليم بقيت مركز المسيحية حتى عام 70 بعد الميلاد، إلا أن عبادة جديدة سرعان ما انتشرت أبعد من حدود فلسطين لتشمل الكثير من مجتمعات التجار والحرفيين والعلماء اليهود في كل مدينة وبلدة في أنحاء

مكتبة الفكر الجديد

الإمبراطورية الرومانية. عرف يهود ما وراء البحار يسوع من خلال المبشرين الذين جالوا على الكُنُس الخارجية. كان بولس، وهو الأبرز بين هؤلاء المبشرين، قد وُلد باسم شاول الطرسوسي، يهوديًّا يتكلم اللغة اليونانية وقد حصل والده على المواطنة الرومانية له ولعائلته. أصر بولس على أنه قد أصبح رسولًا ليسوع من خلال سلطة الوحي ومن دون أي اتصال مباشر بالرسل الأصليين في القدس. ففي رسالته إلى أهل غلاطية، المكتوبة ما بين عامي 49 و57 بعد الميلاد، قال بولس إنه كان يبشّر في المنطقة العربية ودمشق لمدة ثلاث سنوات من دون أن يتكلم أبدًا إلى أي من الرسل الأصليين. وتضمنت الرسالة أنه في ذلك الوقت قام بزيارة قصيرة مع سمعان بطرس وتحدث إلى يعقوب، «أخ الرب».

في الخمس عشرة سنة التالية كان بولس على الدرب من جديد، مرتحلًا من مدينة إلى مدينة. كان أول من اهتدى على يديه الراسخون من اليهود تقريبًا. وكان لا بد من أن تكون الحالة كذلك لأنّ اليهود هم الذين كانوا أكثر اعتيادًا على السلالة النبوية لدرجة أنّ بولس ادّعى انتماء يسوع إليها. وحتى لو لم يدرس بولس مع الأحبار، ولم يتكلم العبرية، ولم يعتبر نفسه يهوديًّا، فقد وجد أنّ اليهود المنتشرين في كل مكان من شطر الإمبراطورية الرومانية الشرقي هم الناس الأكثر قابلية للاستجابة لدعوته إلى ثقافة يسوع. لم يكن اليهود من أكبر مجموعات الأفراد النازحين إلى الإمبراطورية الرومانية وحسب، بل كانوا من بين الأكثر نفوذًا؛ وحتى عام 71 بعد الميلاد تمتعوا بكثير من الامتيازات التي كانت ممنوعة على الأعراق الأخرى. وضع بولس نصب عينيه ما بين ثلاثة إلى ستة ملايين يهودي خارج فلسطين لاعتناق الدين الجديد – أكثر بمرتين ممّا يمكن ليعقوب أن يُدخلهم في الدين الجديد داخل فلسطين – وبصورة افتراضية كل يهودي في الخارج يعيش في مدينة أو بلدة.

بذل بولس جهدًا خاصًا للتجنيد في الأوساط غير اليهودية كلّما لاقى الصدود من قبل الجماعات اليهودية ما وراء البحار. لكن ذلك لم يكن جديدًا بحد ذاته؛ إذ ظهر منهم تيار ثابت من المتحولين إلى اعتناق الديانة اليهودية

مكتبة الفكر الجديد

تجذبهم الميزات الاجتماعية والاقتصادية التي تمتع بها اليهود نتيجة خبرتهم المديدة في الأوضاع العالمية. كان المتحولون الذكور مرحَّبًا بهم كونهم يهودًا ما داموا يرغبون في الانصياع للوصايا ويجرون عملية الختان. أما أعظم المستجدات المرافقة لتبشير بولس فلم تكن رسالته الخلاصية، بل رغبته في تعميد غير اليهود كونهم مسيحيين يهود من دون مضايقتهم بالختان أو توثيق أنفسهم يهودًا.

جاء في أعمال الرسل أنّ بولس عاد إلى أورشليم بعد غياب طويل، وناشد يعقوب وزعماء أورشليم عدم التدخل في جهوده الهادفة إلى تحويل غير اليهود إلى اعتناق المسيحية. كان رأي يعقوب بأنّه يمكن لغير اليهود أن يصبحوا مسيحيين من دون التعرض للختان، وذلك بوضع نبذ عبادة الأوثان والزنا وأكل لحوم الحيوانات المخنوقة أو المُدمّاة موضع الأولوية. لكن يعقوب وقادة أورشليم أصروا على أنّ المسيحيين غير المختونين كانوا أدنى من المسيحيين اليهود. وذكر بولس أنّه عندما زاره سمعان بطرس في أنطاكيا، تناول المسيحيون الطعام سوية. لكن بوصول لجنة تحقيق أرسلها يعقوب إلى الخارج، توقف سمعان بطرس مباشرة عن تناول الطعام مع المسيحيين غير المختونين، «خوفًا عليهم من الختان» - وذلك خشية أن يفشي أعضاء اللجنة من المسيحيين اليهود الأمر إلى يعقوب.

كانت الميزة التي قدمها بولس إلى أتباعه ما وراء البحار، هي التقليل من الدور المميز الذي كان سيخصص لأطفال إسرائيل في الإمبراطورية اليهودية المقدسة. ويضاف إلى ميزاته أيضًا تجاهل المكونات الحربية والسياسية عالمية الطابع في رسالة يسوع الخلاصية. لكن اجتهادات بولس الكونـي هذه أوجدت مشكلة استراتيجية غير قابلة للحل على الإطلاق. وهذا ما أوصله بالضرورة إلى نزاع عميق مع يعقوب وقادة القدس، ذلك أن بقاء مسيحيي أورشليم يتوقف على قدرتهم على الحفاظ على مكانتهم كونهم وطنيين يهودًا طيبي النوايا. ومن أجل الحفاظ على نفسه وسط مختلف الجماعات المنخرطة في الحرب المتصاعدة مع روما، كان من المهم أن يستمر يعقوب في التعبد في هيكل أورشليم، وأن

مكتبة الفكر الجديد

يحافظ أتباعه على صورة إخلاصهم للقانون اليهودي. ازداد إيمانهم بعهد يهوه، ولم يتناقص، وذلك من خلال اعتقادهم أن يسوع سيعود قريبًا إلى الظهور.

اتُّهم بولس بتحريض اليهود في المدن الأجنبية على تجاهل قوانين الديانة اليهودية والتعامل مع اليهودي وغير اليهودي وكأن لا فرق بينهما، كما لو كان اليهودي والمشرك يستحقان سواسية نعمة الفداء الخلاصي الوشيك. لو كُتب لمثل هذا التفسير لثقافة يسوع أن ينتشر في أورشليم لهلك يعقوب وأتباعه. وبكلمات براندن: «لم يكن مثل هذا العرض، من وجهة النظر اليهودية، شائنًا من وجهة النظر الكهنوتية وحسب، بل إنّه كان يرقى إلى مستوى ردّة من النوع الأكثر صدمًا، تشمل كلًّا من العرق والدين».

لا تدعم الأدلة المحفوظة عن الممارسات والمقولات المنسوبة إلى يسوع محاولة بولس إلغاء الفرق بين اليهودي وغير اليهودي في مجتمعات ما وراء البحار. ففي الإنجيل المنسوب إلى مرقس، على سبيل المثال، أن امرأة سورية يونانية ارتمت عند قدمي يسوع وتوسّلت إليه أن يطرد الشياطين من ابنتها. ورفض يسوع ذلك: «دعوا البنين أولًا يشبعون، لأنه ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب». ألحّت المرأة السورية اليونانية ثانية، وقالت: «والكلاب أيضًا من تحت الطاولة تأكل فُتات البنين». عندئذ تراجع يسوع عن قراره وعالج ابنة المرأة. «البنون» هنا يمكن أن تعني «أبناء إسرائيل» و«الكلاب» فحسب يمكن أن تعني غير اليهود فحسب، خصوصًا الأعداء مثل السوريين اليونانيين. احتُفظ بهذا النوع من الأحاديث والأقوال في إنجيل مرقس والأناجيل الأخرى للسبب عينه وهو أنّ الأفعال والأقوال الانتقامية والعرقية الأخرى لم تكن قد حُذفت تمامًا. كان ثمة تقاليد شفوية حية استندت إليها الأناجيل. كما أن كثيرًا من شهود العيان مثل يعقوب وبطرس ويوحنا كان لايزال نشيطًا، كذلك شهود العيان الذين أصرّوا على أصالة الموضوعات الحربية - الخلاصية والعرقية. وإلى جانب ذلك، كان مرقس يهوديًّا بالولادة، وبالتالي لم يكن على الأرجح متحررًا بشكل كامل من بعض درجات التناقض في ما يخص التمييز العرقي الذي أصرّ عليه مؤسسو الكنيسة الأم في أورشليم.

مكتبة الفكر الجديد

لحماية جماعة أورشليم، أرسل يعقوب مبشرين منافسين مزوّدين بتعليمات من أجل الحفاظ على الأهمية اليهودية للمسيحية، ولم يكونوا بمنأى عن تهديد أتباع بولس بتفنيد مزاعم وثائقه. كان بولس ضعيفًا أمام هذه الهجمات لأنّه اعترف بعدم رؤية يسوع إلا في الحلم. كما أنه كان بحاجة إلى دعم الكنس اليهودية في الخارج. وهكذا، وفي عام 59 بعد الميلاد، على الرغم من الهواجس وتحذيرات الوحي، قرّر بولس العودة إلى أورشليم ليكون فيها مع متَّهِميه.

مثُل بولس بين يدي يعقوب شخصًا مذنبًا يحضر بين يدي قاض. عاتب يعقوب بولس قبل كل شيء بأنّه كان ثمة الآلاف من يهود أورشليم الذين آمنوا بيسوع، حتى إنهم جميعًا «متحمسون للقانون». ثم أمر بولس أن يظهر بوضوح بأنّه كان يهوديًّا أمينًا وأن الحملات ضده لم تكن موجودة - لإظهار «أنك أشدّ من يمشي على السراط المستقيم وأكثر من يحفظ العهد». وطلب من بولس تقديم الشعائر المطهرة لمدة سبعة أيام في هيكل القدس. قبل بولس هذه المطالب، ليثبت أن: (1) يعقوب، أخ الربّ، كان القائد الأعلى للنصرانية في ذلك الوقت؛ (2) ما زال يعقوب والمسيحيون اليهود يتعبدون في الهيكل- ليس لديهم «كنيسة» منفصلة؛ (3) آمن المسيحيون اليهود أنّ يسوع سيعود لينجز العهد الداوودي بأن يجعل من أورشليم مركز الإمبراطورية اليهودية المقدسة؛ (4) جميع المؤمنين بيسوع ويهوه، التائبون والمعمّديون، سوف يُفتدون، لكن المسيحيين اليهود سوف يُفتدون أكثر من الباقين.

إنّ محاولة بولس تجديد تأكيده إخلاصه للمثال القومي اليهودي انقطعت بعد فترة وجيزة، بالخيانة طبعًا، إذ تعرف إليه مجموعة حجاج من آسيا، وأثاروا الغوغاء، وسحبوه من الهيكل، وبدأوا بضربه بقصد الموت، إلى أن تدخل قائد الحرس الروماني حينذاك، وهو من أنقذ بولس في تلك الحادثة، فمثل أمام المحكمة من قبل الكهنة ذوي المراتب العليا، ونجا من الموت ثانية بأعجوبة. كذلك حيكت مؤامرات كثيرة ضده، لكنه استطاع أخيرًا الهرب من فلسطين بالتذرّع بمواطنيته الرومانية والمطالبة بأن يحاكمه الرومان، وليس اليهود.

مكتبة الفكر الجديد

أُرسل إلى روما ووضع رهن الإقامة الجبرية، لكن الذي حصل له بعد ذلك غير معروف بدقة. لعل ما حصل أنه استشهد في عام 64 بعد الميلاد، عندما قرر الإمبراطور نيرون إضرام النار في روما – قال أعداؤه إنه هو نفسه أراد محو الأحياء الفقيرة المحيطة بقصره – لتلائم طائفة جديدة متعطّشة للدم كانت قد نشأت بين اليهود، كان أعضاؤها «أعداء للبشر».

فات الأوان بالنسبة إلى بولس، إذ غيّر اندلاع حرب واسعة النطاق في فلسطين بصورة جذرية السياق السياسي لمهمته المجهَضة. وبحلول عام 70 بعد الميلاد لم تبقَ «الكنيسة» الأم المسيحية اليهودية في أورشليم يدًا عليا فوق الجماعات المسيحية ما وراء البحار. وتوقفت عن كونها قوة ذات شأن، ويصح القول إنها بقيت حية بعد سقوط أورشليم. وتّرت الثورة الممتدة بين عامي 68 و73 بعد الميلاد العلاقة بشكل كامل بين يهود ما وراء البحار والرومان. ثم أطاحت الأشخاص المسؤولين بالذات عن هزيمة اليهود في محاولتهم السيطرة على الإمبراطورية. في عام 71 بعد الميلاد أقام فسباسيان وابنه تيتوس احتفالًا كبيرًا بالنصر – إحياء لذكرى مرور تيتوس تحت قوس النصر في روما – وخلال الاحتفال، عُرض الأسرى اليهود والغنائم في الشوارع، شُنق آخر قائد لقطاّع الطرق المتعصبين في محكمة أورشليم، شمعون بن جيوراس، في المحكمة. بعدئذ تعامل فسباسيان بقسوة مع اليهود في الإمبراطورية، فحدَّ من حرياتهم وحوّل ضريبة هيكلهم إلى بيت مال ساتورن. وعلى امتداد باقي القرن الأول بعد الميلاد، صار العداء للسامية معلمًا ثابتًا في حياة الرومان وخطاباتهم؛ وترافق ذلك مع تصاعد التحدي والتمرد والقمع المكثف الذي قاد في عام 135 بعد الميلاد إلى المعركة الفاصلة مع بار كوخبا.

استنتج براندن من خلال الضغط الذي فرضه مرقس بسبب تدمير الهيكل في أورشليم عقابًا لقتلة يسوع، أنّ هذا الإنجيل – وهو أول ما أُلف من الأناجيل ونموذج عن الباقي – كان قد كُتب في روما بعد سقوط أورشليم. وكما يقول براندن، كُتب على الأرجح بوصفه ردة فعل مباشر على الاحتفالات العارمة بالنصر في عام 71 بعد الميلاد.

مكتبة الفكر الجديد

كانت الشروط الملائمة لانتشار عبادة المخلِّص المسالم موجودة بكامل زخمها. انضمّ المسيحيون اليهود في تلك الآونة بسهولة إلى المتحولين المشركين من غير اليهود لإقناع الرومان أنّ مخلِّصهم كان مختلفًا عن المخلِّصين المنتَظرين لقطاع الطرق المتعصبين الذين تسببوا بالحرب ويستمرون في إثارة الاضطرابات: فالمسيحيون، بخلاف اليهود، مسالمون لا يؤذون، وليست لديهم طموحات دنيوية. كما أن مملكة الرب المسيحية لم تكن في هذا العالم، والخلاص المسيحي يوجد في الحياة الأبدية بعيدًا من الخطر، مات المخلِّص المسيحي كي يجلب الحياة الأبدية لجميع البشر؛ ولم تشكل تعاليمه تهديدًا للرومان، بل لليهود وحسب، كان الرومان بريئين من أي ذنب بخصوص موت المسيح، واليهود وحدهم قتلوه بينما وقف بيلاطس البنطي إلى جانبه، عاجزًا عن إنقاذه. يكمن سر المخلِّص المسالم في ساحات المعارك وبعد معركتين فاصلتين أرضيتين. إنّ ثقافة المخلِّص المسالم كما نعرف لم تكن لتزدهر في السباق إلى المعركة المتوجهة ضد «أبناء الظلمة».

كان المصدر الأولي للمتحولين إلى هذا الدين الجديد – إن لم يكن بالعدد، فهو بالتأكيد بالنفوذ – هم اليهود الحضريون المتجمعون في كامل منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط. وبخلاف الأسطورة، لم تقم المسيحية بأي تقدم على الإطلاق في أوساط الكتلة الكبيرة من الفلاحين والعبيد الذين شكّلوا الكتلة الرئيسة للسكان في الإمبراطورية. ولهذا، عندما أشار المؤرخ سالو البارون، أن الكلمة اللاتينية (paganus) تعني «الفلاح»، أصبحت بالنسبة إلى المسيحيين مرادفة لـ «الوثني». كانت المسيحية بوضوح دين الجماعات الحضرية النازحة. «في المدن التي ارتفعت فيها نسبة اليهود لتصل إلى ثلث السكان أو أكثر، كما قيل، تقدمت هذه التشكيلة الجديدة من اليهودية مبتهجة بالنصر».

كان اليهود الذين بقوا يهودًا أكثرَ من مجرد ضحايا للاضطهاد الروماني مقارنة باليهود الذين أصبحوا مسيحيين. لم تبدأ فترة الاضطهاد الإمبراطوري الكامل للمسيحيين في عهد نيرون، إنما في مرحلة لاحقة – بعد عام 150 بعد الميلاد. وخلال هذا الوقت، ولأنهم تركزوا في المراكز الحضرية، تغلغلوا في

مكتبة الفكر الجديد

الطبقة الرومانية العليا، محتفظين ببرامج الرفاه الاجتماعي الفاعلة، وبنوا خزائن مالية مستقلة، وشركات عالمية يرئسها مديرون مهرة، وسرعان ما أصبحت الكنائس المسيحية مصدر تهديد للقانون والنظام الرومانيين. أضحوا «دولة داخل دولة».

سوف أُحجم عن متابعة سلسلة الحوادث العالمية التي قادت في نهاية المطاف إلى تأسيس المسيحية باعتبارها دينًا للإمبراطورية الرومانية. لكن من الضرورة القول: عندما اتّخذ الإمبراطور قسطنطين تلك المبادرة المهمة، لم تعد المسيحية بعد ذلك ثقافة المخلِّص المنتَظر المسالم؛ إذ جرى التغيير الذي أحدثه قسطنطين في عام 311 بعد الميلاد عندما قاد جيشًا صغيرًا عبر جبال الألب. لدى اقترابه من روما مرهقًا لاحت له رؤية بأنّ الصليب ينتصب فوق الشمس، ورأى على الصليب كلمات (in hoc signo vinces) – «بهذه العلامة سوف تنتصر». ظهر يسوع لقسطنطين ووجّهه لتزيين بيرقه العسكري بالصليب. تحت هذه الراية الجديدة والغريبة، انطلق جنود قسطنطين للفوز بالنصر الحاسم. استعادوا الإمبراطورية وضمنوا بهذه الوسيلة أنّ صليب المخلِّص المنتَظر المسالم سوف يشهد على موت ملايين لا حصر لها من الجنود المسيحيين وأعدائهم وصولًا إلى الوقت الحالي.

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Allegro, John M. *The Treasure of the Copper Scroll*. New York: Doubleday, 1964.

Brandon, S. G. F. *Jesus and the Zealots: A Study of the Political Factor in Primitive Christianity*. New York: Scribner, 1968.

_____. *The Trial of Jesus of Nazareth*. London: B. T. Batsford, 1968.

Bultman, Rudolf. *Primitive Christianity in Its Contemporary Setting*. New York: World Publishing Co., 1966.

Cullmann, Oscar. *Jesus and the Revolutionaries*. New York: Harper and Row, 1970.

_____. *State in the New Testament*. New York: Harper and Row, 1956.

Edwards, George R. *Jesus and the Politics of Violence*. New York: Harper and Row, 1972.

Grant, Robert M. *A Historical Introduction to the New Testament*. New York: Harper and Row, 1963.

_____. *Religion in Ancient History*. New York: Scribner, 1969.

Grant, Robert. *Augustus to Constantine: The Thrust of the Christian Movement into the Roman World*. New York: Harper and Row, 1970.

Sandmel, Samuel. *The First Christian Century in Judaism and Christianity*. New York: Oxford University Press, 1969.

Schweitzer, Albert. *The Quest of the Historical Jesus*. New York: Macmillan, 1964.

مكتبة الفكر الجديد

عصي المكانس ومجمع السّحَرة

مكتبة
الفكر الجديد

كما أعاننا الرجال الرؤساء على فهم الأهمية العملية للمخلِّصين، ولأننا الآن نعرف شيئًا ما عن المخلِّصين سوف نتمكن من فهم الأهمية العملية للسحرة بصورة أفضل. لكن مرة أخرى عليّ أن أحذركم من أنّ العلاقة لن تكون واضحة. ويجب أن يؤخذ عدد من القضايا التمهيدية في الحسبان قبل أن تُستخلَص هذه العلاقة.

تشير التقديرات إلى أنّ 500 ألف شخص كانوا قد أُدينوا بالسحر وأُحرقوا حتى الموت في أوروبا بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر. وكانت جرائمهم: الاتفاق مع الشيطان، الرحلات عبر الهواء إلى مسافات شاسعة راكبين على عصي المكانس، اللقاء مع الشياطين في الاجتماعات، عبادة الشيطان، تقبيل الشيطان تحت الذيل، الجماع مع إنكوبي (incubi)، وهي شياطين مذكّرة مزوّدة بقضبان من الجليد؛ الجماع مع ساكوبي (saccubi)، وهي شياطين مؤنثة.

كما أضيفت غالبًا تهم أخرى أكثر دنيوية: قتل بقرة الجيران، التسبب بعواصف البرد، تخريب المحاصيل، سرقة الأطفال الرضع وأكلهم، غير أن كثيرًا من السحرة كان قد أُعدم بلا جريمة سوى الطيران في الهواء لحضور محفل السحرة.

أريد التمييز بين نوعين منفصلين من ألغاز السحر. بداية، ثمة مشكلة: كيف يمكن أن يعتقد أي شخص أنّ السحرة يطيرون في الهواء على عصيّ المكانس. ومن ثم هناك مشكلة منفصلة إلى حد كبير، وهي لماذا يمكن أن تصبح هذه الفكرة شعبية إلى هذه الدرجة في القرنين السادس عشر والسابع عشر. أعتقد أنّ الحلول العملية والدنيوية يمكن أن توجد بالنسبة إلى كلا اللغزين. دعونا أولًا نركز على: لماذا وكيف طار السحرة إلى الاجتماعات مع الشياطين.

مكتبة الفكر الجديد

على الرغم من وجود عدد كبير من «الاعترافات»، إلا إنّ القليل معروف في الواقع عن تواريخ حالات الاعتراف الذاتي للسحرة. أكد بعض المؤرخين أنّ هذا الخليط الشاذ والمعقد - الاتفاق مع الشيطان، والطيران على عصا المكنسة الطائرة، والاجتماع بالشياطين - كان اختراعًا من حارقي السحرة وليس من السحرة المحروقين. لكن كما سنرى، كان لدى بعض المتهمين في الأقل إحساس ما قبل المحاكمة بكونهم سحرة واعتقدوا بحماسة أنّهم يمكن أن يطيروا في الهواء ويجامعوا الشياطين.

كان الاضطراب الحاصل يقع في أثناء الاعترافات بسبب أن الحصول على الاعترافات كان يحصل عادة بينما يتعرض الساحر المتّهم للتعذيب. كان التعذيب يطبق بصورة روتينية حتى يعترف الساحر أنه عقد اتفاقًا مع الشيطان وطار إلى الاجتماع به. وكان الساحر يستفيض حتى يسمي الأشخاص الآخرين الذين كانوا موجودين في يوم الاجتماع. وإذا حاول ساحر التراجع عن اعترافاته، كان التعذيب يُطبق بشكل مكثف حتى تُستعاد الاعترافات الأصلية. ويُترك ذلك الشخص المتَّهم بالسحر بين خيار الموت حالًا والسوق مباشرة إلى وتد الحرق أو العودة بصورة متكررة إلى غرف التعذيب. معظم الأشخاص اختارَ الوتد. ومكافأة لموقفهم المتعاون كان بإمكان السحرة التائبين أن يأملوا بالشنق قبل أن تشتعل النار.

دعوني أصف حالة واحدة من بين مئات الحالات التي وثقها مؤرخ السحر الأوروبي تشارلز هنري لي. وهي حادثة جرت في عام 1601 في مدينة أوفنبرغ، الموجودة في ما سيعرف لاحقًا بألمانيا الغربية. اعترفت امرأتان متشردتان تحت التعذيب بأنّهما ساحرتان. وعندما ألحوا عليهما لتحديد الأشخاص الآخرين الذين التقتا بهم يوم الاجتماع بالشيطان، سمّتا زوجة الخباز، إلز جوينر. أُحضرت إلز جوينر لتمثل أمام المحققين في 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1601، ونفت بقوة أي معرفة لها بالشعوذة. تعرضت لحوافز كي تجنب نفسها آلامًا لا طائل لها، لكنها أصّرت على نفيها. كانت يداها مقيدتين خلف ظهرها ورُفعت عن الأرض بواسطة حبل مربوط بمعصميها - وهي طريقة تعذيب تُعرف

مكتبة الفكر الجديد

بالوضع المقلوب. بدأت المرأة بالصراخ، وقالت إنها ستعترف، وتوسّلت أن ينزلوها. وعندما أُنزلت، كان كل ما قالته «فليسامحهم الأب، لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون». أُعيد تطبيق التعذيب، ولم ينجح إلا في جعلها تفقد الوعي. تمت إحالتها إلى السجن وعُذِّبت ثانية في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر ورُفعت ثلاث مرات بطريقة الوضع المقلوب – مع ربط أوزان متزايدة تدريجيًّا بجسمها. وفي الرفع الثالث صرخت المرأة قائلة إنها لم تعد تتحمل. أنزلوها، واعترفت بأنها تمتعت «بالحب مع شيطان». لم يكتف المحققون ورغبوا في الاستزادة. علّقوها من جديد مع أوزان أثقل وحضّوها على قول الحقيقة. وعندما عادت إلى الجلوس من جديد، أصرّت إلز أنّ «اعترافاتها كانت كاذبة للتهرب من المعاناة» وأنّ «الحقيقة هي أنّها بريئة». في غضون ذلك اعتقل المحققون أغاثي ابنة إلز. أخذوا أغاثي إلى زنزانة وضربوها حتى اعترفت بأنّها وأمها كانتا ساحرتين وتسببتا بتلف المحاصيل كي يزداد سعر الخبز. وعندما اجتمعت إلز وأغاثي معًا، تراجعت البنت عن الجزء من الاعترافات الذي يدين أمها. لكن ما إن أصبحت أغاثي لوحدها مع المحققين حتى أعادت تأكيد الاعتراف وتوسّلت إليهم ألا يجمعوها مع أمها وجهًا لوجه من جديد.

أُخذت أغاثي إلى سجن آخر ومورس عليها التعذيب باللوالب. وفي كل فترة استراحة كانت تعيد تأكيد براءتها. وأخيرًا اعترفت مرة أخرى بأنّها كانت عاشقة لشيطان ولا شيء أكثر من ذلك. استُؤنف التعذيب في 11 كانون الأول/ ديسمبر بعد أن نفت من جديد التّهم كلها الموجهة إليها. في هذه المرة، أغمي عليها. ورشق الماء البارد على وجهها، فصرخت وتوسّلت ليدعوها في حال سبيلها. «لكن ما إن توقف التعذيب حتى سحبت اعترافها». وفي نهاية المطاف اعترفت أنّ عشيقها الشيطان أخذها مرتين إلى اجتماعات شيطانية. طلب المحققون من إلز معرفة من رأت في تلك الاجتماعات، فسمّت شخصين – السيدة سبايس والسيدة ويس. ووعدت بأن تكشف المزيد من الأسماء في ما بعد. لكن في 13 كانون الأول/ ديسمبر عادت وأنكرت اعترافها، على الرغم من الجهود التي بذلها الكاهن؛ إذ واجهها بدليل إضافي حصل عليه من أغاثي. في 15 كانون الأول/ ديسمبر أخبرها المحققون أنّهم سوف «يتابعون التعذيب

مكتبة الفكر الجديد

دونما شفقة أو رحمة حتى تخبرهم الحقيقة». أصبحت إلز واهنة ولكنها أصرّت على براءتها. كرّرت اعترافها السابق لكنها أصرّت على أنها أخطأت في ما يتعلق برؤية السيدة سبايس والسيدة ويس في يوم الاجتماع بالشيطان: «كان ثمة حشد كبير وفوضى يصعب معها التمييز، خصوصًا أنّ كل الحضور حاولوا ما أمكنهم أن يغطوا وجوههم». وعلى الرغم من التهديد بمزيد من التعذيب، رفضت سحب اعترافها عند القَسَم الأخير. أُحرقت إلز جوينر حتى الموت في 21 كانون الأول/ ديسمبر 1601.

إضافة إلى طريقة التعذيب بوضعية المقلوب والرّف واللولب، استخدم صيادو السحرة الكراسي بالنتوءات الحادّة التي تُسخن من الأسفل، والأحذية المربوطة بحجارة الطوب، والأحزمة المزوّدة بالإبر، والحديد المحمّى، والكماشة الحامية، والتجويع، والحرمان من النوم. كتب أحد النقاد المعاصرين لجنون السحرة، ويدعى جوهان ماتيوس ميفارث، أنّه سيهب ثروة إن أمكن إبعاد ذكرى ما رآه يجري في غرف التعذيب:

رأيت أطرافًا تمّ فصلها، وعيونًا دُفعت خارج الرأس، وأقدامًا مبتورة عن الساقين، وأوتارًا ملتوية من المفاصل، وعظام كتفٍ انتُزعت من مكانها، وأوردة عميقة متورمة، وأوردة أخرى سطحية مدفوعة إلى الداخل، ثم ضحية معلّقة عاليًا وسقطت فجأة، لتتلوى على نفسها، رأس في الأسفل وقدمان في الأعلى. رأيت جلادًا يسوط مع الويلات، وضربًا بالقضبان، وسحقًا بالمسامير وإثقالًا دائمًا بالأوزان، ووخزًا بالإبر، وربطًا بالحبال، وكيًّا بالكبريت، وصبًّا للزيت وحرقًا بالمشاعل. باختصار، يمكن أن أؤدي الشهادة، ويمكن أن أوصِّف، ويمكن أن أدين انتهاك الجسم البشري.

على امتداد تاريخ جنون السحر، كان يجب لأي اعتراف انتُزع تحت التعذيب أن يتم التأكد منه قبل صدور الحكم. وهكذا فإنّ سجلات حالات السحر تحتوي كلها على صيغة: «فلان وفلان من أصحاب الإرادة الحرة أكدوا أنّ الاعتراف قد أُخذ تحت التعذيب». لكن وكما أشار ميفارث، كانت هذه الاعترافات عديمة القيمة بهدف فصل الساحرات الحقيقيات

مكتبة الفكر الجديد

عن الزائفات. ماذا يعني ذلك؟ يتساءل ميفارث، عندما يواجه أحدهم هذه الصيغة: «مارغريتا، أمام هيئة المحكمة، لديها الرغبة الحرة لتأكيد أنّه تمّ أخذ الاعتراف منها تحت التعذيب»؟

هذا يعني، أنها عندما اعترفت بعد تعذيب لا يُحتمل، أنّ الجلاد قال لها، «إذا نويتِ إنكار ما اعترفتِ به، أخبريني الآن لأقوم بعملي بصورة أفضل. وإذا أنكرت أمام المحكمة، تعودين إلى يديّ وستجدين أنني لعبت معك فحسب حتى الآن، لأنني سوف أعاملك بحيث استدرّ دموع الحجر». وعندما جيء بمارغريتا أمام المحكمة، كانت مقيّدة اليدين بإحكام لدرجة «تفور الدماء منهما». وعلى جانبيها وقف كل من السجان والجلاد، وخلفها كان ثمة حراس مسلحون. وبعد قراءة الاعتراف، سألها الجلاد إذا كانت تؤكد الاعتراف أو تنفيه.

أصرّ المؤرخ هوف تريفر - روبر على أنّ كثيرًا من الاعترافات كانت تُقدَّم إلى السلطات العامة من دون دليل على التعذيب. ولكن حتى مثل هذه الاعترافات «التلقائية» و«المعطاة بحرية» ينبغي أن يجري تقويمها في مقابل الأشكال الأكثر مكرًا من الإرهاب الذي كان تحت تصرف المحققين والقضاة. كانت الممارسة المتبعة بين محققي السحر هي أولًا التلويح بالتعذيب، ثم وصف الأدوات المستعملة، ومن ثم تُعرض الأدوات بالفعل. يمكن أن تُنتزع الاعترافات في أي مكان على الدوام. ومن الممكن أن تحجب آثار هذه التهديدات «الاعترافات» قبل المحاكمة، التي تبدو اليوم وكأنّها «تلقائية». أنا لا أنفي وجود اعترافات حقيقية أو ساحرات «حقيقيات»، لكن يبدو لي أنّ ثمة تحريفًا كبيرًا قام به قسم من الاختصاصيين الجدد في التعامل مع التعذيب وكأنّه كان جانبًا بسيطًا في مجريات التحقيق في حالات السحر. ولم يكن المحققون يكتفون قط ما لم تسمِّ الساحرات المعترفات مشتبهًا بهم إضافيين، الذين بعد ذلك كانوا أنفسهم يُتَّهمون ويُعذَّبون بصورة روتينية.

يورد ميفارث حالة امرأة عجوز تعرّضت للتعذيب ثلاثة أيام، واعترفت للرجل الذي كانت قد سمَّته، «أنا لم أرك أبدًا في يوم الاجتماع بالشيطان، لكن

مكتبة الفكر الجديد

كان يجب عليّ أن أتّهم أحدًا ما لإنهاء التعذيب، وخطرتَ أنت على بالي لأنّك، عندما أخذوني إلى السجن، التقيت بي وقلت لي «إنني لا أصدّق ما اتهمتِ به. أنا طلبت منك الصفح، لكن إذا تعذبت ثانية، سأتّهمك من جديد». أعيدتَ المرأة إلى آلة التعذيب – الرف وأكّدت قصتها الأصلية. أنا لا أرى كيف كان جنون السحر سيتّهم، من دون التعذيب، مثل هذا العدد الكبير من الضحايا، ولا يهم عدد الناس الذين اعتقدوا حقًّا أنّهم طاروا للاجتماع بالشياطين.

يفترض أن لكل مجتمع في العالم نمطًا ما من الأفكار السحرية. لكن جنون السحر الأوروبي كان يفوقها شراسة، كما أنه استمر لمدة طويلة وأوقع ضحايا أكثر من أي ظاهرة أخرى مشابهة. عندما كان يتم الاشتباه بالسحر في المجتمعات البدائية، كان يمكن أن يُستخدم بعض الوسائل المؤلمة كونها جزءًا من محاولة تحديد الذنب والبراءة. لكن لم أعرف أي حالة كان فيها السحرة يعذَّبون للاعتراف بهوية سحرة آخرين.

حتى في أوروبا، استُخدِم التعذيب بهذه الطريقة بعد عام 1480 فحسب. ولم يتم إعدام أي شخص قبل عام 1000 بعد الميلاد إن زعم جار رؤيته مع الشيطان. اتهم الناس بعضهم بعضًا بأنّهم سحرة ومشعوذون ويمتلكون قوى غير طبيعية لفعل الشّر. وكان ثمة كثير من التكهنات حول النساء اللواتي يمكن أن يطرن عبر الهواء لمسافات بعيدة وبسرعات هائلة. لكن السلطات لم تهتم كثيرًا بمطاردة السحرة بصورة منهجية وإجبارهم على الاعتراف بجرائمهم. في الواقع، أكدت الكنيسة الكاثوليكية أنه لم يكن في الأصل مثل هذه الأشياء كالساحرات الطائرات عبر الهواء. وفي عام 1000 بعد الميلاد كان الاعتقاد ممنوعًا أنّ مثل هذه الرحلات حدثت بالفعل؛ لكن لاحقًا، بعد عام 1480، صار الاعتقاد أنّها لم تحدث، ممنوعًا. في عام 1000 بعد الميلاد أكدت الكنيسة رسميًّا أن ركوب الساحرات ليس سوى وهم ابتدعه الشيطان. وبعد 500 عام، أكدت الكنيسة رسميًّا أن أولئك الذين ادّعوا أنّ الركوب مجرد وهم هم أنفسهم حلفاء الشيطان.

مكتبة الفكر الجديد

كانت وجهة النظر الأقدم محكومة بوثيقة تدعى تشريع إبيسكوبي الكنسي[1] (Canon Episcopi). وجاء في هذا التشريع، وهو يرجع إلى الناس الذين اعتقدوا أنّ عصابات من الساحرات يطرن خلال الليل، التحذير التالي: «يعتقد العقل الكافر أنّ هذه الأشياء لا تحدث في الروح بل في الجسد». بمعنى آخر، يمكن أن يدفعكم الشيطان إلى الاعتقاد أنكم أو غيركم تذهبون في جولات ليلية، لكن لا أنتم ولا هم يمكن أن تقوموا بذلك بالفعل. إنّ اختبار ما يعني ذلك «بالفعل» واختلافه الحاسم عن التعاريف اللاحقة لـ «الواقع» هو أنّ لا أحد ممن حلمتم بهم أنتم وأتباعكم المؤمنون الذين رافقوكم في الركوب يمكن أن يُتّهم جذافًا. إنّه مجرد حلم بمن كانوا هناك، والآخرون لا يخضعون للمساءلة عمّا كانوا يفعلونه في أحلامكم. والحالم، أيًّا كان، لديه أفكار شريرة ويجب أن يُعاقب - ليس بالحرق، بل بالنَّبذ.

مرت قرون عدة قبل التراجع عن تشريع إبيسكوبي، واعتُبر إنكار أنّ السحرة نقلوا أنفسهم بالجسد وبالروح، جريمة هرطقة. وما إن ترسخت واقعية الرحلة، حتى صار من الممكن استجواب كل ساحرة اعترفت عن الآخرين الذين حضروا الاجتماع مع الشيطان. تمّ تطبيق التعذيب في المنعطف الذي يضمن حدوث ردة الفعل الناتج. كما في النموذج المتقدم للأفران الذرية، فإن كل ساحرة محروقة سوف تقود آليًّا إلى اثنين أو ثلاثة مرشحين للحرق. وللمساعدة في أن يشتغل النظام بسلاسة، كانت ثمة إضافات أخرى. ضُبطت النفقات من خلال إجبار عائلة الساحرة على تسديد فاتورة خدمات المعذِّبين والجلادين. كما سددت العائلة أيضًا تكاليف حزم الحطب والمآدب التي أقامها القضاة بعد الحرق. واشتدت الحماسة من أجل صيد الساحرات بين المسؤولين المحليين منذ أن خُوِّلوا بمصادرة كامل عقارات أي شخص مدان بالسحر.

---

(1) وجد هذا التشريع ضمن تشريعات الكنيسة في العصور الوسطى. وهو مصدر مهم على الاعتقاد الشعبي والعادات الوثنية التي بقيت حية في فرنسا عشية تشكيل الإمبراطورية الرومانية المقدسة. دان هذا القانون السحر، واستند إليه معارضو السحر في القرن السادس عشر.

مكتبة الفكر الجديد

اكتملت جوانب منظومة صيد الساحرات المخضرمة في وقت مبكر من القرن الثالث عشر، لكن ليس كونها جزءًا من النضال ضد الساحرات، ذلك أن الكنيسة أذنت في البداية باستخدام التعذيب ليس ضد الساحرات، بل ضد أعضاء المنظمات الكنسية غير المشروعة التي انبثقت في مختلف أنحاء أوروبا مهددة بكسر احتكار روما لضريبة الأعشار والطقوس الدينية. وبحلول القرن الثالث عشر، على سبيل المثال، تطور الألبيون (ويطلق عليهم أيضًا الطهرانيون) في جنوب فرنسا كونهم جسمًا كنسيًا مستقلًا وقويًا مع رجال الإكليروس الخاصين بهم الذين اجتمعوا علنًا تحت راية حماية الفصائل المنشقة من النبلاء الفرنسيين. وكان البابا قد دعا إلى حرب مقدسة - وهي الحملة الصليبية الألبية - للحفاظ على جنوب فرنسا نصرانيًا. وتمت إبادة الألبيين في نهاية المطاف، لكن كثيرًا من طوائف الهرطقة الأخرى مثل الولدانيين (Waldenses) والفودواة (Vaudois) حلت مكانها. وبغرض محاربة هذه الحركات الهدّامة، أنشأت الكنيسة تدريجيًا محاكم التفتيش، مكتبًا شبه عسكري خاص، وظيفته الوحيدة هي استئصال الهرطقة. وبسبب ملاحقة محاكم التفتيش في فرنسا وإيطاليا وألمانيا للهراطقة، لجأوا إلى التخفي وشكلوا خلايا سرية، وعقدوا اجتماعات بعيدًا من الأنظار. وعندما وجدت محاكم التفتيش البابوية أن جهودها تُحبط من خلال عمليات الأعداء السرية، طلبت الإذن باستخدام التعذيب لإجبار الهراطقة على الاعتراف وتسمية شركائهم. منح البابا ألكسندر الرابع هذا الإذن في منتصف القرن الثالث عشر.

بينما كان الولدانيون والفودواة يتعرضون للتعذيب، كانت الساحرات مازلن يتمتعن بحماية تشريع إيبسكوبي الكنسي. كان السحر جريمة، لكنه لم يكن هرطقة - من باب أن الاجتماع بالشيطان كان تصورًا من نسج الخيال. وبمرور الوقت، اعترى محاكم التفتيش البابوية الاضطراب بسبب نقص الولاية القضائية على حالات السحر. وقالوا إنّ السحر لم يعد كما كان عليه في أيام قانون إيبسكوبي الكنسي. لذلك تم تطوير نوع جديد وأخطر بكثير من السحر - الساحرة التي يمكن أن تطير واقعيًا للاجتماع بالشياطين. وكانت تلك الاجتماعات تمامًا مثل اجتماعات طوائف الهرطقة السرية، لكن الطقوس كانت

مكتبة الفكر الجديد

أكثر إثارة للاشمئزاز. فإذا كان يمكن للساحرات أن يُعذبن مثل الهراطقة الآخرين فإنّ اعترافاتهن يمكن أن تفضي إلى اكتشاف هيئة واسعة من المتآمرين السريين. في نهاية المطاف تنازلت روما، وأصدر بابا يدعى إينوسنت مرسومًا بابويًّا في عام 1484 أذِن بموجبه للمحققَين هنريش إنستيتر وجاكوب سبرينجر باستخدام السلطة الكاملة في الاستجواب لاستئصال الساحرات من ألمانيا كلها.

أقنع إنستيتر وسبرينجر البابا بالحجج التي وُجدت لاحقًا في كتابهما **مطرقة الساحرات، الدليل الكامل لصائد الساحرات**، إنها الحقيقة، واعترفا أنّ بعض الساحرات يتخيلن فحسب أنهن حضرن للاجتماع بالشيطان؛ لكن كثيرات منهن نُقلن في الواقع إلى هناك جسديًّا. على أي حال، إنّه الشيء ذاته، بما أن الساحرة التي تذهب فحسب في الخيال ترى ما يحدث حقيقة كما تراه الساحرة التي انتقلت بجسمها. كما بالنسبة إلى تلك الحالات حيث أقسم زوج أنّ زوجته كانت في الفراش إلى جانبه، بينما شهد آخرون أنها كانت في اجتماع مع الشيطان، إنها لم تكن زوجته التي لمسها، لكن شيطانًا حل مكانها. ربما ادّعى تشريع إيسكوبي الكنسي أنّ الرحلة كانت محض خيال، لكن لم يكن أي شيء متخيَّلًا إطلاقًا في ما يتعلق بالأذى الذي كانت تقوم به الساحرات. «من هو المغفل لدرجة التأكيد... بأن كل سحرهم وأذياتهم كانت متوهَّمة ومتخيَّلة، عندما يكون العكس واضحًا لحواس الجميع؟»؛ كل مصيبة يمكن تصورها - فقدان الماشية والمحاصيل وموت الأطفال والمرض والأوجاع والآلام والخيانة والعقم والجنون - كانت تُعزى إلى السحر. استنتج كتاب **مطرقة الساحرات** بالتفصيل كيف كان يتم التعرف إلى الساحرات واستدعاؤهن واختبارهن وتعذيبهن وإدانتهن والحكم عليهن. في هذه الأثناء، كانت منظومة صيد الساحرات قد اكتملت، وأصبحت جاهزة للتطبيق في أوروبا كلها على امتداد المئتي سنة المقبلة، وبنتائج مدمرة، على أيدي صيادي الساحرات سواء منهم الكاثوليك أم البروتستانت. وعامًا بعد عام، كانت المنظومة جاهزة لإنتاج مورد لا ينتهي من الساحرات الجديدات لاستبدال أولئك اللواتي يتم إدخالهن إلى السجن أو حرقهن.

مكتبة الفكر الجديد

لماذا تم نقض تشريع إيبسكوبي الكنسي؟ التفسير الأبسط هو أنّ المحققين كانوا على حق: كانت الساحرات يلتقين في اجتماعات سرية مع الشياطين - حتى لو لم يصلن إلى هناك راكبات على عصيّ مكانسهن - وأنّهن في الواقع يشكلن المزيد من التهديد لأمن النصرانية مثل الولدانيين والحركات الدينية السرية الأخرى.

إن الاكتشافات الحديثة حول الأساس العملي لرحلات الركوب على عصيّ المكانس جعلت من المتعذِّر الدفاع عن هذه النظرية؛ إذ أوضح ميشيل هارنر من المدرسة الحديثة للبحوث الاجتماعية أنّ الساحرات الأوروبيات كن شعبيًّا مرتبطات باستخدام الدهون والمراهم السحرية. فقبل الركوب على عصيّ مكانسهن عبر الهواء، كانت الساحرات «يدهنَّ» أنفسهن. إحدى الحالات النموذجية التي استشهد بها هارنر هي أنّ ساحرة من إنكلترا القرن السابع عشر اعترفت بأنهن «قبل قيامهن برحلاتهن إلى اجتماعاتهن، دهنَّ جباههن ومعاصم أيديهن بزيت الروح الذي يأتيهن (الذي تفوح منه رائحة نقية)». وصرّحت ساحرة إنكليزية أخرى بأنّ «الزيت» كان بلون مخضرّ ويُدهن على الجبهة بوساطة ريشة. وفي التقارير المبكرة، قيل للساحرة إن تقوم بدهن المرهم على العصا، بعد ذلك «سارت الهوينى وعادت بسرعة عبر غلالة سميكة حينًا ورقيقة حينًا آخر حسب الحالة التي تميل بها». كما أُفيد عن دهن كل من الرأس والجسم حسب ما ورد في مصدر من القرن الخامس عشر واستشهد به هارنر أيضًا: «دهنوا العصا وركبوا عليها... دهنوا أنفسهم تحت الإبطين وفي الأماكن المشعرة الأخرى». وورد في مصدر آخر: «السحرة، نساء ورجالًا، ممن تحالفوا مع الشيطان، الذين دهنوا أنفسهم ببعض المراهم وتلوا بعض الكلمات، حُملوا خلال الليل إلى الأراضي القصية».

وصف أندريه لاغونا، الطبيب الممارس في لوريان في القرن السابع عشر، جرّة السحرة «المليئة حتى نصفها ببعض المرهم الأخضر... الذي كانوا قد دهنوا أنفسهم به: رائحتهم كانت ثقيلة ومنفّرة، وأظهرت أنها مركبة من أعشاب

مكتبة الفكر الجديد

باردة ومنوِّمة إلى أقصى درجة، كانت نباتات الشوكران والبيلادونا والبنج واللّفاح». حصل لاغونا على علبة صغيرة مملوءة بهذا المرهم واستخدمه في إجراء تجربة على زوجة جلاد في ميتز. دهن الطبيب هذه المرأة من الرأس وحتى أصابع القدمين، عندئذ «غطّت فجأة في نوم عميق، بعينين مفتوحتين كأرنب (بدت تمامًا كأرنبة مسلوقة)، إنني لم أتخيل كيف سأوقظها». وعندما تدبّر لاغونا أخيرًا أمر إيقاظها، كانت قد نامت لمدة ست وثلاثين ساعة متواصلة. واحتجَّت: «لماذا توقظوني في هذا الوقت غير الملائم؟ كنت محاطة بكل متع العالم ومسرّاته». ثم ابتسمت لزوجها الذي كان واقفًا هناك، «كل نتانة الرجال الذين شُنقوا»، وقالت له، «أيها المخدوع، اعلم أنني جعلت منك زوجًا مخدوعًا مع حبيب أصغر سنًّا وأفضل منك».

كان هارنر قد جمع عددًا من مثل هذه التجارب المذكورة مع المراهم، بما فيهم السحرة أنفسهم. غطّ جميع الأشخاص في نوم عميق، وعند استيقاظهم أصروا أنهم كانوا بعيدين في رحلة طويلة. وهكذا عرف سر المرهم كثير من الأشخاص الذين عاشوا في زمن جنون السحر، على الرغم من أنّ المؤرخين العصريين يميلون بشكل عام إلى نسيان هذه المرحلة أو التقليل من شأنها. وأفضل بيان لشاهد عيان على هذا الموضوع كان قد أجراه أحد زملاء غاليليو، جيامباتيستا ديلا بورتا (Giambattista della Porta) الذي توصل إلى تركيب مرهم يحتوي على البيلادونا.

حالما انتهى من تركيب المرهم، قمنَ بدهن جزء من الجسم، بعد أن فركن أنفسهن جيدًا، حيث بدَونَ متوردات... وهكذا وفي بعض الليالي المقمرة اعتقدن أنهن خُطفن إلى مآدب وحفلات رقص وموسيقى وجامعن رجالًا أصغر سنًّا من الذين كانوا مرغوبين من معظمنا. كانت قوة التخيل وظهور الصور من الضخامة حيث إنّ الجزء من الدماغ الذي يدعى الذاكرة يكون مملوءًا بهذا النوع من الأشياء؛ وبما أنهن أنفسهن، بوساطة الميل الطبيعي، كنّ ميالات إلى الاعتقاد، تمسكن بالصور بطريقة أنّ العقل نفسه تغيّر ولم يفكر بأي شيء آخر، لا في الليل ولا في النهار.

مكتبة الفكر الجديد

يعتقد هارنر الذي كان قد درس استعمال الشامان (الأطباء السحرة) بين هنود الجيفارو في البيرو للمواد المهلوسة، أنّ عامل الهلوسة الفاعل في مراهم السحرة كان الأتروبين، شبه القلوي الفاعل الموجود في بعض النباتات الأوروبية مثل اللفاح والبنج والبيلادونا (أي السيدة الجميلة) أو الباذنجان القاتل. والسمة البارزة للأتروبين أنّه يجري امتصاصه من خلال الجلد السليم. والميزة التي يُستفاد منها هي في لُصاقات البيلادونا الجلدية لتسكين الآلام العضلية. وعمل بعض المجربين الحاليين على إعادة تركيب مراهم السحرة استنادًا إلى التراكيب المحفوظة في الوثائق القديمة. أشارت إحدى الجماعات في مدينة غوتنغن الألمانية إلى حدوث الوقوع في النوم لمدة أربع وعشرين ساعة حلموا خلالها بـ «مطايا برية ورقص خلاعي ومغامرات أخرى عجيبة من النمط المرتبط بالعربدة في القرون الوسطى». تحدث مجرِّب آخر بالكاد استنشق دخان البنج عن «الإحساس المجنون بأنّ قدمي تصبحان أخف وتتسعان وتنفصلان بصورة حرة عن جسدي... وفي الوقت نفسه شعرتُ بإحساس ثمل بالطيران». لماذا العصا أو المكنسة لا تزال تُرى بين سيقان السحرة المعاصرين في عيد جميع القديسين؟ وفقًا لهارنر، إنها ليست سوى رمز قضيبيّ:

«إنّ استخدام العصا أو المكنسة كان من دون شك أكثر من عمل رمزي فرويدي، إنّه بمنزلة أداة لدَهن النبات الذي يحتوي الأتروبين على الأغشية المهبلية الحساسة، علاوة على الإيحاء بالركوب على الجواد، الوهم النموذجي لركوب السحرة إلى مجمع السحرة».

إن كان تفسير هارنر صحيحًا، فإنّ معظم اللقاءات «الحقيقية» مع الشياطين شمل اختبارات الهلوسة. كان المرهم يدهن دومًا قبل ذهاب السحرة إلى الاجتماع بالشياطين، وليس بعد أن يصلوا إلى هناك أبدًا. ذلك أنّ كل ما يكمن وراء القرار البابوي باستخدام محاكم التفتيش لاستئصال السحر، لم يكن تزايد شعبية الاجتماعات مع الشياطين. فالذي حدث، بالطبع، هو أنّ أشخاصًا كثرًا بدأوا «ينطلقون». أنا لن أستبعد هذا الاحتمال. لكن محاكم التفتيش لم تكن على الإطلاق مهتمة بتحديد هوية السحرة على قاعدة امتلاكهم للمراهم

مكتبة الفكر الجديد

(لم يذكر كتاب **مطرقة الساحرات** سوى القليل عن هذا الموضوع). يبدو لي على الأرجح، وبناء على ذلك، أنّ معظم السحرة «الحقيقيين» - المرتحلين المعتادين - لم تُحدَّد هويته قط، وأنّ معظم الأشخاص الذين تمّ حرقهم لم يرتحل قط.

ألقت مراهم الهلوسة الضوء على الكثير من الميزات الخاصة بالمعتقد السحري. وبيّن التعذيب انتشار هذه المعتقدات إلى ما هو أبعد من دائرة المستخدمين الفعليين للمراهم. لكن لا يزال ثمة لغز في شأن موت خمسمئة ألف شخص بسبب جرائم ارتكبوها في أحلام أشخاص آخرين.

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Baroja, Julio C. *The World of the Witches*. Chicago: University of Chicago Press, 1964.

Furst, Peter. *Flesh of the Gods*. New York: Praeger, 1972.

Harner, Michael. *The Jivaro: People of the Sacred Waterfalls*. New York: Doubleday, 1972.

_____. «The Role of Hallucinogenic Plants in European Witchcraft.» in: Harner, Michael (ed.). *Hallucinogens and Shamanism*. New York: Oxford University Press, 1972, pp. 127-150.

Institor H. & J. Sprenger. *Malleus Maleficarum*, trans. the Reverend Montague Summers. London: Pushkin Press.

Lea, Henry C. *Materials Toward a History of Witchcraft*, 3 vols. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1939.

Trevor-Roper, H. R. *The European Witch Craze of the Sixteenth and Seventeenth Centuries and Other Essays*. New York: Harper and Row, 1969.

Russell, Jeffery B. *Witchcraft in the Middle Ages*. Ithaca: Cornell University Press, 1972.

Warner, H. J. *The Albigensian Heresy*. New York: Russell and Russell, 1967.

مكتبة الفكر الجديد

هوس السحر الأكبر

مكتبة
الفكر الجديد

لا يعرف معظم الناس أنّ الانتفاضات المسيحية- الحربية كانت شائعة في أوروبا بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر، كذلك كانت في فلسطين في العهدين اليوناني والروماني. ولا يعرفون أنّ الإصلاح البروتستانتي كان في جوانب عدة نقطة الأوج أو نتيجة ثانوية لهذه الاضطرابات المسيحية. كما كان الأمر ينطبق على ما سبقه في فلسطين، كان اندلاع الحماسة المسيحية في أوروبا موجهًا ضد احتكار الثروة والسلطة اللتين تقبض عليهما الطبقات الحاكمة. وتفسيري لهوس السحر هو أنه كان مبتدَعًا وبرعاية الطبقات الحاكمة كوسائل لقمع هذه الموجة من الخلاصية المسيحية.

ليس الأمر مصادفةً أن يحظى السحر بهذه الأهمية المتزايدة جنبًا إلى جنب مع الاحتجاجات المسيحية العنيفة في مواجهة المظالم الاجتماعية والاقتصادية. أذن البابا باستخدام التعذيب ضد الساحرات قبل وقت قصير من الإصلاح البروتستانتي، ووصل هوس السحر إلى أوجه في أثناء حروب وثورات القرنين السادس عشر والسابع عشر، التي رسمت النهاية لعهد الوحدة المسيحية.

بالنسبة إلى الجماهير الأوروبية، كان العبور من الإقطاع إلى الملكيات الوطنية القوية مرحلة شديدة التوتر؛ إذ دفع تطور التجارة والأسواق والمصارف ملاك الأراضي وأصحاب رؤوس الأموال إلى إقامة المشروعات الهادفة إلى الحصول على الحد الأقصى من الأرباح. ويمكن أن يتم ذلك من خلال تحطيم العلاقات الأبوية المحدودة التي تميز ملكيات المزارع الإقطاعية وبلدات القلاع فحسب. لذلك تعرضت حيازات الأراضي للتقسيم، وحل الفلاحون المستأجرون والمرابعون المحاصصون محل الأقنان والخدم، وتحولت الإقطاعات ذات الاكتفاء الذاتي إلى زراعة المحاصيل المربحة. وهكذا فقدَ

مكتبة الفكر الجديد

سكان الريف الأجزاء من الأراضي التي كانوا يعيشون منها ومساكنهم العائلية، واندفع عدد كبير من الفلاحين المحرومين الذين سعوا للحصول على وظائف مأجورة إلى الضواحي. ومنذ القرن الحادي عشر وما تلاه، صارت الحياة أكثر تنافسية، وأكثر بُعدًا من الشخصانية، وذات طابع تجاري محض، محكومة بالربح بدلًا من الأعراف.

عندما تفاقم الإفقار والاغتراب، انخرط كثير من الناس شيئًا فشيئًا في التنبؤات المتعلقة بالمجيء الثاني للمسيح. ورأى كثيرون نهاية العالم تتكشّف أمام أعينهم من خلال خطيئة الكنيسة وترفها، واستقطاب الثروة، والمجاعات والأوبئة، وتوسُّع الإسلام، والحروب المتواصلة بين الفصائل المتنافسة في أوروبا عصر النبلاء.

كان يواكيم الفيوري هو المنظِّر الأول لخلاصية أوروبا الغربية، الذي اعتُبرت منظومته النبوئية من المؤرخ نورمان كوهن، «المنظومة الأكثر تأثيرًا في أوروبا حتى ظهور الماركسية». واكتشف يواكيم الذي كان رئيس دير كلابريا، بين عامي 1190 و1195 كيف يحسب الموعد الذي سيفسح فيه عالم المعاناة الحالي المجال أمام مملكة الروح. اعتقد يواكيم أن العصر الأول للعالم كان عصر الأب، والثاني هو عصر الابن، والثالث هو عصر الروح القدس. أما العصر الثالث فيجب أن يكون يوم السبت أو زمن الراحة، حيث لن يكون ثمة حاجة إلى الثروة أو الملكية أو الكدح أو الطعام أو المأوى؛ سيكون الوجود روحانيًا خالصًا، وستكون الحاجات المادية كلها غير ضرورية. وسوف يُستبدل بالمؤسسات الهرمية كالدولة والكنيسة مجتمعٌ حر مؤلف من الكائنات المكتملة. وتنبأ يواكيم أن عصر الروح سيبدأ بحلول عام 1260. سيصبح هذا التاريخ غاية لعدد من الحركات الخلاصية الحربية المستندة إلى الإيمان بأن الإمبراطور فريدريك الثاني (1194–1250) هو الذي سيفتتح العصر الثالث.

تحدى فريدريك علنًا سلطة البابا، الأمر الذي تسبّب بوضع مملكته تحت الحظر والتحريم البابوي للمعمودية والزواج والاعتراف والطقوس الدينية الأخرى. جاء الدعم لفريدريك من الجناح الفقير المتعصب للنظام

مكتبة الفكر الجديد

الفرنسيسكاني المعروف بالروحاني. وادّعى ممثلو هذا الجناح أن فريدريك سوف يقوم قريبًا بدور عدو المسيح، مطهرًا الكنيسة من الثروة والترف ومقوِّضًا سلطة رجال الدين. أُعلن فريدريك منقذًا في ألمانيا من المبشرين الجوالين المناصرين ليواكيم، الذين ندّدوا بالبابا وأداروا الطقوس الدينية ومنحوا صكوك الغفران في تحدٍّ للحظر البابوي. وفي شوابيا، قال أحد هؤلاء المبشرين، الأخ أرنولد، إن المسيح سوف يعود في عام 1260 وأكّد حقيقة أن البابا عدوّ المسيح، وأن رجال الدين هم بمنزلة «الأطراف» لعدو المسيح. هؤلاء سيدانون كلهم بسبب عيش الترف واستغلال الفقراء واضطهادهم. عندئذ سيصادر فريدريك الثروة العظيمة لروما ويوزعها على الفقراء المسيحيين الحقيقيين الوحيدين.

لم يُطح موت فريدريك الفجائي في عام 1250 التصورات المسيحية المرتبطة بحكمه، بل أصبح «الإمبراطور النائم». وفي عام 1284، جذب الرجل، الذي ادّعى أنه فريدريك المستيقظ، الأتباع في مقاطعة نيوس (Neuss) الألمانية قبل أن يُحرق بسبب الهرطقة. واستمر الفريدريكيون المنقذون يُحرَقون لمئات من السنين بعد ذلك.

أورد نورمان كوهن وثيقة خلاصية – حربية تدعى «كتاب من مئة فصل»، كُتبت في بداية القرن السادس عشر، وتنبأت بقدوم فريدريك على حصان أبيض ليحكم العالم بأكمله، وأن رجال الدين من البابا فما دون سوف يُمحقون بمعدل 2300 شخص كل يوم. وسيذبح الإمبراطور أيضًا جميع مقرضي الأموال والتجار الذين يتحكمون بالأسعار، والمحامين عديمي الضمير. وستكون كل الثروة عادلة وتعود إلى الفقراء، وستُمحى الملكية الخاصة، وستصبح كل الأشياء كلها مشاعًا: «كل الملكيات ستصبح ملكية واحدة وحيدة. عندئذ، سوف يكون في الواقع راعٍ واحد وحظيرة غنم وحيدة».

استعدادًا للعصر الثالث الذي تنبأ به يواكيم الفيوري، بدأت عصابات من الرجال الذين اختصوا في جلد أنفسهم بالأحزمة ذات الأطراف الحديدية، المسير من بلدة إلى بلدة. وبوصولهم إلى ساحة كل بلدة، كان «جالدو أنفسهم»

مكتبة الفكر الجديد

هؤلاء يتجردون من لباسهم حتى الخصر ويسوطون أنفسهم حتى يسيل الدم، وكانوا مهتمين في البداية بالتوبة كوسيلة «لتقويم الطريق» من أجل العصر الثالث. لكن أنشطتهم أصبحت مدمِّرة بصورة متزايدة وموجهة ضد رجال الدين، خصوصًا في ألمانيا بعد عام 1260. وعندما بدأوا الادعاء أنّ مجرد المشاركة في إحدى عملياتهم تغفر للإنسان خطيئة، اعتبرتهم الكنيسة هراطقة ودفعتهم بذلك إلى التواري عن الأنظار. عادوا إلى الظهور في عام 1348 باسم جماعة «الموت الأسود» واكتسحوا أوروبا. حمّل «جالدو أنفسهم» اليهودَ مسؤولية الموت الأسود فحرضوا الحشود، بلدة بعد بلدة، على ذبح السكان اليهود. وإذ وضعوا أنفسهم في مرتبة أعلى من البابا ورجال الدين، ادّعوا بأن دمهم لديه قوة الافتداء وأنهم كانوا جيش القديسين الذي يحمي العالم من غضب الرب. ورجموا الرهبان الذين حاولوا الوقوف في وجوههم، وعطلوا الخدمات المنتظمة للكنيسة، وصادروا ممتلكاتها وأعادوا توزيعها.

قاد حركة الجالدين لأنفسهم، التي توَّجت الثورة الخلاصية، شخص يدعى كونراد شميد الذي ادّعى أنه الإمبراطور الربّ فريدريك. جلد شميد أتباعه وغسلهم بدمائهم كأعلى درجة من المعمودية. وكما حصل مع المؤمنين بالأحمال في نيو غينيا، باع الناس أملاكهم في سكسونيا السفلى وتركوا العمل واستعدوا لأخذ أماكنهم في الجوقة الملائكية التي ستقف عند أقرب نقطة من الإمبراطور الرب بعد يوم القيامة. حصلت هذه الحادثة في عام 1369. وبسبب من التدخل الفاعل لمحاكم التفتيش أُحرق شميد قبل أن يتمكن من إتمام عمله. وبعد سنوات، كان «جالدو أنفسهم» لا يزالون يُكتشفون في سكسونيا السفلى، وأُحرق ثلاثمئة منهم في يوم واحد من عام 1416.

كان ثمة سبيل واحد للتخلص من الفقراء المنفرين مثيري الشغب وهو بتجنيدهم في الحروب المقدسة أو الصليبية للمساعدة في استرجاع أورشليم من الإسلام. لكن حدثت لبعض هؤلاء الصليبيين ردات فعل عكسية وتحوّلوا إلى الحركات الثورية الخلاصية الموجهة ضد رجال الدين والنبلاء. فعلى سبيل المثال، ادعى راهب منشق في حملة الرعاة الصليبية، يدعى جاكوب، أنه تلقى

مكتبة الفكر الجديد

رسالة من مريم العذراء من أجل دعوة جميع الرعاة لتحرير الأماكن المقدسة. التحق به عشرات الآلاف من الأشخاص الفقراء من أجل هذا الأمر، وكانوا مسلحين بالمذاري والفؤوس والخناجر التي سيرفعونها عاليًا عند دخولهم بلدة ما لإخافة السلطات، حيث يجرى لهم الاستقبال اللائق. ظهرت لجاكوب رؤى، وشفى المرضى، وقدّم الولائم المعجزة التي كان يظهر فيها الطعام بأسرع مما يؤكل، ونددّ برجال الدين، وقتل كل من تجرأ على مقاطعة عظاته. ومضى أتباعه من بلدة إلى بلدة، ليطيحوا برجال الدين أو يغرقوهم في النهر.

قاد التفاعل بين أوساط المحافظين في الأساس، لكن ممن تتعارض مصالحهم مع الكنيسة والدولة، والتهديد بثورة الطبقة الدنيا المتطرفة، قاد أوروبا بثبات نحو الإصلاح البروتستانتي الوشيك. لكن كيف جرت هذه العملية؟ هذا ما يمكن أن نراه في الحركة الهوْسيّة (Hussite) في بوهيميا القرن الخامس عشر.

صادر الهوْسيون ممتلكات الكنيسة وحاولوا إجبار رجال الدين على عيش حياة الفقر الرسولية. وفي عملية انتقامية، بدأ البابا وحلفاؤه سلسلة من الحملات القمعية المعروفة في الوقت الحاضر باسم حروب الهُوْس. وعندما انتشر العنف، ظهرت مجموعة ثالثة من مقاتلي الجماهير المُفقَرة. كان يُطلق عليهم الطابوريين - تيمّنًا بالطابور على جبل الزيتون حيث تنبأ يسوع بقدومه الثاني. بالنسبة إلى الطابوريين، كانت حروب الهُوْس بداية نهاية العالم. اندفعوا إلى المعركة لـ «غسل أيديهم بالدم»، بقيادة أنبياء مسيحيين ممن أصروا على أن كل كاهن حقيقي مُلزم بملاحقة وجرح وقتل كل خاطئ. بعد إبادة العدو توقّع الطابوريون أن يبدأ العصر الثالث ليواكيم الفيوري. سيحلّ الغياب التدريجي للمعاناة أو الحاجة الجسديتين، ضمن مجتمع الحب والسلام من دون ضرائب أو ملكيات أو طبقات اجتماعية. وفي عام 1419 أسس آلاف من هؤلاء البوهيميين «الأرواح الحرة» (مؤسّسو البوهيمية كنمط حياة) مجتمعًا مشاعيًا قرب مدينة أوستي على ضفة نهر لوزنيكا. واعتمدوا في تمويلهم على غزوات الريف، مجردين وناهبين كل ما طالته أيديهم، ولأنهم مثل رجال قانون الرب، شعروا أنه يحق لهم أخذ كل شيء من أعداء الرب.

مكتبة الفكر الجديد

تكررت حركات مشابهة في ألمانيا على امتداد القرن الخامس عشر. فعلى سبيل المثال رأى في عام 1476، راعٍ يدعى هانس بوم مريمَ العذراء في منامه. وقال إنه من الآن فصاعدًا سوف يرفضّ الفقراء دفع الضرائب والعشور استعدادًا للمملكة المقبلة، وقريبًا سيعيش الجميع معًا من دون تمييز في المراتب؛ وسيعطى كل شخص فرصة متساوية للحصول على الغابات والماء والمرعى ومناطق الصيد البحري والبري. تقدّمت جموع الحجاج إلى مدينة نيكلاشاوزن من أرجاء ألمانيا كلها لرؤية «الشباب المقدس». وساروا في طوابير طويلة، مرحبين بعضهم ببعضهم الآخر كـ «أخ وأخت»، وهم ينشدون الأغاني الثورية.

لا يمكن أن يُفهم الشكل الخاص الذي أنجز من الإصلاح البروتستانتي في نهاية المطاف بعيدًا من البديل الحربي – الخلاصي المتطرف الذي أخاف القوى الدنيوية كما أخاف الكنيسة. وككثيرين قبله، كان لوثر مقتنعًا أنه يعيش الأيام الأخيرة، وأن البابا كان عدو المسيح، وأن البابوية يجب أن تُقوَّض قبل أن تتحقق مملكة الرب. لكن مملكة الرب اللوثرية ليست من هذا العالم، وشعر أن التبشير بدلًا من الثورة المسلحة كان الطريق الملائمة لتحقيق ذلك. رحب النبلاء الألمان بما قام به لوثر من مزج التقوى الجذرية والسياسات المحافظة. كان توليفًا موفقًا في سبيل الإطاحة بحكم البابا من دون زيادة خطر الثورة الاجتماعية.

تكفّل توماس مونتزر، تلميذ مارتن لوثر في الأصل، بالردّ الراديكالي المتناغم مع حركة لوثر، إذ اختار لوثر ومونتزر جانبين متعارضين من الثورة الفلاحية الكبرى في عام 1525. لوثر من جهته دان الفلاحين في كُتيِّبه **ضد الاغتيال وضد جحافل اللصوص من الفلاحين**، فردّ عليه مونتزر بأنّ الناس الذين يدعمون لوثر كانوا أنفسهم «اللصوص الذين استخدموا القانون لمنع الآخرين من السرقة». أصر مونتزر أن ما يسميه لوثر قانون الرب كان ببساطة أداة من أجل حماية الملكية، وإن «البذور الأصلية للربا والسرقة والسطو هم أسيادنا وأمراؤنا». واتّهم لوثر بمؤازرة سلطة «الأوغاد الأشرار، حيث إنهم سيستمرون في أساليبهم القديمة». وبسبب اقتناعه أن انتفاضة الفلاحين كانت

مكتبة الفكر الجديد

بداية المملكة الجديدة، تولى مونتزر قيادة جيش الفلاحين، وقارن دوره بدور جدعون في معركته مع المديانيين، وعشية مواجهته للعدو، روى لأتباعه من الفلاحين غير المؤهَّلين وغير المدرَّبين أن الرب تكلم إليه ووعده بالنصر. وقال إنه هو نفسه سيحميهم باصطياد كرات المدافع بأكمامه، لأن الرب لن يسمح أبدًا لشعبه المختار بالهلاك. ومع أول الهجمات المدفعية، تشتت شمل الفلاحين وذبح خمسة آلاف منهم بينما كانوا يفرون بعيدًا. حتى أن مونتزر نفسه تعرض للتعذيب ثم دُقَّت عنقه في وقت لاحق.

استمر الجناح المتطرف من الإصلاح بكل زخمه طوال القرن السادس عشر والجزء الأول من القرن السابع عشر. أما ما عرف بحركة تجديد المعمودية، فنشأ منها 40 طائفة مختلفة في الأقل وعشرات الانتفاضات الحربية - الخلاصية كتقليد طابوري ومونتزري، واعتُبرت على نطاق واسع، سواء من الحكام الكاثوليك أم من الحكام البروتستانت، مؤامرة هرطوقية واسعة الانتشار لتخريب علاقات الملكية كلها وإعادة توزيع ثروة الكنيسة والدولة بين الفقراء. على سبيل المثال، أعلن هانس هوت أحد أتباع مونتزر أن المسيح سوف يعود في عام 1528 لتدشين مملكة الرب بالحب مطلَق السراح ومشاعية السّلع. سيُحاكم أنصارُ تجديد المعمودية الكهنةَ والقساوسة المزيّفين. وسيُقيدون ملوك الأرض ونبلاءها وعظماءها بالسلاسل. وتنبأ ملشوار هوفمان، وهو تابع آخر لمونتزر، بأن العالم سينتهي في عام 1533. نجح هوفمان من خلال خباز يدعى جان ماثيس من مدينة هارلم، الذي بشّر أن الصالح ينبغي أن يسلّ السيف ويستعد بعزم لتمهيد الطريق للمسيح من أجل تنظيف الأرض من الأشرار. وفي عام 1534 أصبحت كل من مونستر وويستفاليا مركز حركة تجديد المعمودية. طُرد جميع الكاثوليك والبروتستانت، وألغيت الملكية الخاصة. واستولى جون، من مدينة ليدن، على القيادة وادّعى أنه تابع لداوود، وطلب التشريف الملكي والطاعة المطلقة في ما دعاه مجددو المعمودية «أورشليمهم الجديدة».

في القرن السابع عشر، حرّكت دوافع مسيحية متطرفة مشابهة الطبقات الدنيا في إنكلترا، شاحنةً المزيد من الطاقة في الحرب الأهلية الإنكليزية. وضمّ

مكتبة الفكر الجديد

النموذج الحربي الجديد لأوليفر كروميل آلاف المتطوعين الذين آمنوا أن مملكة «القديسين» سوف تُقام على التراب الإنكليزي، وأن المسيح سوف ينزل ليحكمهم. وفي عام 1649 تلقى جيرارد وينستانلي في رؤياه أمرًا بالاستعداد لنهاية العالم من خلال إنشاء مجتمع «الحفارين»، حيث لا وجود للملكية الخاصة فيه ولا للتمييز الطبقي ولا لأي شكل آخر من أشكال الإكراه. وفي عام 1656 أعلن داعمو كروميل السابقون، رجالُ الملكية الخامسة، أنه عدو المسيح، وحاولوا إنشاء مملكة من القديسين بقوة السلاح (الملكية الخامسة في إشارة إلى الألفية، حيث سيحكم المسيح لمدة 1000 عام).

ما علاقة كل ذلك بالسحر؟ كما أشرت في بداية هذا الفصل، ثمة علاقة زمنية قريبة بين بداية جنون السحر وتطور النزعة الخلاصية الأوروبية. حظي نظام صيد الساحرات لإنستيتر وسبرنجر على موافقة إنوسنت الثامن في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تغلي حتى الحافة بأنبياء العصر الثالث والحركات المسيحية. وبلغ هوس السحر أوجَه في أعقاب الإصلاح - كان كل من لوثر وكالفن مقتنعين متحمسين بأخطار السحر- وكذلك فعلت الحركات الاحتجاجية المتطرفة والعنفية، المستندة إلى المذاهب الخلاصية الثورية للعصر الثالث.

هل ثمة تفسير عملي لتلازم تطور الاحتجاج الخلاصي الاجتماعي وجنون السحر؟ لعل إحدى وجهات النظر التقليدية هي أن السحر نفسه كان شكلًا من أشكال الاحتجاج الاجتماعي. مثلًا، ووفقًا لجيفري بورتون راسيل - وهو خبير بتاريخ المعارضة في القرون الوسطى - إنّ السحر والتصوف وجلادي أنفسهم والهرطقة الشعبية، كلها تنتمي إلى الفئة ذاتها. «كانت، باختلاف درجاتها، رفضًا للبنية المؤسساتية الضعيفة».

من جهتي لا أتفق مع هذا الطرح. فلتفسير جنون السحر كونه احتجاجًا اجتماعيًا، عليكم الإيغال عميقًا جدًّا نحو اعتماد وجهة النظر «الواقعية» المذكورة في كتاب **مطرقة الساحرات**. كما يتعين عليكم تصديق واقع أن أوروبا كانت تحفل بعدد كبير من الناس الذين هددوا الوضع القائم بسبب تجمعهم لعبادة الشيطان.

مكتبة الفكر الجديد

لكن إذا كانت الساحرات الطائرات واقعات تحت تأثير المخدّر، فإنهن لا ينتمين إلى فئة الطابوريين نفسها أو أنصار تجديد المعمودية أكثر من انتماء تجار المخدرات للفهود السود[1]. قلة من الأشخاص هنا وهناك يهلوسون بالجماع مع الشيطان، أو بإلقاء التمائم حول بقرة جار ما، لكنهم لا يشكلون تهديدًا لبقاء الطبقات المالكة والحاكمة. ومن المرجح أنه جرى انتقاء الساحرات من بين أولئك الأشخاص المحبطين والساخطين، لكن ذلك لا يجعل من الساحرات أناسًا هدامين. فكي تُعتبر حركة ما احتجاجًا جديًّا على نظام قائم، ينبغي إما أن تمتلك تعاليم واضحة تتعلق بالنقد الاجتماعي أو تشرع بفعل ينطوي على تهديد أو خطر. وبالتالي مهما فعلت الساحرات في لقاءاتهن مع الشياطين، إذا كانت هناك لقاءات أصلًا، فليس ثمة دليل على أنهن كن يبددن أوقاتهن في إدانة ترف الكنيسة أو المطالبة بإلغاء الملكية الخاصة وإنهاء الفرق في المرتبة والسلطة. وإن فعلن ذلك فهن لسن ساحرات إنما ولدانيات أو طابوريات أو من أنصار تجديد المعمودية أو أعضاء في طائفة أخرى دينية – سياسية متطرفة – الذين كان كثير منهم سيحرق بلا شكّ بتهمة السحر بدلًا من معتقداتهم الخلاصية.

لفهم جنون السحر، ينبغي أن نكون راغبين في تحديد أشكال من الواقع، مفصولة عن، ومتعارضة مع وعي نمط حياة كلٍّ من الساحرات والمحققين. بالنسبة إلى راسل، يكفي أن يكون رجال الدين والنبلاء قد فكروا أن السحر كان خطرًا وهدامًا. قال راسل: «ما يعتقد الناس أنه حدث، هو بأهمية ما قد حدث موضوعيًّا، وأكثر يقينًا بكثير. لكن هذه هي على وجه الدقة النقطة التي أثارها إنستيتر وسبرنجر: أنتم مسؤولون عما تفعلونه في أحلام شخص آخر».

يجب علينا أن نكمل ما في عقولنا في ما يتعلق ببعض الحوادث. فإلز جوينر لم تجامع الشيطان، وليست خلاصة عديمة الأهمية أو غير مؤكدة في ما يتعلق بواقع أنها كانت قد تفحّمت لأجل القيام بذلك.

---

(1) منظمة سياسية مسلحة تشكلت في الولايات المتحدة في عام 1966 للنضال من أجل حقوق الزنوج.

مكتبة الفكر الجديد

كما هو الحال بالنسبة إلى أنماط الحياة التي تبدو غريبة، والتي كنت قد تناولتها حتى الآن، فإنه لا يمكن تفسير جنون الساحر وفق مصطلحات وعي الأشخاص الذين يشاركون فيه. كل شيء يتوقف على استعداد الملاحِظ ليدلِّل على أوهام المشاركين المختلفين أو يعارضها.

إذا كان السحر هرطقة خطرة، كما أصرّت محاكم التفتيش، فليس ثمة سر في ما يتعلق بتفسير لماذا أصبحت محاكم التفتيش مهووسة بقمعه. أما إذا كان السحر غير مؤذٍ نسبيًّا، وإذا لم يكن مهلوسًا ومؤثرًا على نطاق واسع، فلماذا بُذلت هذه الجهود كلها لقمعه - خصوصًا عندما وصل الأمر بالكنيسة حد نضوب مواردها جرّاء التصعيد الخلاصي - العسكري في القرن الخامس عشر؟

يُفضي ذلك إلى سؤال حاسم يتعلق بما حدث، خلافًا لما ظن الناس أنه حدث. هل كانت محاكم التفتيش مكرَّسة حقًّا لقمع هرطقة الساحرات؟ ثمة افتراض يقول إن العمل الرئيس لصيادي الساحرات يعتمد على وعي نمط الحياة المزعوم للمحققين. لكن الافتراض المقابل - أي إن صيادي الساحرات حادوا عن طريقهم باتجاه زيادة المعروض من الساحرات ولنشر الاعتقاد أن الساحرات كنّ حقيقيات وعلى درجة من الخطورة وموجودات في كل مكان - يعتمد على أدلّة قوية جدًّا. لماذا على العلماء المعاصرين أن يقبلوا فرضيات تتعلق بوعي نمط حياة المحقق؟ تتطلب الحالة أن نتساءل ليس لماذا كان المحققون مهووسين بتدمير السحر فحسب، بل لماذا كانوا مهووسين جدًّا بخلقه. بغض النظر عما كانت نواياهم هم أو نوايا ضحاياهم، فإن الأثر الحتمي لنظام الاستجواب كان يهدف إلى جعل السحر أكثر قابلية للتصديق، ومن ثم لزيادة عدد المتهمين بالسحر.

صُممت منظومة صيد الساحرات بصورة جيدة، بكثير من الثبات والشراسة والعناد. من الممكن أن هذه المنظومة عُزّزت من طريق مصالح تكون على هذا المقدار من الثبات والشراسة والعناد. يتمتع نظام السحر وجنونه باستخدامات عملية ودنيوية بعيدًا من الأهداف الموضوعة لصيادي الساحرات. إنني لا أشير هنا إلى المكافآت والفوائد الزهيدة التي وصفتها سابقًا - مصادرة الملكية

مكتبة الفكر الجديد

والرسوم المدفوعة من أجل عمليتي التعذيب والإعدام. ذلك أن هذه المكافآت تساعد في تفسير لماذا كان تقنيو صيد الساحرات يندفعون في عملهم بمزيد من الحماسة. لكن هذه المنافع كانت جزءًا من جهاز صيد الساحرات بدلًا من كونها سببًا له. إنني أقترح أن أفضل طريقة لفهم سبب هوس السحر هو الوقوف على نتائجه الأرضية عوضًا عن مقاصده السماوية. والنتيجة الأساسية لمنظومة صيد الساحرات (بعيدًا من الأجساد المتفحمة) هي أن الفقراء كانوا سيعتقدون أنهم ضحايا للساحرات والشياطين عوضًا عن الأمراء والباباوات. هل تسرب الماء من سقفك، هل أجهضت بقرتك، هل ذبلت حبوبك، هل فسد نبيذك، هل أصابك الصداع، هل مات طفلك؟ إنه الجار، الشخص الذي حطم سياجك أو استباح مالك أو طمع في أرضك – الجار الذي تحوّل إلى ساحر. هل ارتفعت أسعار الخبز، وحلّقت الضرائب، وانخفضت الأجور، وندرت فرص العمل؟ كان ذلك من فعل الساحرات. هل خطف الطاعون والمجاعة ثلث سكان كل قرية وبلدة؟ الساحرات الشيطانات والجهنميات كنّ يتزايدن ويصبحن أكثر جرأة مع مرور الوقت. وبهذا الشكل، فإن ما تفعله الكنيسة والدولة هو شن حملة شعواء في مواجهة شبح أعداء الشعب من الأشباح. وبالتالي لم تكلّ السلطات في بذل الجهود الحثيثة لإبعاد الشياطين، وسيكون الفقراء والأغنياء على حد سواء شاكرين للطاقة والشجاعة المتجليتين في المعركة.

بذلك تكمن الأهمية العملية لهوس السحر في أنه أزاح المسؤولية عن أزمة مجتمع القرون الوسطى المتأخرة عن الكنيسة والدولة ونقَلَها إلى شياطين متخيَّلة بأشكال بشرية. وفي خضم انشغالها بالنشاطات المتخيَّلة لهؤلاء الشياطين، صبّت الجماهير المذهولة والمغتربة والمفقرة اللومَ على الشياطين المتفشية في كل مكان بدلًا من رجال الدين الفاسدين والنبلاء الجشعين. فهي لم تبرّئ الكنيسة والدولة وحسب، بل جعلت منهما ضرورة. وظهر رجال الدين والنبلاء كونهم حماة عظماء للبشر في مواجهة العدو الذي يوجد في كل مكان، لكن يصعب اكتشافه. هنا برز سبب في الأقل لدفع العشور وإطاعة جامع الضرائب. وكان يتم القيام بالخدمات الحيوية المتعلقة بالحياة الحالية بدلًا من الآتية مع مزيد من الصخب والغضب، أو اللهب والدخان. يمكنكم أن

مكتبة الفكر الجديد

تروا بالفعل أن السلطات تفعل شيئًا ما لتجعل الحياة آمنة أكثر من ذلك بقليل، يمكنكم بالفعل سماع الساحرات يصرخن في طريقهن إلى جحيم النار.

مَن الذين كانوا أكباش الفداء؟ في دراسة هـ. س. إريك ميدلفورت الفريدة على 1258 من المحكومين بالإعدام بتهمة السحر في جنوب غرب ألمانيا في الفترة بين عامي 1562 و 1684 بيَّن أن نسبة الساحرات بين كل السحرة بلغت 82 في المئة. كانت النساء العجائز والقابلات من الطبقات الدنيا عادة أول المتهمات في أي ثورة محلية. وهناك أسماء إضافية كان يتم انتزاعها من الضحايا الأوائل، هم أطفال من كلا الجنسين ورجال بدأت أسماؤهم بالتكشف بوضوح أكثر. وفي أوج المرحلة المسعورة التي اتصفت بالإعدامات الجماعية، تعرض للموت أصحاب خانات ونُزُل وقليل من التجار الأغنياء، وبالمصادفة قاضٍ أو معلم. لكن عندما كان اللهب يلامس أسماء الأشخاص الذين تمتعوا بمكانة وسلطة عاليتين، كان القضاة يفقدون الثقة بالاعترافات ويتوقف السُّعار. وقلما تعرض الأطباء والمحامون وأساتذة الجامعات للتهديدات. من الواضح أن المحققين أنفسهم ورجال الدين كانوا أيضًا في مأمن من ذلك تمامًا. وإذا حدث، من حين إلى آخر، وكانت إحدى الساحرات الفقيرات من الغباء ما يكفي لأن ترى أسقفًا أو وليّ عهد في اجتماع الشياطين الأخير فهي بالتأكيد ستجلب لنفسها تعذيبًا لا يمكن وصفه. ثمة ملاحظة بسيطة تتعلق بأن ميدلفورت تمكن من الوقوع على ثلاث حالات فقط تم فيها توجيه الاتهامات بالسحر إلى أفراد من طبقة النبلاء، لكن لم يُعدم أي من هؤلاء المتهمين.

بمعزل عن كونه «انعكاسًا للبنية المؤسساتية التي كانت موجودة بصورة ضعيفة»، فإن هوس السحر كان جزءًا مكملًا للدفاع عن هذه البنية المؤسساتية. كان يمكن لذلك أن يُلحظ بصورة أفضل من خلال مقارنة هوس السحر مع نقيضه المعاصر، الخلاصي الحربي. اشتمل كل من هوس السحر والحركات الخلاصية – الحربية على موضوعات دينية شعبية، التي صادقت عليها جزئيًا المؤسسة الكنسية. كلاهما بُني على وعي نمط الحياة الموجود، لكن مع نتائج مختلفة كليًا. استقطبت النزعة الخلاصية الحربية الفقراء والمحرومين وجمعتهم

مكتبة الفكر الجديد

معًا، ومنحتهم إحساسًا بأنهم في مهمة جماعية، ووحدت الفروق الاجتماعية بينهم، وجعلتهم يشعرون كأنهم «أخ وأخت». وحشدت الناس من الأصقاع كلها مركزّة طاقاتهم في زمان ومكان معينين، وقادت إلى وقوع معارك ضارية بين الجماهير من غير المالكين والمُفقَرين وأولئك الذين هم في قمة الهرم الاجتماعي. ومن جهة أخرى، فرّق هوس السحر وفتّت الطاقات الكامنة كلها للاحتجاج. شلّ السحر الفقراء والمحرومين وزاد من المسافة بينهم وملأهم بالشكوك المتبادلة، وحرض الجار ضد جاره، وعزل الجميع وجعلهم في حالة الخوف، وزاد من حالة انعدام الأمن للجميع، وجعلهم يشعرون بالعجز ويعتمدون على الطبقات الحاكمة، وسبّب لهم الغضب والإحباط والتركيز على القضايا المحلية الصرفة. وبالقيام بذلك، سُحب الفقراء أكثر فأكثر بعيدًا من مواجهة المؤسسة الدينية والكنسية والمطالب المتعلقة بإعادة توزيع الثروة وتسوية المراتب. كان هوس السحر بمنزلة نزعة خلاصية حربية متطرفة بشكل معكوس. كان هوس السحر الطلقة السحرية لطبقات المجتمع الثرية والقوية. ذلك كان سرّه.

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Cohn, Norman. *The Pursuit of the Millennium*. New York: Harper Torchbooks, 1961.

Leff, Gordon. *Heresy in the Later Middle Ages*. 2 vols. New York: Barnes & Noble, 1967.

Midelfort, H. C. Erik. *Witch Hunting in Southwestern Germany*. Stanford: Stanford University Press, 1972.

Moorman, John. *A History of the Franciscan Order*. Oxford: Clarendon Press, 1968.

Russell, Jeffery B. *Witchcraft in the Middle Ages*. Ithaca: Cornell University Press, 1972.

Williams, George H. *The Radical Reformation*. 2 vols. Philadelphia: The Westminster Press, 1957.

مكتبة الفكر الجديد

عودة الساحرة

مكتبة
الفكر الجديد

بعد أن صُنِّف السحر على أنه خرافة وعانى سنوات السخرية، عاد بصفته مصدرًا معتبرًا للإثارة. ليس السحر وحسب، بل ومعه أشكال التخصصات الغامضة والصوفية كلها التي تتراوح بين علم الفلك والزن[1] (Zen) بما فيها التأمل وهاري كريشنا (Hare Krishna) والآي تشينغ (I ching) – منظومة صينية قديمة من السحر. ومؤخرًا، ولملامسته روح العصر، نال النجاحَ السريع كتابٌ مدرسي بعنوان **الأنثروبولوجيا الثقافية الحديثة** بإعلانه أن «حرية الإنسان تشتمل على حرية الاعتقاد».

ترافقت العودة غير المتوقعة للمواقف والنظريات التي كثيرًا ما تعارضت مع توسع العلم والتكنولوجيا الغربيين، مع تطور نمط حياة يطلق عليه تسمية «الثقافة المضادة». ووفقًا لتيودور روزاك، وهو أحد أنبياء حركة الراشدين، فإن الثقافة المضادة سوف تنقذ العالم من «أساطير الوعي الموضوعي». سوف «تفسد نظرة العالم العلمية» ويكون البديل ثقافة جديدة تكون فيها «السلطة العليا للقدرات غير العقلية». وتحدث تشارلز أ. رايخ، وهو نبي صغير آخر ظهر في الأعوام الأخيرة، عن حالة الحكم الألفي للعقل، التي دعاها الوعي الثالث. فأن تحوز على الوعي الثالث يعني «أن تكون ثمة شكوك عميقة في المنطق والعقلانية والتحليل والمبادئ».

تعتبر المشاعر والعفوية والتصوّر، في نمط حياة الثقافة المضادة، أمورًا جيدة، أما العلم والمنطق والموضوعية فهي أمور سيئة. ولهذا كان أعضاؤها يتباهون بالهروب من «الموضوعية» مثلما يهربون من مكان موبوء بالطاعون.

---

(1) مدرسة يابانية من المهايانا البوذية التي تؤكد قيمة التأمل والحدس.

مكتبة الفكر الجديد

السمة المركزية للثقافة المضادة هي الاعتقاد أن الوعي يحكم التاريخ. وأن الناس هم ما يجري في عقولهم، ولجعلهم أفضل حالًا، كل ما يمكنك فعله هو أن تقدم إليهم أفكارًا أفضل. أما الأوضاع الموضوعية فهي قليلة الأهمية. يمكن أن يتغير العالم كله نتيجة لـ «ثورة في الوعي». كل ما نحتاجه لوقف الجريمة وإنهاء الفقر وتجميل المدن والقضاء على الحرب والعيش بسلام وانسجام مع أنفسنا ومع الطبيعة، هو فتح عقولنا للوعي الثالث «الوعي سابق للبنية... تتوقف الحالة المشتركة بكاملها على الوعي فحسب».

في الثقافة المضادة، الوعي محرَّض ويصبح مدركًا استنادًا إلى إمكاناته غير المستغلَّة. ويقوم أناس الثقافة المضادة برحلات - «رحلات الرأس» - لتوسيع أذهانهم. وهم يتعاطون الماريجوانا أو عقار (LSD) أو فطر عش الغراب لـ «توحيد رؤى رؤوسهم». هم يتجادلون أو يتواجهون أو ينشدون كي «يذهلوا» مع يسوع وبوذا وماو تسي تونغ.

الهدف من ذلك هو التعبير عن الوعي، وإظهار الوعي، وإثارة الوعي، وتبديل الوعي، وتوسيع الوعي- أي شيء باستثناء إضفاء الموضوعية على الوعي. بالنسبة إلى عضو (الدلو)[2]، متضخم العقل والمتحجِّر، والذاهلين من أنصار الوعي الثالث، فإن المنطق هو اختراع المجمع الحربي - الصناعي. ويجب أن «يُستبعد» مثل أي «خنزير» آخر.

هكذا، فإن العقاقير المخدرة مفيدة لأنها تسمح للعلاقات «غير المنطقية» أن تبدو «طبيعية تمامًا». وهي جيدة لأنها، بكلمات رايخ، تحيل «ما يأخذه المجتمع على محمل الجد أمرًا غير واقعي: مثل تنظيم الوقت والصِلات العقلانية والمنافسة والغضب والتفوق والسلطة والملكية الخاصة والقانون والدولة وأولوية الدولة». إنها «المصل الحقيقي الذي يلغي الوعي الكاذب». وإنّ الشخص الذي يحوز على الوعي الثالث لا يعرف الوقائع. هو يجب عليه أن لا يعرف لأنه يعرف الحقيقة المخفية عن الآخرين.

---

(2) مواليد برج الدلو.

مكتبة الفكر الجديد

تحتفي الثقافة المضادة بالحياة الطبيعية المفترضة للناس البدائيين. يرتدي أعضاؤها عقود الخرز ويضعون عصابات الرأس ويطلون أجسادهم ويرتدون الألبسة البالية والملونة؛ إنهم يتوقون ليكونوا قبيلة، ويميلون إلى الاعتقاد أن الشعوب القبلية ليست مادية وعفوية وتحتفظ بكل وقار بالتواصل مع المصادر الغامضة للسحر والافتتان.

في أنثروبولوجيا الثقافة المضادة، يتلخص الوعي البدائي بالشامان، وهو الشخص الذي يتمتّع بالضوء والطاقة، لكنه لا يدفع أبدًا فواتير الكهرباء. يحظى الشامانات بالإعجاب بسبب خبرتهم في «تنمية الحالات الغريبة من الإدراك» وفي الطواف «بين القوى الخفية في الكون». يمتلك الشامان وعيًا ممتازًا، لديه «عينان من نار، العينان اللتان تبددان اعتيادية العالم وتريان ما وراء العجائب والأهوال». وفقًا لروزاك فإن الشامان، باستخدام المهلوسات والتقنيات الأخرى مثل الاختناق الذاتي والطبول المنومة والإيقاعات الراقصة، «ينمّي علاقته بالمصادر غير العقلية للشخصية، كما يجتهد أي عالم ليدرِّب نفسه على الموضوعية».

ثمة كثير مما يمكن تعلمه في ما يتعلق بالثقافة المضادة من دراسة بطل كارلوس كاستانيدا الشعبي، دون خوان؛ هو «رجل المعرفة»، هندي من قبيلة ياكي، ذو وعي فائق وغامض. يكتب كاستانيدا عن تجربته كونه طالب أنثروبولوجيا فتيًا، رغب بالنفاذ إلى الواقع المستقل غير العادي لعالم الشامان. رضي دون خوان وقبِل كاستانيدا كونه مبتدئًا، واعتزم كاستانيدا كتابة أطروحة دكتوراه تستند إلى تعاليم دون خوان. من أجل إعادة إنتاج كاستانيدا بشخص «رجل المعرفة»، عرض دون خوان على الطالب البريء مختلف المواد المهلوسة. وبعد مواجهة كلب الاستنارة الشفاف والبعوضة ذات المئة ساق، بدأ كاستانيدا يشك في أنّ واقعه السوي لم يكن أكثر واقعية من الواقع غير العادي الذي قاده معلمه إليه. في البداية، كان كاستانيدا ينوي معرفة كيف يتصور «رجل المعرفة» العالَم. لكن البريء بدأ تدريجيًا بالشعور أنه كان يتعلم شيئًا ما ذا صلة بالعالم نفسه. أشار عالم أنثروبولوجي آخر هو بول ريزمان في

مكتبة الفكر الجديد

مراجعته لكتاب صحيفة **نيويورك تايمز**، «إنّه لمن الغباء والإسراف التفكير في أن معرفة دون خوان – وفي معرفة الشعوب الأخرى غير الغربية – ليست أكثر من تصور بعض الحقيقة الثابتة. أوضح كاستانيدا أن تعاليم دون خوان تروي لنا شيئًا ما عن كيف يكون العالم في الواقع».

ثمة خطأ في كلتا الحالتين. فكاستانيدا لم يجعل أي شيء واضحًا. و«الواقع المستقل» لدون خوان لم يكن غريبًا عن «الشعوب الغربية».

تعيد معظم رحلة كاستانيدا المهلوسة الشهيرة إلى أذهاننا المسائل التي كنت قد ناقشتها هنا من قبل. أمضى كاستانيدا ودون خوان أيامًا عدة في تحضير عجينة من عشبة (yerba del Diablo) «عشبة الشيطان» ممزوجة بشحم الخنزير والمكونات الأخرى. وبإشراف دون خوان، وضع الطالب البريء العجينة على أخمصي قدميه ومدّها نحو الأعلى على الجانب الداخلي لكلٍّ من ساقيه، محتفظًا بالجزء الأكبر من أجل أعضائه التناسلية. كانت للعجينة رائحة خانقة ونفاذة – «مثل غاز من نوع خاص». انتصب كاستانيدا وشرع في المشي، لكنه شعر أن «لساقيه قوامًا مطاطيًا وأنهما طويلتان، طويلتان جدًا»:

نظرتُ إلى الأسفل ورأيت دون خوان جالسًا تحتي؛ الطريق تحتي. دفعني العزم إلى الأمام خطوة واحدة كانت أكثر مرونة وأطول مما يمكن للمرء أن يفعل. ومن هناك حلّقت. تذكرت أنه عليّ العودة إلى الأسفل حالًا؛ عندئذ اندفعت نحو الأعلى بكلتا القدمين، وَثَبْتُ نحو الخلف وانزلقت على ظهري. رأيت سماء مكفهرة فوقي، والغيوم تجتازني. نفضت جسمي لأتمكن من النظر إلى الأسفل. رأيت كتلة مظلمة من الجبال. وكانت سرعتي غير عادية.

بعد أن تعلم كيفية المناورة بتحريك رأسه، اختبر كاستانيدا «تلك الحرية والسرعة اللتين لم يعرف مثلهما من قبل على الإطلاق». وفي نهاية المطاف شعر أنه مجبر على النزول. كان الوقت صباحًا وكان عاريًا وعلى مسافة نصف ميل من المكان الذي انطلق منه. وأكّد له دون خوان أنه مع الممارسة سيصبح طائرًا أفضل:

مكتبة الفكر الجديد

«يمكنك التحليق عبر الهواء لمسافة مئات الأميال لترى ماذا يحدث في أي مكان تريده، أو يمكنك أن توجِّه ضربة قاضية إلى أعدائك البعيدين جدًّا».

استفسر كاستانيدا من معلمه، «هل طرتُ حقًّا يا دون خوان؟» وأجابه الشامان، «هذا ما أخبرتني به. أليس كذلك؟».

إذًا أنا لم أطر واقعيًّا يا دون خوان. أنا طرتُ في خيالي، في عقلي وحده. أين كان جسدي؟

وعلى ذلك أجاب دون خوان:

«أنت لا تعتقد أنّ الإنسان يطير؛ ولا حتى أنّ ساحرًا ما قد ينتقل آلاف الأميال في ثانية واحدة ليعرف ما الذي يجري. ويمكن أن يوّجه ضربة لأعدائه البعيدين جدًّا. فهل يطير عندها أم لا يطير؟».

هل يبدو هذا الصوت مألوفًا؟ يجب أن يكون. ما الذي سيتجادل حوله دون خوان وكاستانيدا لولا المزايا الخاصة لقانون إيبسكوبي الكنسي ولكتاب **مطرقة الساحرات** لإنستيتر وسبرنجر؟ هل طار الساحر بعقله لوحده أم بجسده أيضًا؟ وأخيرًا، سأل كاستانيدا دون خوان عما كان سيحدث فيما لو ربط نفسه بصخرة بوساطة سلسلة ثقيلة: «أخشى أنه سيجب عليك الطيران حاملًا الصخرة مع سلسلتها الثقيلة».

وكما وصَلَنا من هارنر، طارت الساحرات الأوروبيات بعد فرك أنفسهن بالدهون والمراهم المحتوية على المادة شبه القلوية النفاذة عبر الجلد؛ هي الأتروبين. أخبرنا هارنر أيضًا أنّ الأتروبين هو مكوّن نشيط في نبات من فصيلة الداتورا، ومعروف في العالم الجديد كعشبة جيمسن والتفاح الشوكي ومزمار غابرييل والتفاح المجنون وعشبة الشيطان؛ جذر آخر لهذه التشكيلة من النباتات هو الذي جعل كاستانيدا ينتقل جوًّا. وفي الواقع، توقع هارنر أنّ كاستانيدا سيطير مثل ساحر قبل أن يفرك نفسه بعشبة الشيطان:

مكتبة الفكر الجديد

عثرت منذ بضع سنوات على مرجع حول استخدام مرهم الداتورا بوساطة هنود الياكي في شمال المكسيك، وأشارت التقارير إلى أنهم دهنوه على البطن لـ «رؤية الرؤى». لفتُّ زميلي وصديقي كارلوس كاستانيدا الذي كان يدرس على يد شامان من هنود الياكي، إلى هذا الأمر، وطلبت منه معرفة ما إذا كان هنود الياكي قد استعملوا المرهم من أجل الطيران وتحديد تأثيراته.

هكذا، فإنّ الوعي الشاماني الفائق هو وعي سحرة يُنظر إليهم بعين العطف في عالم لم يعد مهددًا بمحاكم التفتيش. «الواقع المنفصل» غير المعروف في السابق لـ «الشعوب الغربية» الموضوعية المتعجرفة هو إلى حد كبير جزء من الحضارة الغربية التي كان «الموضوعيون» يُحرَقون فيها على الوتد منذ ثلاثمئة سنة لمجرد إنكارهم أنّ بوسع السحرة الطيران.

استشهدت في الفصل الأول، بالادّعاء القائل إنّ توسّع «الوعي الموضوعي» سيفضي حتمًا إلى فقدان «الحساسية الأخلاقية». تعتبر الثقافة المضادة والوعي الثالث نفسيهما اتجاهين مؤنسنين معنيين باستعادة المشاعر والحنان والحب والثقة المتبادلة في العلاقات الإنسانية. لكنني أجد من الصعب إصلاح هذا الوضع الأخلاقي من خلال الاهتمام الصريح بالسحر والشامانية. خذ دون خوان، على سبيل المثال: كان يمكن أن يوصف دون خوان كمجرد أخلاقي، إذ بوسعه معرفة كيف «يطوف بين القوى الخفية للكون»، لكنه غير قلق إزاء الفرق بين الخير والشر في الإحساس الغربي التقليدي بالأخلاقية. إنّ تعاليمه هي في الواقع خالية من «الحساسية الأخلاقية».

ورد في كتاب كاستانيدا الثاني حادث يلخص التعتيم الأخلاقي لوعي الشامان الفائق أكثر من أي شيء آخر. فبعد أن حقق الشهرة والثروة من تعاليم دون خوان، حاول كاستانيدا إيجاد معلمه ليقدم له نسخة. وبينما كان بانتظار ظهور دون خوان، درس مجموعة من أولاد الشوارع الذين عاشوا على الاقتيات بفضلات الطعام المتروكة على موائد فندقه. وبعد ثلاثة أيام من مراقبة الأطفال المندفعين إلى الداخل والخارج كـ «النسور»، أصبح كاستانيدا «يائسًا بالفعل». كان دون خوان مندهشًا لسماع ذلك. «هل تشعر

مكتبة الفكر الجديد

حقًّا بالأسف من أجلهم؟» أراد أن يعرف. أصرّ كاستانيدا على أسفه، وسأله دون خوان، «لماذا؟»، «لأنني مهتم برفاهية زملائي الرجال. هؤلاء أطفال وعالمهم قبيح ورخيص»، أجاب.

لم يقل كاستانيدا إنه يشعر بالأسف نحو الأطفال لأنهم كانوا يأكلون البقايا التي تركها على الطاولة. لكن ما سبّب له الضيق هو أنّ حياتهم كانت «قبيحة ورخيصة». الجوع والفقر هما مصدر الأفكار السيئة، أو الأحلام السيئة. عاتب دون خوان تلميذه بسبب افتراضه أنّ هؤلاء المتشردين قد لا يكونون ناضجين عقليًّا ليصبحوا «رجال المعرفة»:

هل تعتقد أنّ عالمك الغني جدًّا قد يساعدك لتصبح رجل معرفة؟

عندما اضطر كاستانيدا إلى الاعتراف أنّ ثراءه لم يساعده ليصبح ساحرًا ناجحًا، أوقفه دون خوان:

إذًا كيف يمكنك الشعور بالأسف نحو هؤلاء الأطفال؟... يمكن لأي منهم أن يصبح رجل معرفة. كل رجال المعرفة الذين أعرفهم كانوا صغارًا مثل هؤلاء الذين رأيتهم يأكلون البقايا ويلعقون الطاولات.

يرى كثيرون من أعضاء الثقافة المضادة، من الناحية الأخلاقية أن المنتَج الأكثر انحطاطًا من وجهة نظر العالم العلمية هو التكنوقراط، عديم الرحمة، الفني الغامض المكرّس للمعرفة الخبيرة، لكنه غير مبال بمن سيستخدمها ولأي غاية. حتى إن دون خوان ذاته على وجه الدقة مثل تكنوقراط. وإنّ المعرفة التي نقلها لكاستانيدا لا تحمل أي عبء أخلاقي. وفي أثناء صيرورته كونه «رجل معرفة»، كان اهتمام كاستانيدا الرئيس منصبًّا على تجنب أخذ شيء من شأنه أن يرميه في مدار دائم. مقارنةً بكل القلقين أخلاقيًّا حول كيفية تمثُّل القدرات غير العادية لدون خوان، فقد تعلّم كاستانيدا أيضًا كيفية قيادة الطائرة B 52. تجلت علاقة كاستانيدا بدون خوان في القفار الأخلاقي الذي تُعتبر فيه التكنولوجيا الخير الأسمى، حتى ولو أكل هو ومعلمه «الأزرار» عوضًا عن الضغط عليها.

مكتبة الفكر الجديد

أؤكد أنه من غير الممكن تقويض المعرفة الموضوعية كليًّا من دون تقويض الأحكام الأخلاقية. إن لم نتمكن بدرجة معقولة من اليقين معرفة مَنْ فَعَلَ، وماذا، ومتى، وأين، فبالكاد يمكننا أن نأمل بتقديم حساب أخلاقي عن أنفسنا. في حال عدم القدرة على التمييز بين المجرم والضحية، الغني والفقير، المستغِل والمستَغل، يجب علينا إما أن ندافع عن التعقيب الإجمالي للأحكام الأخلاقية، أو اعتماد وضعية الفاحص ومساءلة الأشخاص عما يفعلونه في كل أحلام الآخرين.

كما اكتشف مراسلو مجلة **التايم**، بينما كانوا يحاولون تكوين قصة حول كارلوس كاستانيدا، أنه يمكن للوعي الثالث أن يلقي بغلالة من الضباب الكثيف على أبسط الأحداث الإنسانية. متذرِّعًا بحريته في الاعتقاد، فإنّ كاستانيدا إما فبرك أو تخيل أو هلوس أجزاء واسعة من سيرته الذاتية:

- ولد في البيرو، وليس في البرازيل
- تاريخ الميلاد 1925، وليس 1935
- توفيت والدته عندما كان في السادسة من عمره، وليس في سن الرابعة والعشرين
- كان والده صائغًا، وليس أستاذًا في الأدب
- درس الرسم والنحت في ليما، وليس في ميلانو

«أن تطلب مني التأكد من صحة سيرتي بإعطائك بياناتي الخاصة» قال كاستيندا، «كأنك تستخدم العلم في تقييم الشعوذة. إن ذلك يسلب العالم سحره».

وفقًا لكاستانيدا، فإن دون خوان يستخدم الأسلوب نفسه. لم يرغب أشهر شامان في العالم بالتقاط صورة فوتوغرافية له أو أن يحصل على تسجيل صوتي له، أو مقابلته، حتى ولو من خلال خادمه الشخصي. لا يبدو أن ثمة من يعرف من هو دون خوان سوى كاستانيدا. اعترف كاستانيدا بملء إرادته: «كم أنا مدّعٍ، وكم أحب رمي الثيران من حولي»؛ في الأقل ثمة صديق واحد من البيرو يتذكره كـ «كاذب كبير».

مكتبة الفكر الجديد

ربما تكون شخصية دون خوان غير موجودة. أو ربما يمكننا القول بإن كاستانيدا قد التقى بأحد السحرة الياكيين في «عقله» وليس في «جسده». في ما يتعلق بسلطة محاكم التفتيش، فإن ذلك ما زال ماثلًا في التفسير الدقيق لتعاليم دون خوان. وربما ذهب كاستانيدا بـ «خياله» أحيانًا، وبـ «جسده» أحيانًا أخرى. إنها أفكار خادعة، لكنها يمكن أن لا تمثّل أكثر من مساهمة متخيَّلة في تحسين الحساسيات الأخلاقية لشخص ما.

تلبي الثقافة المضادة المطالب التي تمتد إلى ما هو أبعد من حدود الحماية المفترضة للأخلاقية الفردية. ويصر مؤيدوها أن الوعي الفائق يمكن أن يجعل العالم مكانًا أكثر صداقة وأكثر قابلية للعيش؛ هم يرون الارتحال من الموضوعية وسيلة سياسية فاعلة لتحقيق توزيع عادل للثروة وتدوير الموارد وإلغاء البيروقراطيات غير الشخصية وتصحيح الجوانب غير الإنسانية للمجتمعات التكنوقراطية الحديثة. تأتي هذه الأمراض المزعومة من الأفكار السيئة التي لدينا حول الدولة والعمل. إذا توقفنا عن محاولة لفت الأنظار، وإذا توقفنا عن الاعتقاد أن العمل شيء جيد بحد ذاته، فإن التحول الثوري سيحصل من دون الحاجة إلى أن تأذي أي شخص. وكما هو الحال في دنيا الخيال، «يمكننا أن نقوم بخيار جديد عندما لا نكون جاهزين أبدًا لفعل ذلك». إن الرأسمالية ودولة الشركات وعصر العلم والأخلاق البروتستانتية، كلها تمثل أنماطًا من الوعي، ويمكن استبدالها باختيار وعي جديد. «كل ما يجب أن نفعله هو إغلاق أعيننا وتصوّر أن كل شخص قد أصبح في حالة الوعي الثالث: دولة الشركات تتلاشى... قوة دولة الشركات ستنتهي بأعجوبة مثل قبلة تكسر سحر ساحرة شريرة».

إنّ الوعي الذي لا يزال بعيدًا كل البعد من القيود العملية والدنيوية هو، في الواقع، سحر أكثر من كونه سياسات. يمكن أن يبدل الناس وعيهم متى رغبوا في ذلك. لكن الناس عادة لا يرغبون في فعل ذلك. ويكون الوعي متكيفًا مع الظروف العملية والدنيوية. هذه الأوضاع لا يمكن أن تكون متخيَّلة داخل وجود أو خارج وجود الطريقة التي يقوم بها الشامان لجعل البعوض ذي المئة ساق

مكتبة الفكر الجديد

يظهر ويختفي. وكما أشرت في وقت سابق من الفصل المتعلق بـ «مهرجان الشتاء» (potlach)، فإن منظومات الهيبة والنفوذ لم تتولد بوساطة اهتزازات من الفضاء الخارجي. يكتسب الناس وعي الاستهلاكية التنافسية لأنهم مجبرون على فعل ذلك بوساطة قوى سياسية واقتصادية جبارة وهائلة. ويمكن أن يتم تعديل هذه القوى فحسب من خلال النشاطات العملية الهادفة إلى تغيير الوعي عبر تغيير الشروط المادية للوعي. إن أنباء الثقافة المضادة السارة عن ثورة من خلال الوعي ليست جديدة ولا ثورية. حاولت المسيحية طوال ألفي عام تحقيق ثورة من خلال الوعي. من سينكر أن الوعي المسيحي يمكن أن يكون قد غيّر العالم؟ حتى لو أن العالم هو الذي غير الوعي المسيحي. ولو تبنى كل شخص السلام والحب والكرم ونمط حياة غير تنافسي، لكان يمكن أن يكون لدينا شيء أفضل من الثقافة المضادة، كان يمكن أن تكون لدينا مملكة الرب.

تحتل السياسات المتخيَّلة في صورة الوعي الثالث مكانها في العقل وليس في الجسم. وإن ملاءمة هذا الشكل من السياسات لأولئك الذين يمتلكون الآن الثروة والسلطة لهو أمر جلي. إن التفكير من الناحية الفلسفية بأن الفقر يُعتبر، بعد كل شيء، حالة عقلية، كان دومًا مصدر راحة لمن ليسوا من الفقراء. وبهذا الصدد، بالكاد تقدم الثقافة المضادة شكلًا معدلًا زهيدًا من الحقد التقليدي الذي عبّر عنه الباحثون النظريون المسيحيون بالنسبة إلى الممتلكات الدنيوية. كما أن السياسات المحافظة التقليدية داخل التيار الرئيس هي الضمانة بأنه لن يحدث أي شيء بالقوة. الوعي الثالث سيدمر دول الشركات «من دون عنف، ومن دون الاستيلاء على القوة السياسية، ومن دون هزيمة أي مجموعة موجودة من الناس». تؤكد الثقافة المضادة مهاجمة العقول، وليس المكاسب الرأسمالية أو حصص الاستهلاك.

تعريفًا، إن الثقافة المضادة هي نمط حياة الشباب الذين تلقوا تعليمًا جامعيًّا، والمبعدين من الطبقة الوسطى. المبعدون بشكل خاص هم أولئك الذين «يستمرون في خدمة رفات الثورة البروليتارية» و«الشباب السود المحاربين». إن الأمل في أن تحوِّل الثقافة المضادة المجتمعَ إلى «شيء ما يمكن للبشر أن

مكتبة الفكر الجديد

يتعرفوا إليه وطنًا»، يستند إلى واقع أنها حركة الطبقة الوسطى. إن ما يجعلها على هذا الحد من الأهمية «هو أن الرفض الجذري للقيم التكنولوجية والعلمية قد يبدو أكثر قربًا إلى مركز مجتمعنا بدلًا من أن تكون في الهوامش المهملة. إنهم شباب الطبقة الوسطى الذين يقودون سياسات الوعي هذه».

إضافة إلى التساؤل عما إذا كانت سياسات الوعي الخالص يمكن أن تدعى سياسات كونها بديلًا من السحر أو بعض أشكال الشعوذة الأخرى فإن ثمة نقطتين ملتبستين أخريين تجب الإشارة إليهما: **الأولى**، إن الثقافة المضادة لا ترفض القيم التكنولوجية كلية؛ **والثانية**، إن رفض بعض أنواع العلم كان موجودًا دومًا في بؤرة حضارتنا تمامًا.

لا تعارض الثقافة المضادة الاستفادة من المنتجات التكنولوجية للبحث العلمي «الموضوعي»، إذ إن أجهزة الهاتف ومحطات الـ FM وأجهزة ستيريو الـ solid-state، ورحلات الطيران الرخيصة، وأقراص الأستروجين المنظمة للولادة، والمواد الكيماوية المهلوسة والترياق، هي أساسية لحياة طيبة من الوعي الثالث.

علاوة على ذلك، خلق الاعتماد على الموسيقى الصاخبة متناهية الدقة الدرجةَ القصوى من الخضوع للمصطلحات الشعبية حول التكنولوجيا في تاريخ الفنون المسرحية. ولذلك تتقبل الثقافة المضادة، في الأقل، وجود الاختصاصيين في العلوم الحيوية والفيزيائية الذين تعمل مهنهم على تصميم البنية التحتية التكنولوجية لنمط الحياة والمحافظة وصيانتها.

ليست العلوم المخبرية أكثر أنواع العلوم كرهًا من منظور الوعي الثالث، بل تلك التي تهدف إلى تطبيق المعايير المختبرية في دراسة التاريخ وأنماط الحياة. تصف الثقافة المضادة التحوُّل عن الدراسة العلمية للتاريخ وأنماط الحياة كما لو كانت غيابًا لنموذج رائع عميق في رسوخه. لكن حتى ضمن ما يسمى بالعلوم الاجتماعية والسلوكية، فإن الشكل الشائع من المعرفة لم يكن قط ما كانت تقرره الثقافة المضادة. كيف يمكن لأي شخص أن يتفاعل مع جرعة عالية من علم يتناول أنماط الحياة عندما يصرّ علم أنماط الحياة على أن

مكتبة الفكر الجديد

ليس للألغاز المدروسة في الفصول السابقة من هذا الكتاب من تفسير علمي. إن «التشييء» الواسع في دراسة ظواهر نمط الحياة ليس سوى أسطورة عن آلية حلم اجتماعية للثورة المضادة. إن الوعي السائد وسط معظم المهنيين المهتمين بتفسير ظواهر نمط الحياة هو افتراضيًّا غير قابل للتمييز من الوعي الثالث.

لو أن عودة السحر شملت انقلاب علوم الفيزياء والكيمياء والمختبرات الحيوية على الناس الذين يزدرون الدليل الموضوعي والتحليل المنطقي، فسيكون لدينا القليل مما نخاف عليه. إذ يمكن لاختبار الحرية بخصوص الإيمان بالمختبر أن يكون غير ذي جدوى فحسب بصورة موقتة حتى الإطاحة بالبقايا المتفحمة للمجربين فائقي الوعي مع الألغاز التي خلقوها. لسوء الحظ، إن الغموض المتعمَّد المطبق على أنماط الحياة ليس هدمًا ذاتيًّا. وإن المبادئ التي تمنع الناس من فهم أسباب وجودهم الاجتماعي تمتلك قيمة اجتماعية عظيمة. وفي مجتمع تسيطر عليه أساليب غير عادلة من الإنتاج والتبادل، فإن دراسات نمط الحياة التي تحجب وتشوّه طبيعة النظام الاجتماعي تكون شائعة إلى أقصى حد وتُقيَّم عاليًا مقارنة بالدراسات الأسطورية «الموضوعية» التي ترعب الثقافة المضادة. يفتقر الغموض المتعمَّد المطبق على أنماط الحياة إلى «تطبيقات عملية» هندسية عن العلوم المختبرية. إن الصوفيين والمزيفين والمخادعين لا يصابون بالإحباط تجاه الألغاز؛ في الواقع، ليس ثمة لغز لأنّ كل شيء يمضي كما كان دائمًا.

أوضحتُ في الفصول السابقة أن الوعي عميقَ الارتباك قادر أحيانًا على تعبئة المعارضة في حركات جماهيرية فعالة. رأينا كيف أن الأشكال الناجحة من النزعة الخلاصية في فلسطين وأوروبا وميلانيزيا استندت إلى اندفاعات ثورية واسعة النطاق هدفت إلى القيام بتوزيع أكثر عدالة للثروة والسلطة. ورأينا أيضًا كيف أن الكنيسة والدولة في عصر النهضة قد استخدمتا جنون السحر لتسحر وتربك الحركات الجذرية المجتمعية.

أين نقطة انسجام الثقافة المضادة مع هذا؟ هل هي قوة محافظة أم جذرية؟ إن الثقافة المضادة تتماهى، في آلية حلمها الخاصة، مع تقليد من التحول

مكتبة الفكر الجديد

الألفي. يقول تيودور روزاك إن الهدف الأول للثقافة المضادة هو نشر «سماء جديدة وأرض جديدة»، وفي مرحلته التكوينية، حمل الوعي الثالث الحشود من الشباب المعارض إلى حفلات الروك الموسيقية والاحتجاجات ضد الحرب. لكن حتى في ذروة فاعليتها التنظيمية، افتقدت الثقافة المضادة إلى أساسيات الخلاصية. ولم تحظَ بقادة موهوبين وساحرين، وافتقدت إلى رؤية محددة بوضوح للنظام الأخلاقي. أما في الوعي الثالث فليست القيادة سوى خدعة أخرى للمجمع العسكري الصناعي؛ وكما أشرت منذ لحظات، فإن مجموعة من الأهداف الأخلاقية المحددة بوضوح لا يمكنها أن تتوافق مع النسبية اللاأخلاقية للشامانات مثل دون خوان.

إن الطيران من الموضوعية والنسبية اللاأخلاقية وتقبُّل القدرة الكلية للتفكير تدل على الساحرة وليس على المنقذ. كما أن لدى الوعي الثالث الأعراض التقليدية كلها لآلية حلم ذي نمط حياة تتلخص وظيفته الاجتماعية بتبديد وتجزئة طاقات المعارضة، وهذا ما يجب أن يكون واضحًا من الأهمية الكبيرة المعطاة لـ «افعل الشيء الخاص بك». أنتم لا تستطيعون القيام بثورة إذا فعل كل شخص الشيء الخاص به. للقيام بثورة، يجب أن يفعل كل شخص الشيء نفسه.

هكذا، فإن عودة السحر ليست مجرد جزء صغير غامض من الهوى، إذ يمتلك انبعاث السحر الحديث نقاطًا واضحة من التشابه مع جنون القرون الوسطى المتأخر. وبالطبع ثمة كثير من الفرق المهم. إن السحر الحديث مثير للإعجاب بينما السحر القديم مخيف. لا يريد أي شخص من أتباع الثقافة المضادة حرق أي كان سواء من المعتقدين أم من غير المعتقدين بالسحرة – رايخ وروزاك ليسا إنستيتر وسبرينجر – لحسن الحظ أن ليس للثقافة المضادة التزام تجاه شخص محدد أو عقيدة. حتى الآن نحن متروكون مع حقيقة أن الثقافة المضادة ومحاكم التفتيش تقفان جنبًا إلى جنب في قضية رحلة السحر. ضمن حرية الثقافة المضادة في الاعتقاد فإن السحرة هم أكثر قابلية للتصديق من أي شيء آخر. هذا الاعتقاد، بكل براءة مرحه، يقوم بمساهمة محددة في

مكتبة الفكر الجديد

تماسك أو استقرار التفاوت المعاصر. ملايين الشباب المتعلِّم يؤمن جديًّا أن اقتراح تقبيل دولة الشركات من بعيد كما لو كانت «سحرًا شيطانيًّا» ليس أقل فاعلية أو واقعية من أي شكل آخر من الوعي السياسي. وعلى غرار سابقه القروسطي، فإن سحرنا الحديث هو بدعة تثلم وتربك قوى المعارضة، مثل استراحة الثقافة المضادة التي تؤخر تطور مجموعة منطقية من الالتزامات السياسية، وهذا هو سبب شعبيتها بين القطاعات الأكثر غنى من سكاننا. ومن أجل ذلك عاد السحر.

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Ash, Robert. *Social Movements in America*. Chicago: Markham, 1972.

Bock, Philip K. *Modern Cultural Anthropology*. 2nd ed. New York: Alfred Knopf, 1974.

Castaneda, Carlos. *Journey to Ixtlan*. Simon and Schuster, 1972.

_____. *A Separate Reality*. Simon and Schuster, 1970.

_____. *The Teachings of Don Juan*. Berkeley: University of California Press, 1968.

Harner, Michael (ed.). «Don Juan and the Sorcerer's Apprentice.» *Times Magazine*. 05/03/1973, pp. 36-45.

_____. «The Role of Hallucinogenic Plants in European Witchcraft.» in: Harner, Michael. *Hallucinogens and Shamanism*. New York: Oxford University Press, 1972.

Keniston, Kenneth. *Young Radical*. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1968.

Nobile, Philip (ed.). *The Con III Controversy: The Critics Look at the Greening of America*. New York: Pocket Books, 1971.

Reich, Charles A. *The Greening of America*. New York: Random House, 1970.

Reisman, Paul. «The Collaboration of Two Men and a Plant.» *The New York Times*. 22/10/1972.

Roszak, Theodore. *The Making of a Counter Culture: Reflections on the Technocratic Society and Its Youthful Opposition*. Garden City: Anchor, 1969.

Schiff, Martin. «Neo-transcendentalism in New Left Counter-Culture: A Vision of the Future Looking Back.» *Comparative Studies in Society and History*. vol. 15 (1973), pp. 130-142.

مكتبة الفكر الجديد

خاتمة

إذا كان السحر هنا، فهل يمكن أن يكون المنقذ بعيدًا جدًّا؟

طرح نورمان كوهن هذه القضية في كتابه **مواصلة الألفية** من أجل ربط الحركات المسيحية التي سبقت الإصلاح البروتستانتي بالاضطرابات العلمانية في القرن العشرين. انبثق وعي نمط حياة شخصيات من مثل لينين وهتلر وموسوليني، على الرغم من ازدرائهم الخرافات والأساطير الخاصة بالنصرانية المسيحية - اليهودية، نتيجة جملة أوضاع عملية ودنيوية مشابهة لتلك المسؤولة عن ظهور أمثال هؤلاء المنقذين الدينيين كجون ليدن ومونتزر و- سأضيف - مناحيم وبار كوخبا ويالي. يتشارك المخلِّصون الحربيون الملحدون والعلمانيون مع أسلافهم الدينيين بـ «بلا حدود، وعدًا ألفيًّا بلا حدود، وعدًا تم قطعه بعقيدة غير محدودة من شبه نبي». ومثلهم مثل المنقذين المسيحيين - اليهود، ادّعوا تحمل مسؤولية شخصية في مهمة حمل التاريخ لإتمام قدر محتوم. بالنسبة إلى هتلر كان من المتوجَّب أن يقوم ألف عام من الرايخ بالتطهُّر من اليهود الذين يعيشون معهم من السحرة والشياطين؛ وبالنسبة إلى لينين كان من الواجب أن تقوم أورشليم شيوعية، شعارها هو نفسه شعار المشاعة المسيحية الأولى: «وإنّ كل الذين آمنوا كانوا معًا ويمتلكون الأشياء كلها بصورة جماعية». أو كما اقترحها تروتسكي: «دع الكهنة من كل الملل الدينية يتحدثون عن الجنة في العالم الآخر - نحن نقول إننا سنخلق جنة حقيقية من أجل الناس على هذه الأرض». بالنسبة إلى الجماهير المُبعدة والمعرَّضة للخطر والمهمشة والمفقَرة والمعذَّبة والمسحورة، وعد المخلِّص العلماني بالإصلاح والتنفيذ على

مكتبة الفكر الجديد

المستوى الكوني. ليس ثمة فرصة لتحسين الحياة اليومية لامرئ من دون غيره، بل المشاركة الشاملة في مهمة تتعلق بـ «شأن فريد ومذهل».

لدى قياسها بالتصورات العظيمة عن الوعي الحربي الخلاصي، تبدو الثقافة المضادة وكأنّها تأكيد غير ضارّ لعدم جدوى النضال السياسي، سواء في صفوف اليسار أم اليمين أم الوسط. لكن الثقة بالنفس قادرة على التجاوب مع الوعي الثالث على المدى القصير فحسب وبغياب أي قواعد منظَّمة قادرة على تفسير العمليات السببية في التاريخ.

ليست نيّة «تدمير وجهة النظر العالمية العلمية» خطرة لأنها لا تهدد فعليًّا أي جزء من البنية التحتية التكنولوجية لحضارتنا. إن متحمسي الثقافة المضادة هم متّكلون على النقل ذي الطاقة الأعلى وإلكترونيات الـ solid-state، والإنتاج الضخم للأنسجة والغذاء كما نحن متّكلون، ويفتقدون لكل من الإرادة والمعرفة الضروريتين من أجل العودة إلى الأشكال الأكثر بدائية من الإنتاج والتواصل. على أي حال، ليس ثمة ما يخيف من أي طائفة أو طبقة أو أمّة تفشل في المشاركة في التقدم الإضافي للتكنولوجيا النووية وتكنولوجيا التحكم والضبط وتكنولوجيا الفيزيائية الحيوية. مثل هذه المجموعات سوف تعاني حتمًا مصير أناس العصر الحجري في القرن العشرين ذاته. يمكن أن يبقوا على قيد الحياة، لكن بصورة عارضة فحسب وبمعاناة شديدة من جيرانهم الأكثر قوة – تحت الوصاية أو في مجتمعات محمية لأهميتها في اجتذاب السياح. إن النكوص إلى مراحل أكثر بدائية في ميدان التكنولوجيا، أو حتى الحفاظ على مستوى التطور الذي وصلت إليه القوى الصناعية، هو أمر غير ممكن بل يبدو الأكثر سخفًا وطيشًا من بين الاقتراحات لأغلبية البشر الذين يصبحون يومًا بعد يوم أكثر تصميمًا على تحسين حيواتهم من خلال كسر الاحتكار الأوروبي – الأميركي والياباني للعلم والتكنولوجيا. إن مليون شخص ينشدون للرايخيين والروزاكيين يؤثرون في تقدم العلم والتكنولوجيا وانتشارهما تقريبًا بقدر تأثير سقسقة جدجد متشرد وحيد على تشغيل فرن الانفجار الآلي. إن تهديد الثقافة المضادة يكمن في مكان آخر.

مكتبة الفكر الجديد

لا يمكن لمرشدي الوعي الثالث بطريقة قابلة للتصور أن يوقفوا أو يبطئوا من تقدم التكنولوجيا؛ لكن يمكنهم زيادة مستوى الإرباك الشعبي المتعلق بما يمكن أن تقوم به التكنولوجيا للحدّ من المظالم والاستغلال عوضًا عن زيادة حدّتها، وكيف تعمل على خدمة الإنسانية وأهداف البناء بدلًا من أن تتسبب بالإرهاب والدمار. إن الفوضى العميقة والانطواء النفسي واللاأخلاقية التي تجسّدت في عودة السحر تحمل معها بالنسبة إلى كل مطّلع على تاريخ حضارتنا النذير الوشيك بعودة المخلِّص. إن ازدراء السبب والدليل والموضوعية - الوعي الفائق وحرية المعتقد - تجرّد بثبات جيلًا بأكمله من الوسائل الذكية لمقاومة النداء التالي من أجل «الصراع الحاسم والنهائي» لإنجاز الإصلاح والإنقاذ على الصعيد الكوني.

لا يمكن لرحلات العقل أو حالات الذهول أن تبدل الأساس المادي للاستغلال والاغتراب. ولن يغير الوعي الثالث من حقيقة أن الأساس أو السبب يكمن في بنية الرأسمالية أو الإمبريالية. ما ينتظرنا في المستقبل، بناء على ذلك، ليس يوتوبيا الـ «إفعله بنفسك»، بل بعض الأشكال الجديدة والأكثر خباثة من الخلاصية الحربية المحمولة بوساطة السلوك الغريب للطبقة الوسطى التي حاولت تدجين مفاهيمها العامة مع رسائل تخاطرية حول أن التفكير يمكن أن يؤنسن أكبر تركيز لثروة الشركات على الإطلاق بالذهاب حافي القدمين وتناول زبدة الفول السوداني غير المتجانسة.

كما قلت في بداية هذا الكتاب، إن التلفيق الأكثر خبثًا المرتكب باسم حرية المعتقد هو الجدال حول أننا مهددون بوساطة جرعة عالية من «الموضوعية» تتعلق بأسباب أنماط حياتنا الخاصة. إن نمط حياة مجموعات مثل اليانومامو والمارينغ يبيّن أن من الهراء المطلق الافتراض بأن الموضوعية العلمية هي إثم أصلي للإنسانية. وإنه لمن الواضح من تاريخ أوروبا وحدها أن البتر والسحل وتقطيع الأوصال والتعذيب والشنق والإغراق والصلب وحرق الناس الأبرياء متقدمة زمنيًا بفترة طويلة على نشوء العلم والتكنولوجيا الحديثين.

إن بعض الأنواع الخاصة من الظلم والاغتراب التي تسم المجتمع

مكتبة الفكر الجديد

الصناعي هي بوضوح منتجات لأدوات وتكنولوجيات خاصة باتت متوافرة من خلال التقدم الحاصل في العلوم الطبيعية والسلوكية. لكن ليس لأي من علوم أمراض حياتنا المعاصرة أن يلام على الجرعة العالية من الموضوعية العلمية المتعلقة بأسباب ظواهر نمط الحياة. ليست الموضوعية العلمية حول الأسباب الجوهرية للعنصرية هي ما يحمي إثنياتنا من رقاب بعضها بعضًا، أو ما يحول دون انقلاب الحافلات المدرسية ومجمعات بناء شقق العائلات المُعدَمة. وليست الموضوعية العلمية سبب شوفينية الذكور والإناث ومثليي الجنس. وليست الجرعة العالية من الموضوعية العلمية حول أنماط الحياة هي التي أنتجت الأولويات اللامتكافئة التي ساندت النزول على سطح القمر وإطلاق الصواريخ على المستشفيات والمدارس. ولم تكن جرعة عالية من الموضوعية العلمية حول أنماط الحياة هي التي سببت الأزمة السكانية. وماذا يمكن أن تفعل الموضوعية العلمية مع الشهوة اللامحدودة للاستهلاك الهائل والهدر الواضح والأبنية المتلاصقة الآيلة إلى السقوط، وحالة الجوع والجدب التلفزيوني والقوى الغريبة كلها المتفرعة عن الاقتصاد الرأسمالي التنافسي؟ هل كان فقدان حرية المعتقد هو سبب نهب الثروات المعدنية والغابات والتلوث، ونفث الغازات السامة في السماء وبقع النفط على الشواطئ؟ ما الذي كان منطقيًا أو عقلانيًا أو «موضوعيًا» أو علميًا في ما يتعلق بكل ذلك؟ كيف تفسِّر الجرعة الزائدة من الموضوعية حول أنماط الحياة، الحربَ التي لم يتمكن ثلاثة رؤساء من تقديم سبب منطقي للقتال فيها، لا بل ولم يتمكنوا من إيقافها أيضًا؟

يعتقد أحدهم أيضًا أن الموضوعية كانت نمط حياة مسيطرًا في ألمانيا في عام 1932، وأن العبادة الوحشية الآرية للرجولة الشقراء، ونبذ الساميين والغجر والسلافيين، وعبادة أرض الأجداد، والمغنين الفاجنريين، والمسير على طريقة خطو الأوز، ونشيد تحية النصر أمام الفوهرر، كلها نجمت عن ضمور «القدرات غَير العقلية» ومشاعر الشعب الألماني. الشيء نفسه بالنسبة إلى الستالينية مع عبادة العم جوزيف (ستالين) الخاصة بها، والانحناء أمام ضريح لينين، وتآمر الكرملين، ومعسكرات العبيد السيبيرية، ودوغمائية خط الحزب.

مكتبة الفكر الجديد

بالطبع، إنّ لدينا اختصاصيين باللعبة المحببة جدًا ذات المحصلة الصفرية، سيكونون فائقي الموضوعية، ويجعلون الحياة الإنسانية موضوعية من خلال تعداد الجثامين وحوسبة الموت. لكن الصدع الأخلاقي لمثل هؤلاء التكنولوجيين ومحرضيهم السياسيين هو تحجيم للموضوعية العلمية في ما يتعلق بأسباب الفروق في نمط الحياة، وليس فائضًا منها. ومن النادر أن يعزى الانهيار الأخلاقي لفيتنام إلى جرعة عالية من الوعي الموضوعي حول ماذا كنا نفعل. بل إن سببه الفشل في توسيع آفاق الوعي بالكاد أبعد من المهام الذرائعية للأهمية العملية والمبتذلة لأهدافنا القومية والسياسية. لقد واصلنا الحرب في فيتنام لأن وعينا كان مربكًا برموز حب الوطن وأحلام العظمة والاعتداد العنيد بالنفس والرؤى عن الإمبراطورية. كنا من ناحية المزاج بالضبط ما يريده لنا أناس الثقافة المضادة أن نكونه. تصورنا أننا كنا مهددين بالشياطين مائلة العيون وبالتافهين من ذوي العيون الصفراء الصغيرة؛ فَتنَّا أنفسنا برؤى عن عظمتنا الخاصة التي تفوق الوصف. باختصار، كنا متحجرين.

لا أرى سببًا لماذا يجب على الانغماس المتزايد في الأساليب المعقدة والمركزية العرقية واللامنطقية والذاتية من الوعي، أن يفضي إلى ما هو بالغ الاختلاف عن ذلك الذي يوجد لدينا مسبقًا: السحرة والمخلِّصون. نحن لسنا بحاجة إلى المزيد من الاهتزازات الغريبة وثقافة الأدوية النفسية ورحلات العقل الأكثر تهريجًا. وأنا لا أزعم أن الإشراقات الألفية سوف تأتي من فهم أفضل لأسباب ظواهر نمط الحياة. على الرغم من أن ثمة أساسًا راسخًا للافتراض أنه من خلال إزالة الغموض من وعينا الاعتيادي سوف نحسّن نظرتنا العامة إلى السلام والعدالة الاقتصادية والسياسية. إذا كان هذا التغيير المحتمل للخلاف في صالحنا طفيفًا جدًّا، كما أعتقد، فيجب أن نعتبر التوسّع في الموضوعية العلمية نحو ميدان ألغاز نمط الحياة ضربًا من الالتزام الأخلاقي. وإنه الشيء الوحيد الذي لم يجرَّب على الإطلاق.

مكتبة الفكر الجديد

المراجع

Books

Allegro, John M. *The Treasure of the Copper Scroll*. New York: Doubleday, 1964.

Ash, Robert. *Social Movements in America*. Chicago: Markham, 1972.

Banton, Micheal (ed.). *The Relevance of Models for Social Anthropology*. London: Association of Social Anthropology Monograph 1, 1965.

Baroja, Julio C. *The World of the Witches. Chicago*: University of Chicago Press, 1964.

Baron, Salo W. *A Social and Religious History of the Jews*. 2nd revised and enlarged ed. New York: Columbia University Press.

Benedict, Ruth. *Patterns of Culture*. New York: Mentor, 1946.

Berndt, Ronald M. & Peter Lawrence (eds.). *Politics in New Guinea*. Nedlands: University of Western Australia Press, 1971.

Biocca, Ettore. *Yanoama: The Narrative of a White Girl Kidnapped by Amazonian Indians*. New York: Dutton, 1970.

Bock, Philip K. *Modern Cultural Anthropology*. 2nd ed. New York: Alfred Knopf, 1974.

Brandon, S. G. F. *Jesus and the Zealots: A Study of the Political Factor in Primitive Christianity*. New York: Scribner, 1968.

_____. *The Trial of Jesus of Nazareth*. London: B. T. Batsford, 1968.

Brookfield, H. C. & Paula Brown. *Struggle for Land*. Melbourne: Oxford University Press, 1963.

مكتبة الفكر الجديد

Bultman, Rudolf. *Primitive Christianity in Its Contemporary Setting*. New York: World Publishing Co., 1966.

Castaneda, Carlos. *Journey to Ixtlan*. Simon and Schuster, 1972.

_____. *A Separate Reality*. Simon and Schuster, 1970.

_____. *The Teachings of Don Juan*. Berkeley: University of California Press, 1968.

Chagnon, Napoleon. *Yanomamo: The Fierce People*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1968.

Christansen, Palle. *The Melanesian Cargo Cult: Millenarianism as a Factor in Cultural Chande*. Copenhagen: Akademish Forlag, 1969.

Cochrane, Glyn. *Big Men and Cargo Cults*. Oxford: Clarendon Press, 1970.

Codere, Helen. *Fighting with Property: A Study of Kwakiutl Potlatches and Warfare*. Monographs of the American Ethnological Society. 18. 1950.

Cohn, Norman. *The Pursuit of the Millennium*. New York: Harper Torchbooks, 1961.

Cullmann, Oscar. *Jesus and the Revolutionaries*. New York: Harper and Row, 1970.

_____. *State in the New Testament*. New York: Harper and Row, 1956.

Dentan, Robert K. *The Semai: A Non-violent People of Malaya*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1968.

Douglas, Mary. *Purity and Danger: An analysis of Concepts of Pollution and Taboo*. New York: Praeger, 1966.

Edwards, George R. *Jesus and the Politics of Violence*. New York: Harper and Row, 1972.

Engels, Frederick. *The Origins of the Family, Private Property and the State*. New York: International Publisher, 1972.

Farmer, William R. *Maccabees, Zealots and Josephus*. New York: Columbia University Press, 1956.

Ford Foundation. *Report on India's Food Problems and Steps to Meet It*. New Delhi: Government of India, Ministry of Food and Agriculture, 1955.

Frazer, James. *The Golden Bough*. New York: Criterion Books, 1959.

مكتبة الفكر الجديد

Fried, M., M. Harris & R. Murphy (eds.). *War: The Anthropology of Armed Conflict and Aggression*. New York: Doubleday, 1968.

Fried, Morton. *The Evolution of Political Society*. New York: Random House, 1967.

_____. (ed.). *Explorations of Anthropology*. New York: Thomas Y. Crowell, 1973.

Fromm, Erich. *The Dogma of Christ: And Other Essays*. Garden City, N. J.: Anchor paperback, 1966.

Furst, Peter. *Flesh of the Gods*. New York: Praeger, 1972.

Gandhi, Mohandas K. *How to Serve the Cow*. Ahmedabad: Navajivan Publishing House, 1954.

Grant, Robert. *Augustus to Constantine: The Thrust of the Christian Movement into the Roman World*. New York: Harper and Row, 1970.

Grant, Robert M. *A Historical Introduction to the New Testament*. New York: Harper and Row, 1963.

_____. *Religion in Ancient History*. New York: Scribner, 1969.

Harner, Michael (ed.). *Hallucinogens and Shamanism*. New York: Oxford University Press, 1972.

Harris, Marvin. *Culture, Man and Nature: An Introduction to General Anthropology*. New York: Thomas Y. Crowell, 1971.

Hobsbawn, E. J. *Primitive Rebels*. New York: W. W. Norton, 1965.

Hogbin, Ian. *A Guadalcanal Society: The Kaoka Speaker*. New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1964.

_____. *The Island of Menstruating*. San Francisco: Chandler, 1970.

The Holy Bible: Scofield Reference Bible. New York: Oxford University Press, 1945.

Institor H. & J. Sprenger. *Malleus Maleficarum*, trans. the Reverend Montague Summers. London: Pushkin Press.

The Jivaro: People of the Sacred Waterfalls. New York: Doubleday, 1972.

Josephus, Flavius. *Jewish Antiquities*. trans. H. St. John Thackeray. 6 vols. London: Heinemann, 1926.

_____. *The Jewish War*. trans. G. A. Williamson. Baltimore: Penguin Books, 1970.

مكتبة الفكر الجديد

Keniston, Kenneth. *Young Radical*. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1968.

Lanternari, Vittorio. *The Religions of the Oppressed*. New York: Knopf, 1963.

Lea, Henry C. *Materials Toward a History of Witchcraft*, 3 vols. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1939.

Lawrence, Peter. *Road Belong Cargo*. Manchester: Manchester University Press, 1964.

Leff, Gordon. *Heresy in the Later Middle Ages*. 2 vols. New York: Barnes & Noble, 1967.

Meggers, Betty J. *Amazonia: Man and Culture in a Counterfeit Paradise*. Chicago: Aldine, 1971.

Midelfort, H. C. Erik. *Witch Hunting in Southwestern Germany*. Stanford: Stanford University Press, 1972.

Moorman, John. *A History of the Franciscan Order*. Oxford: Clarendon Press, 1968.

Mount, Lawrence E. *The Climatic Physiology of the Pig*. London: Edward Arnold, 1968.

Nobile, Philip (ed.). *The Con III Controversy: The Critics Look at the Greening of America*. New York: Pocket Books, 1971.

Oliver, Douglas. *A Solomon Islands Society*. Cambridge: Harvard University Press, 1955.

Otten, Charlotte M. (ed.). *Aggression and Evolution*. Lexington, Mass.: Xerox College Publishing, 1973.

Rappaport, Roy A. *Pigs for the Ancestors: Ritual in the Ecology of a New Guinea People*. New Haven: Yale University Press, 1967.

Reich, Charles A. *The Greening of America*. New York: Random House, 1970.

Rohner, Ronald P. & Evelyn C. Rohner. *The Kwakiutl: Indians of British Columbia*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1970.

Rostovtsev, Mikhail. *The Social and Economic History of the Roman Empire*, 2 vols. Oxford: Clarendon Press, 1957.

Roszak, Theodore. *The Making of a Counter Culture: Reflections on the Technocratic Society and Its Youthful Opposition*. Garden City: Anchor, 1969.

مكتبة الفكر الجديد

Russell, Jeffery B. *Witchcraft in the Middle Ages*. Ithaca: Cornell University Press, 1972.

Sandmel, Samuel. *The First Christian Century in Judaism and Christianity*. New York: Oxford University Press, 1969.

Sahlins, Marshall. *Tribesmen*. Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1968.

Schneider, David & Kathleen Gough. *Matrilineal Kinship*. Berkeley: University of California Press, 1961.

Schweitzer, Albert. *The Quest of the Historical Jesus*. New York: Macmillan, 1964.

Spooner, Brian (ed.). *Population Growth: Anthropological Implications*. Cambridge: MIT Press, 1972.

Thurpp, Sylvia (ed.). *Millennial Dreams in Action*. The Hague: Mouton and Co., 1962.

Towne, Charles Wayland. *Pigs, from Cave to Corn Belt*. Norman: University of Oklahoma Press, 1950.

Trevor-Roper, H. R. *The European Witch Craze of the Sixteenth and Seventeenth Centuries and Other Essays*. New York: Harper and Row, 1969.

Ucko, P. J. & G. W. Dimbleby (eds.). *The Domestication and Exploitation of Plants and Animals*. Chicago: Aldine, 1969.

Vayda, Andrew p. (ed.). *Environment and Cultural Behavior*. Garden City, N. J.: Natural History Press, 1969.

Vayda, Cherry Loman. Personal Communication.

Veblen, Thorstein. *The Theory of the Leisure Class*. New York: Modern Library, 1934.

Walace, Wilson D. *Messiah: Their Role in Civilization*. Washington D. C.: American Council on Public Affairs, 1943.

Warner, H. J. *The Albigensian Heresy*. New York: Russell and Russell, 1967.

Wilbert, Johannes. *Survivors of Eldorado*. New York: Praeger, 1972.

Williams, George H. *The Radical Reformation*. 2 vols. Philadelphia: The Westminster Press, 1957.

Worsley, Peter. *The Trumpet Shall Sound: A Study of «Cargo» Cults in Melanesia*. New York: Schocken Books, 1968.

مكتبة الفكر الجديد

Zeuner, Frederick. *A History of Domesticated Animals*. New York: Harper and Row, 1963.

Periodicals

Berndt, Ronald. «Reaction to Contact in the Eastern Highlands of New Guinea.» *Oceania*. vol. 23 (1952), pp. 190-228, 255-274.

Boas, Franz. «The Social Organization of the Kwakiutl.» *American Anthropologist*. vol. 22 (1920), pp. 111-126.

Damas, David. «Central Eskimo System of Food Sharing.» *Ethnology*. vol. II (1972), pp. 220-239.

Dandekar, V. M. «Cow Dung Models.» *Economic and Political Weekly* (August 2, 1969), pp. 1267-1271.

Guiart, Jean. «John Frum Movement in Tana.» *Oceania*. vol. 22 (1951), pp. 165-175.

Hanumantha Rao, C. H. «India's 'Surplus' Cattle.» *Economic and Political Weekly*. vol. 5 (October 3, 1970), pp. 1649-1651.

Harris, Marvin et al. «The Cultural Ecology of India's Sacred Cattle.» *Current Anthropology*. vol. 7 (1966), pp. 51-60.

Heston, Alan et al. «An Approach to the Sacred Cow of India.» *Current Anthropology*. vol. 12 (1971), pp. 191-209.

Hogbin, Ian. «Social Advancements in Guadalcanal.» *Oceania*. vol. 8 (1938).

Langer, William. «Checks on Population Growth: 1750-1850.» *Scientific American*. vol. 226 (February 1972), pp. 94-99.

Lee, Richard. «Eating Christmas in the Kalahari.» *Natural History* (December 1969), pp. 14ff.

Odend'hal, Stewart. «Gross Energetic Efficiency.» *Journal of Human Ecology*. vol. 1 (1972), pp. 1-27.

Pacific Islands Monthly (July 1970- April 1972).

Protsch, R. & R. Berger. «The Earliest Radiocarbon Dates for Domesticated Animals.» *Science*. vol. 179 (1973), pp. 235-239.

مكتبة الفكر الجديد

Raj, K. N. «India's Sacred Cattle: Theories and Empirical Findings.» *Economic and Political Weekly*. vol. 6 (March 7, 1971), pp. 717-722.

_____. «Investment in Livestock in Agrarian Economies: An Analysis of Some Issue Concerning 'Sacred Cows' and 'Surplus Cattle'.» *Indian Economic Review*. vol. 4 (1969), pp. 1-33.

Schiff, Martin. «Neo-transcendentalism in New Left Counter-Culture: A Vision of the Future Looking Back.» *Comparative Studies in Society and History*. vol. 15 (1973), pp. 130-142.

Smith, Morton. «Zealots and Sicarii: Their Origins and Relations.» *Harvard Theological Review*. vol. 64 (1971), pp. 1-19.

Sorenson, E. Richard et al. «Socio-Ecological Change Among the Fore of New Guinea.» *Current Anthropology*. vol. 13 (1972), pp. 349-384.

Stone, Michael E. «Judaism at the Time of Christ.» *Scientific American* (January 1973), pp. 80-87.

Vayda, Andrew P. «Phases of the Process of War and Peace Among the Marings of New Guinea.» *Oceania*. vol. 42 (1971), pp. 1-24.

_____. «A Re-Examination of Northwest Coast Economic Systems.» *Transactions of the New York Academy Sciences*. vol. II. no. 23 (1961), pp. 618-624.

Dissertation

Shapiro, Judith. «Sex Roles and Social Structure Among the Yanomamo Indians in North Brazil.» PhD. Dissertation, Columbia University. New York, 1971.

Encyclopedias

Encyclopedia of Papua and New Guinea.

The Jewish Encyclopedia. 1962.

مكتبة الفكر الجديد

فهرس عام

- أ -

آدم (النبي): 138، 142

آردري، روبرت: 106

آسيا: 44، 193

الآلات الحربية: 166

الآلات الزراعية: 22

آلهة نيو غينيا: 143-145

الآلهة الوثنية: 145

آلية الحلم الاجتماعي: 119، 175، 244-245

آندرو، فايدا: 68، 72

الآي تشينغ: 233

الإبادة الذاتية: 65

الأبحاث الأنثروبولوجية الحديثة: 44

أبقار المدينة: 29-30

ابن ميمون، موسى: 42-45

الاتحاد السوفياتي: 65

أثرونجيوس: 167

الاجتماع بالشياطين: 201-210، 212، 225، 228

الإجهاض: 80

الاحتجاج الاجتماعي: 224

الاحتلال الياباني لبورما (1942-1945): 26

أحجار القتال السحرية: 74-76

الأحزاب السياسية: 149

الأحصنة: 44

الأحكام الأخلاقية: 240

الاختلافات الجنسية الفطرية: 87

الأخلاق البروتستانتية: 241

الأخلاقية الفردية: 241

الأداء الاجتماعي: 9

الإدارة الاقتصادية والادخار البروتستانتي الغربي: 30

الإدانة الإنجيلية للخنزير: 42

الإدانة القرآنية للخنزير: 42

الأدبيات المقدسة: 177

الأدوار الاجتماعية: 87

الأدوار الجنسية: 93

أدوم: 156

مكتبة الفكر الجديد

الأراضي الموعودة: 176
الإرباك الشعبي: 251
الارتباك الاجتماعي: 9
الأردن: 162، 176
الأرستقراطية الهيرودية: 166
الأرض المقدسة: 155
إرميا (النبي): 156
الأرواح الشريرة: 121
أريحا: 162
إزالة الغابات: 49، 74
الازدهار الصناعي: 134
الأزمة السكانية: 252
الأساطير: 12-13، 249
أساطير الأمازونيات القديمة: 89
أساطير نيو غينيا: 143
أساطيل الأحمال: 134
استراتيجية التكيف: 81
أستراليا: 45، 139، 141
الاستعراضات التنافسية: 120
الاستعمار: 167، 169
الاستعمار الاقتصادي : 157
الاستعمار الروماني: 168-169
الاستعمار السياسي: 157
الاستغلال الاجتماعي: 159
الاستغلال الاستعماري: 148
الاستغلال الاقتصادي: 159
الاستهلاك الاستعراضي: 111-113، 120، 122، 126-127
الاستهلاكية التنافسية: 242
إسحق (النبي): 46
إسرائيل: 188
الإسكيمو: 124، 127
الإسلام: 41، 218، 220
الأسلحة: 88
الأسلحة البدائية: 107
الأسلحة الحديثة 147
الأسلحة الرومانية: 166
الأسلحة النووية: 70
الأسلحة اليدوية: 77، 79، 88
الأسماك: 103، 113، 118، 126
الأسماك عديمة الحراشف: 49
الأسيرات الإناث: 100
أشجار الموز: 101-102، 141
أشعيا (النبي): 156، 176
الاصطفاء الجنسي: 101
الإصلاح البروتستانتي: 217، 221-224، 249
الاضطرابات العلمانية: 249
الاضطرابات المسيحية: 217
الاضطهاد الروماني: 195
الأطراف الخارقة للطبيعة: 88
أطفال إسرائيل: 179، 191
إعادة التوزيع التنافسي: 122
إعادة توزيع الثروة: 119-120، 125-128، 137، 229
إعارة الزوجة: 99

مكتبة الفكر الجديد

الإعدامات الجماعية: 228
الأعراف: 11-12
أعشاب الكوناي الكثيفة: 75
الأعمال الزراعية الأميركية: 22-23، 28
أعمال السخرة: 158
الأعمال اليدوية: 142، 145
الاغتراب: 218، 251
الاغتيالات السياسية: 165
الإغريق السوريون: 156
الأغنام: 43-49
الأفاعي: 49
الافتداء الحربي- المسيحي: 156-157
أفريقيا: 45
الأفعال العنيفة: 66
الأفكار السحرية: 206
الأفكار اليهودية: 179
الاقتصاد الرأسمالي التنافسي: 252
الاقتصاد السياسي: 34
الاقتصادات الاستهلاكية الحديثة: 112
اقتصاديات الفلاح التقليدية: 35
الاقتناء التنافسي للثروة: 126
الإقطاع: 217
ألاسكا: 112
الألبيون (الطهرانيون): 208
الالتزام الأخلاقي: 253
الالتزامات السياسية: 246
ألغاز السحر: 201
ألكساندر الرابع (البابا): 208
ألمانيا: 136، 208-209، 219-220، 222، 228، 252
إله الأحمال: 140
أليعازر بن حنانيا: 166
أليعازر بن دينايوس: 164-165
أليعازر (الحبر): 158
الأمازون: 8، 102-103
أمان الجماعة: 55
الإمبراطور النائم: 219
الإمبراطورية الرومانية: 160-161، 169-170، 175، 189-190، 196
الإمبراطورية اليهودية المقدسة: 156، 181، 186، 188، 191، 193
إمبراطورية داوود: 154، 159، 168، 181
الإمبريالية: 251
الأمراض الأوروبية: 118
الأمراض الجسدية: 45
الإمكانات البشرية للعنف: 66
أميركا: 19
الأناجيل المسيحية: 157-158، 160، 163، 170، 176، 182-187، 189، 192، 194
أنبياء الأحمال: 134-135، 140-141

مكتبة الفكر الجديد

أنبياء العصر الثالث: 224
الأنبياء المنتظرون: 167
الأنبياء اليهود: 155
إنتاج الغذاء: 73
إنتاج لحم العجل: 27
الانتفاضات المسيحية - الحربية: 217
الانتفاضة الحربية - الخلاصية: 185، 223
الانتقام: 66
الأنثروبولوجيا: 13
أنثروبولوجيا الثقافة المضادة: 235
الأنثى الخاضعة: 106
الإنجيل: 42، 184، 189
- إنجيل متى: 138
- إنجيل مرقس: 187، 192، 194
إنستيتر، هنريش: 209، 224-225، 237، 245
أنطاكيا: 191
الأنظمة السياسية: 126
إنغلز، فريدريك: 89
الانفراج النووي: 65
إنكلترا: 17، 80، 210، 223-224
أنماط الثقافة: 112
أنماط الحياة: 8-14، 17، 87، 107، 111-112، 119-120، 180، 225-226، 228، 243-245، 251-253
أنماط الحياة الدينية: 153
الانهيار الأخلاقي: 253
الأهداف الأخلاقية: 245
الأهداف السياسية: 253
الأهداف القومية: 253
الإهمال الانتقائي: 88، 100، 104-105
الأواصر الاجتماعية: 51
الأوبئة: 218
- الجدري: 118
- الطاعون: 44، 227، 233
أوتار براديش (الهند): 33
أودندهال، ستيوارت: 25، 29، 35
أوراق الموز: 116
أورشليم: 155-158، 162-163، 165-167، 178-179، 181-182، 186-189، 191-194، 220، 249
أوروبا: 44، 201، 206، 208-209، 217-218، 220-221، 224، 244
أوروبا الغربية: 126
أوفنبرغ (ألمانيا الغربية): 202
أولاد صهيون: 181
إيريان: 134
إيطاليا: 208
إينوس (الإله): 138، 140

مكتبة الفكر الجديد

- ب -
بابل: 155-156
بار كوخبا: 168، 170، 178، 194، 249
باراباس (القائد): 164
باستور، لويس: 44
باكارد، فانس: 111
باكستان: 19، 33
البحث الاجتماعي: 9
البحث العلمي الموضوعي: 243
البحث عن المكانة: 112
البحر الأبيض المتوسط: 182، 195
البرازيل: 41، 71، 90، 102، 240
براندن، س. ج. ف.: 186-187، 192، 194
البرلمان الهندي: 19
البروباغاندا الألمانية: 140
البروتستانت: 223
البروتين: 57، 59، 69، 102-105، 111
البروتين الحيواني: 57
بروتين الخضراوات: 57
البروسيون القدماء: 96
بريسبن (أستراليا): 142-144
البزنس الزراعي: 24، 27، 35
البستنة: 72-75، 78
البطانيات: 113-114، 119
بطليموس (القائد): 162
البعثة المسيحية: 148
البغال: 44
البقرة الدربانية: 18-19، 21-22، 24-25، 33
البقرة المقدسة: 17، 20، 28، 36
بلاد ما بين النهرين: 46
بنديكت، روث: 11، 14، 112، 115، 118
البنغال: 26، 29
بنو إسرائيل: 46، 178، 192
البنية التحتية التكنولوجية: 243، 250
بوذا: 234
بولس (الرسول): 189-194
بوهيميا: 221
بيت لحم: 154
بيت مال ساتورن: 194
البيرو: 212، 240
البيروقراطيات: 241
بيريا: 162
بيلاطس البنطي (الحاكم): 163، 175، 177، 185-186، 195
بيهار (منطقة): 26
- ت -
تاريخ أوروبا: 251
تاريخ الفنون المسرحية: 243
التاريخ القريب: 14
التأمل: 233

مكتبة الفكر الجديد

التأملات الخلاصية: 161
التبادل الاقتصادي: 119، 121، 124، 133
التبادل الودي: 121-122، 124-128
التبديد الاستعراضي: 111-113، 122، 126-127
التبشير: 222
تحرر النساء: 78-79
التحريم الجزئي: 58
التحريم الغذائي (الإلهي): 44-45، 49
التحريم الكلي: 58
تحريم لحم الخنزير: 43، 57
التحليل السياسي: 148
التحول الثوري: 241
التحيز الذكوري: 93
التدهور البيئي: 76
التراتبية الجنسية البشرية: 87
تربية الخنازير: 52-53، 58-59، 72-73، 79، 145
ترهيب الزوجة: 91
تروتسكي، ليون: 249
تريفر روبر، هوف: 205
التساوي في الحقوق: 120-122
تشريع إبيسكوبي الكنسي: 207-210، 237
التشريعات المقدسة: 26
التشييء: 14، 244
تشييء الوقائع الإنسانية: 14
التصعيد الخلاصي - الحربي: 226
التصوف: 224
التضحية اليومية بالحيوانات: 166
التعاليم الهنودسية اللاعقلانية: 18
التعبئة الفاعلة: 34
التعتيم الأخلاقي: 238
تعدد الزوجات: 100
التعذيب: 202-208، 213، 217، 223، 227، 251
التعفف الأخلاقي: 80
التعليم المسيحي: 139
التعميد: 179
التفسيرات المروحنة: 12
التفسيرات الواقعية المادية: 12
التفوق الجنسي: 88
تقاليد الطبخ: 50
التقسيم الطبقي: 128
تقسيم العمل: 78
تقنيات ضبط الولادة: 79
التقوى الجذرية: 222
التكتلات السكانية: 127، 158
التكنوقراط: 239
تكنولوجيا التحكم والضبط: 250
تكنولوجيا الحرب: 107
تكنولوجيا الدفاع والعدوان: 88، 105

مكتبة الفكر الجديد

التكنولوجيا الغربية: 233
التكنولوجيا الفيزيائية الحيوية: 250
التكنولوجيا المتقدمة: 14، 239، 243، 250-251
التكنولوجيا النووية: 250
التكيف البيولوجي: 88
التمييز بحسب الجنس: 8، 14، 78، 90، 105
التمييز الطبقي: 224
التمييز العرقي: 192
التناقض اللاهوتي: 43
التنمية: 34، 141
التنمية الاقتصادية: 144
التنمية التعليمية: 144
التنمية السياسية: 144
التنويم المغناطيسي: 136
التهديد البيئي: 76
التوازن البيئي: 69
التوت: 113-114، 118
التوراة: 46
- سفر التكوين: 41
- سفر الخروج: 44
- سفر دانيال: 156
- سفر الرؤيا: 188
- سفر العدد: 178
- سفر اللاويين: 41
تيتوس (ابن فسباسيان): 160-161، 166، 189، 194

- ث -

الثروات المعدنية: 252
الثروة الصناعية: 136
الثروة المراكمة: 119
ثقافة الأدوية النفسية: 253
ثقافة الدوبوانز: 11
ثقافة الزوني: 11
ثقافة الكواكيوتل: 11
ثقافة المخلص: 157
الثقافة المضادة: 14، 233-235، 238-239، 241-246، 250، 253
الثورة الاجتماعية: 222
الثورة البروليتارية: 242
الثورة البلشفية (1917): 71
الثورة الثقافية: 127
الثورة الجنسية: 107
الثورة الخلاصية: 220
الثورة الفلاحية الكبرى (1525): 222
الثورة في الوعي: 234
الثورة المسلحة: 222
الثورة المضادة: 244
ثورة اليهود ضد روما (66-73): 161، 168-169، 189

مكتبة الفكر الجديد

ثـولـومايوس (زعيم قطاع الطرق): 164
الثيران: 20-21، 23، 29-35
الثيران الدربانية: 24
ثيوداس (شخصية خلاصية): 164، 167

- ج -

جالدو أنفسهم: 219-220، 224
جالوت: 154، 157
جامعة بنسلفانيا: 18، 90
جامعة تورونتو: 122
جامعة جونز هوبكنز: 25
جامعة شيكاغو: 93
جامعة مانشستر: 186
جامعة ميتشيغن: 51، 71
جاموس الماء: 20-21، 29، 33-34
جبال الألب: 196
جبال بسمارك (نيو غينيا): 51، 54، 68، 133، 135
جبل الزيتون (فلسطين): 221
جبل تورو (نيو غينيا): 135
جبل سيناء: 45
جدعون (القائد): 223
الجرابيات: 57
الجراد: 42، 176، 179
الجرذان: 57
جزر سليمان: 116
الجزر الميلانيزية: 41
جزيرة تانا: 135
جزيرة فانكوفو: 112-113
جزيرة نيوهانوفر: 135
الجفاف الدوري: 25-26، 29
الجلود الحيوانية: 113، 119، 176، 179
الجليل: 158، 160-163
الجماعات الإثنية: 45
الجماعات الأضعف: 68
الجماعات الأقوى: 68
الجماعات البدائية: 72، 77
الجماعات الحضرية: 195
الجماعات الدينية: 45
الجماعات العدوانية: 67
الجماعات المسيحية: 189، 194
الجماعات اليهودية: 190
جماعة الموت الأسود: 220
جماعة قمران: 177
الجماهير الآسيوية: 26
الجنادب: 42
الجنس: 106-107، 111، 138
جنون السحر: 204، 206، 211، 224-229، 244
جنون السحر الأوروبي: 206
جنون العظمة: 115
الجهل: 13-14
جوز الهند: 116، 141

مكتبة الفكر الجديد

الجوقة الملائكية: 220
جوناثان (الكاهن): 165
جونسون، ليندون: 135
جوينز، إلز: 202-204، 225
الجيش الأسترالي: 141
جيش التحرير اليهودي: 160
الجيش الروماني: 157
جيش الفلاحين: 223
جيش القديسين: 220
الجيوش الإمبراطورية الآسيوية: 155
الجيوش الإمبراطورية الأفريقية: 155
الجيوش الإمبراطورية الأوروبية: 155

- ح -

الحاخامية اليهودية: 42-43
حاصور: 156
حالة التنافس: 115
حالة الحرب: 103، 105
حالة الحرب الحديثة: 70
حام (ابن نوح): 138
حب البقرة: 17، 19-21، 25-34، 51، 66
حب الخنزير: 50-51، 60
حديقة حيوانات بريسبن: 142
الحراثة: 20-21
الحرب الأهلية الإنكليزية (1642-1651): 223
الحرب البدائية: 70، 76، 79، 81
الحرب الثورية الأميركية (1775-1783): 168
الحرب الخلاصية: 189
حرب الرماة: 163
حرب الرمح: 97
الحرب العالمية الأولى (1914-1918): 71، 137
الحرب العالمية الثانية (1939-1945): 26، 71، 134-135، 139
حرب العصابات: 89، 157، 162، 180، 184، 189
الحرس الملكي الروماني: 166
الحركات الاحتجاجية المتطرفة والعنيفة: 224
الحركات الجذرية المجتمعية: 244
الحركات الخلاصية الحربية: 218، 228-229، 251
الحركات الدينية السرية: 210
الحركات المسيحية: 224، 249
حركة الراشدين: 233
الحركة الهوسية: 221
الحرمان الجنسي: 106
حروب الإمبراطوريات الحديثة: 65
الحروب البرية: 71
الحروب الجوية: 71
الحروب الصليبية: 220
حروب الهوس: 221

مكتبة الفكر الجديد

الحرية: 165، 168، 233، 236، 244
حرية الاعتقاد: 233، 240، 245، 251-252
حزب المؤتمر (الهند): 19
حزقيا: 162
حزقيال (النبي): 156
الحساسية الأخلاقية: 14، 238، 241
الحشرات: 42
حصار يوتاباتا: 160
حصن مسعدة: 163، 167-168
الحضارة: 148
الحضارة الغربية: 175، 238
الحظر الإلهي للخنزير: 46
حظر الذبح: 25
الحظر الهندوسي على لحوم الأبقار: 48-49
الحقائق البيولوجية: 87
حقوق الأبقار: 19
الحكام البروتستانت: 223
الحكام الكاثوليك: 223
الحكم الاستعماري: 158
الحكم الألفي للعقل: 233
الحكم الروماني: 157
الحكومة الأسترالية: 144، 146
الحكومة الاستعمارية: 186
الحكومة الرومانية: 185
الحلازين: 49
حلفاء الشيطان: 206
الحلم الجماعي: 13
الحلم الحربي - الخلاصي: 170
حليب البقرة: 41
الحملات القمعية: 221
حملة الرعاة الصليبية: 220
الحملة الصليبية الألبية: 208
حملة حماية الأبقار: 20
الحمى المالطية: 43
حواء: 138، 142
الحياة الاجتماعية: 13
الحياة الجنسية الوحشية: 103
الحياة الحربية: 157
الحياة الحضرية: 46
الحياة الخلاصية المثالية: 154
الحياة الدينية: 89
الحياة الطبيعية: 235
حياة الفقر الرسولية: 221
الحياة القبلية: 69
الحياة القروية: 46
الحياة المدنية: 89
الحيوانات الأميركية: 21
حيوانات الحراثة: 20-21، 26
الحيوانات الداجنة: 27، 46، 48
حيوانات الغابة: 103
الحيوانات الغريبة: 142
الحيوانات المائية: 102

مكتبة الفكر الجديد

الحيوانات المحرمة: 45، 49
الحيوانات المنزلية: 125، 142

- خ -

الختان: 191
الخرافات: 12-13، 249
الخزي الإلهي: 50
الخضراوات: 118
الخطة الاقتصادية الاستعمارية: 148
خطوبة الرضيعات: 100
الخطيئة الأصلية: 14
خطيئة الكنيسة: 218
الخلاصية: 161، 163، 175، 181، 225، 245
خلاصية أوروبا الغربية: 218
الخلاصية الثورية: 224
الخلاصية العسكرية: 168
الخلاصية المسيحية: 217
خليج هدسون: 119

- د -

داء البروسيلا: 43
داوود (الملك): 46، 154-157، 178، 181، 223
الدجاج: 140-141
الدجالون الدينيون: 186
الدراسات الأسطورية الموضوعية: 244
الدرنيات: 101، 116
الدستور الهندي: 19
دلهي (الهند): 18
دمشق: 156، 190
دنتان، روبرت: 122
الدواجن: 42، 44
دور رعاية الأبقار: 18، 30
الدورة الشعائرية: 79
الدول الحديثة: 136
دول الشركات: 241-242، 246
الدول القومية: 65
الدولة اليهودية: 155، 157، 168
دون خوان (البطل الشعبي): 235-241، 245
دير كلابريا: 218
ديفيل، ويليام ت.: 77
ديلا بورتا، جيامباتيستا: 211
الدين: 33

- ذ -

الذبح الجماعي للقطيع: 26
الذبح الشعائري: 51

- ر -

رابابورت، روي: 51-53، 55-56، 59، 66، 69، 73
راج، ك. ن.: 33
راسل، جيفري بورتون: 224-225
الرأسمالية: 126، 241، 251
الرأسمالية الأوروبية: 148

مكتبة الفكر الجديد

رايخ، تشارلز أ.: 233–234، 245
الرايخيون: 250
ربات البيوت الأميركيات: 24
ربة المنزل الهندية: 23
رجال الإكليروس: 208
الرجال المقدسون: 176، 180
رجل المعرفة: 235، 239
رحلات العقل: 253
رحلة السحر: 245
الرسل المسيحيون: 181
الرفاه الاجتماعي: 196
الرفاهية الدنيوية: 50
الرفاهية العلمية: 50
الرفاهية المادية: 127
الرمبيم (أشجار): 52–55، 60، 67–68، 75–76
روزاك، تيودور: 233، 235، 245
الروزاكيون: 250
روس، آيان: 103
روس، إريك: 103
روسيا: 71
روما: 143، 159–161، 163، 165، 168–169، 175، 178، 188–189، 191، 194، 196، 208–209، 219
ريزمان، بول: 235

– ز –

الزخم التنافسي: 118
الزراعة: 22، 46، 58، 72
زراعة الأرز: 33
الزراعة ضيقة النطاق: 31
الزراعة الهندية: 20، 23–24، 31، 33
الزعماء الأنبياء: 136
زعماء الديانة: 133، 140
زعماء القبائل: 115
الزعماء الميلانيزيون: 117
زكريا (النبي): 156، 181
الزن: 233
الزنا: 91، 99–100، 191
الزيادة السكانية: 49، 53، 58
زيت السمك: 113–114

– س –

الساحرات الأوروبيات: 210، 237
سالو البارون (المؤرخ): 195
سام (ابن نوح): 138
السامرة: 162
سبرينجر، جاكوب: 209، 224–225، 237، 245
ستالين، جوزيف: 252
الستالينية: 252
السحر الحديث: 245–246
السحر القديم: 245
سر الأحمال: 136، 138–139، 141، 143–144، 146

مكتبة الفكر الجديد

السـعرات الحرارية الغذائية: 68-69، 101-102
السعي التنافسي: 127
سفر أخنوخ: 159
سكسونيا السفلى: 220
السلافيون: 252
السلالة النبوية: 190
السلطات الرومانية: 164
السلطات اليهودية: 164
السلطة: 113، 126، 217، 225، 233-234، 242، 244
سلطة البابا: 218
سليمان (الملك): 46، 154
سمعان بطرس (الرسول): 181-182، 184، 189-192
سمك السلمون: 114، 126
السمك المجفف: 116
سمك اليلقون: 114، 126
سورنسون، آرثر: 74
سوريا: 162
السوق الاستهلاكية: 127
السياسات المحافظة: 222، 242
سياسات الوعي: 243
سيدني (أستراليا): 139، 142-143
السيطرة الجنسية: 88
سيوف الساموراي: 141

- ش -

شابيرو، جوديث: 93-94
شالومي (ابنة هيروديا): 177
الشامان: 92، 212، 235، 237-238، 240-241، 245
الشامانية: 238
شاؤول (الملك): 154
الشباب السود: 242
الشباب المقدس: 222
شبه القارة الهندية: 19
شحم الخنزير: 236
الشخصيات الوحشية: 106
الشخصية الاستبدادية: 89
شرائع حماية البقرة: 26
شرق آسيا: 140
الشرق الأوسط: 45-46، 48-50، 57، 60
الشروحات التلمودية: 158
شعب التابيرابي: 7
الشعب المختار: 155، 223
الشعوب الأمية: 11
الشعوب البدائية: 11، 66، 70، 77، 80، 123، 127، 235
الشعوب الحديثة: 154
الشعوب الغربية: 236، 238
الشعوب القبلية: 235
الشعوب القديمة: 154
الشعوب النهرية: 102
الشعوذة: 202، 240، 243
شمعون بن جيوراس: 194
شميد، كونراد: 220

مكتبة الفكر الجديد

شوابيا (ألمانيا): 219
شوفينية الذكور: 90، 92، 94، 106–107، 252
الشيطان: 201–202، 206–207، 210، 227، 249، 253
شينون، نابوليون: 90–93، 95–97، 99، 101، 103–104

– ص –

صحراء كالاهاري: 123
صحراء يهودا: 154، 162–165، 179
صحيفة **نيويورك تايمز**: 26
الصدع الأخلاقي: 253
الصراع الاستعماري: 147
صراع التحرر اليهودي: 157
الصراعات البدائية: 65–66، 69، 71
الصراعات الحربية: 70
الصقور: 49
صكوك الغفران: 219
صلاح الدين الأيوبي: 42
الصليب الأحمر: 135
صناعة الأجهزة: 111
صناعة تعليب اللحوم: 27
صناعة الجلود: 28
صناعة السيارات: 111
صناعة الملابس: 111
الصوفية: 233، 244
صيادو السحرة: 204، 209، 226
الصيد: 78–79
صيد الساحرات: 207، 209، 224، 226–227
الصين: 146

– ض –

ضريبة الأعشار: 208
الضغط السكاني: 68–69، 101
الضفادع: 57

– ط –

الطابوريون: 221، 225
الطاقة الاستيعابية للموطن: 125
الطاقة الإنتاجية الصناعية: 127
الطبقات الحاكمة: 128، 217، 225، 229
الطبقات الدنيا: 126–127، 221، 223، 228
الطبقات المالكة: 225
الطبقة الرومانية العليا: 196
الطبقة العليا: 28، 126–127، 160، 229
الطبقة المتوسطة: 27، 29، 32، 126–127، 242–243، 251
طبقة النبلاء: 228
الطبقة اليهودية الحاكمة: 159
الطبيعة: 9–10، 13–14
طرق التجارة: 65
الطغاة الهيروديسيون: 180

مكتبة الفكر الجديد

الطقوس الدينية: 208، 218-219
الطهارة الروحية: 179
طوائف الهرطقة: 208، 219، 224
الطوطم: 118
الطوطمية: 45

- ع -
العالم الجديد: 102، 237
العالم القديم: 160
العائلات الأميركية: 23
العائلات الغنية: 32
العائلات الفقيرة: 32
عبادة الأوثان: 191
عبادة البقرة: 17
عبادة الشيطان: 201، 224
العبرانيون: 45-46
العداء للسامية: 194، 252
العدالة الاقتصادية: 253
العدالة السياسية: 253
العدد السكاني: 71، 73، 79-81، 107، 119، 128
العدوانية: 106
العرض الجنسي: 97
العسكريون البدائيون: 90
العسل البري: 176، 179
عشبة الشيطان: 236-237
عشيرة تسمباغا: 52-53، 55-56، 58-60، 69، 72-74، 76-77، 79
العصابات المدنية: 160
العصابات اليهودية: 157، 159-161، 163، 167
العصر الحجري: 250
العصر الصناعي: 134
عصر العلم: 241
عصر النبلاء: 218
عصر النهضة: 42، 244
العصرنة: 34
عصور ما قبل الاتصالات: 103
العصيان المسلح: 161
العقبان: 49
عقبيا (كبير أحبار القدس): 168
العقل: 11
العقل الوحشي: 148
العقلانية: 233-234
العقلية الشرقية المبهمة: 26
العقول البدائية: 136
العلاقات الأبوية: 217
العلاقات الاقتصادية: 34
العلاقات الإنسانية: 238
العلاقات الأيديولوجية: 34
العلاقات البيئية: 70
العلاقات التكنولوجية: 34
العلاقات الديموغرافية: 34

مكتبة الفكر الجديد

العلاقات السياسية: 34
العلاقات الشامانية: 88
العلم: 11، 14، 233، 240، 251
علم الأساطير الشوفيني الذكوري: 106
علم أنماط الحياة: 243-244
علم التاريخ: 13
العلم الغربي: 233
علم الفلك: 233
علماء الأنثروبولوجيا: 111، 116، 118، 120
علماء البيئة: 69
العلوم الاجتماعية: 243
العلوم الحيوية: 243
العلوم السلوكية: 243، 252
العلوم الطبيعية: 252
العلوم المختبرية: 244
العمليات السببية: 250
عمون: 156
العنصرية: 252
العنف: 91، 95-96، 99، 221
العهد الجديد (من الإنجيل): 188
العهد الداوودي: 193
العهد الروماني: 217
العهد القديم (من الإنجيل): 156
عهد الوحدة المسيحية: 217
العهد اليوناني: 217
عيلام: 156

- غ -

الغابات الاستوائية: 74، 101
غابات الأمازون: 101
الغابات البرية: 102
الغابات المطيرة: 113
الغابة الاستوائية: 54
غاليلي، غاليليو: 211
غاندي (المهاتما): 19، 30-31
الغاية الاجتماعية: 13
الغذاء النباتي: 57
الغطاء النباتي: 69
غلاطية: 190
غوادالكانال: 116
غوتنغن (ألمانيا): 212
غوريك (نبي الأحمال): 143-145
الغيرة الجنسية: 100

- ف -

فادوس، كاسبيوس (الحاكم): 162، 164
فاليرو، هيلينا: 100، 103
فبلن، ثورشتين: 111
الفراعنة: 44
فرام، جون: 135
فرن الانفجار الآلي: 250
فرنسا: 208
الفروق الاجتماعية: 229

مكتبة الفكر الجديد

فرويد، سيغموند: 106
فريدريك الثاني (الإمبراطور): 218-220
الفريدريكيون المنقذون: 219
فريزر، جيمس: 44-45
الفساد الإداري: 158
فسباسيان (القائد): 160-161، 166، 189، 194
فلسطين: 46، 153، 155-158، 160-162، 165، 167، 176، 185، 189-190، 193-194، 217، 244
الفن: 13
الفناء المتبادل والشامل: 70
فنزويلا: 71، 90، 102
الفواكه البرية: 118
الفودواة: 208
فوري (منطقة): 74
الفوقية الذكورية: 87
فيتنام: 71، 253
الفيزياء: 14، 243-244

- ق -

قانون الرب: 222
القانون الروماني: 176، 196
القانون اليهودي: 160، 192
القاهرة: 42
قبائل الأمازون: 103
قبائل الأونداغاي: 58
القبائل البدائية: 65، 111
قبائل البشمان: 78، 123-127
قبائل السيماي: 122، 124
قبائل الكانديغي: 73-74
قبائل الكاواسي: 57
قبائل الكاوكا: 120، 122، 125
قبائل الكواكيوتل: 7، 112-115، 117، 119-120، 126
قبائل المارينغ: 51-55، 57-60، 65-75، 77-80، 97، 101، 105، 251
قبائل المونامبانت: 58
القبائل الهندية الأميركية: 90، 102، 112
قبائل اليانومامو: 7، 71-72، 90-94، 96-107، 251
قبيلة ياكي: 235، 238
القتال بالهراوة: 96
قتل الأطفال: 80، 101، 103-104، 106
القتل المنهجي: 105
القدس: 163-166، 175، 189-191، 193
القدسية الطقوسية: 76
القرآن: 45-47
القرود: 142
القرون الوسطى: 224، 227، 245

مكتبة الفكر الجديد

القرى الهندية النهرية: 102
قسطنطين (الإمبراطور): 196
قطاع الطرق: 159-162، 164-167، 169-170، 175-177، 182-184، 187، 194-195
قطاع الطرق الثوريون: 164
القطط: 142
قطن الكاليكو: 134
قمران: 179-180
القوات الاستعمارية: 149
القوات البحرية الأميركية: 135
قوات الدجالين الدينيين: 165
القوات العسكرية التقليدية: 107
القوات المناضلة: 147
قوانين الديناميكا الحرارية: 27
القوة الإمبراطورية: 155
القوة الخلاصية: 187
القوة الرومانية: 170
القوة السياسية: 242
القوة العسكرية: 77
القوميون اليهود: 158
القوى الانتقائية: 168
القوى الثقافية: 78
القوى الصناعية: 250
القوى العاملة: 119
قوى المعارضة: 246
القيادة النووية: 107
القيم التكنولوجية: 243
القيم الروحية: 17
القيم العلمية: 243

- ك -

الكاثوليك: 223
كارهو الخنزير: 41-42، 50
كاستانيدا، كارلوس: 8، 235-241
كالفن، جون: 224
كالكوتا (الهند): 18
الكتاب المقدس: 43، 45، 47، 49، 139
الكثافة السكانية: 69، 71، 102-103، 117، 127
كراهية الخنزير: 44-45، 60، 66
الكرملين: 252
كروموبل، أوليفر: 224
الكفاءة الإنتاجية: 35
الكلاب: 42، 141-142
الكنائس التبشيرية: 138
الكنائس المسيحية: 196
الكنس اليهودية: 193
الكنيسة: 208، 218-223، 225-229، 244
الكنيسة الأم: 192، 194
الكنيسة الكاثولوكية: 206
كولومبيا البريطانية: 112
كومار، موني شوستريل: 20
كومانوس (الحاكم): 164-165

مكتبة الفكر الجديد

كوهن، نورمان: 218–219، 249
كيليبوب (الإله): 140
الكيمياء: 14، 244

– ل –

لاغونا، أندريه: 210–211
لجنة عموم الأحزاب (الهند): 20
لحم البشر: 66
لحم الخنزير: 41–43، 48–49، 51، 56–57، 59
لحم العجل: 19، 25–28، 43
لحم الغزال: 7، 41
لحم الكلب: 41
لحوم الحيوانات: 191
اللحوم الدهنية: 123
لصاقات البيلادونا الجلدية: 212
اللغة الألمانية: 138
اللغة الإنكليزية: 138
اللغة العبرية: 190
لغة الكاوكا: 116
اللغة اليونانية: 154، 190
لوثر، مارتن: 222، 224
لورنز، كونراد: 106
لورنس، بيتر: 136، 144
لوقا (الرسول): 188
لي، ريتشارد: 122–123، 125
ليدن (هولندا): 223
ليدن، جون: 249
ليفينغستون، فرانك: 71
ليما (البيرو): 240
لينين، فلاديمير إيليتش: 249، 252

– م –

ماثياس، ياليوان: 135–136
ماثيس، جون: 223
مادانغ (نيو غينيا): 136، 140–141، 146–147
مادة الأتروبين: 212، 237
الماركسية: 218
الماريجوانا: 234
الماعز: 43–49
ماكلاي، ميكلوهو: 136
مالايا: 122
ماو تسي تونغ: 234
مبارزات المنجل: 96
مبارزات صفع الجانب: 95
المبشرون: 138–145، 147–149، 190، 219
المبشرون اللوثريون: 136
المتحف الإثنوغرافي العالمي: 111
المتحف الأميركي للتاريخ الطبيعي: 77
متحف كوينزلاند: 142–143
المتنافسون الحربيون – الخلاصيون: 165
متى (الرسول): 183
المثال القومي اليهودي: 193

مكتبة الفكر الجديد

المجاعة: 25-26، 118، 218، 227
مجتمع الحفارين: 224
المجتمع الصناعي: 125، 149، 251
المجتمعات البدائية: 69، 72، 77، 79، 81، 115، 127، 206
المجتمعات البشرية: 88
المجتمعات التكنوقراطية الحديثة: 241
المجتمعات الحديثة: 89
المجتمعات الصناعية عالية الطاقة: 22، 35
المجتمعات النامية: 11، 43
مجلة **التايم**: 240
مجلس الشيوخ الروماني: 159
المجمع الحربي - الصناعي: 234، 245
المجمع الزراعي والصناعي ذو الطاقة العالية: 34-35
المحار: 49-50
محارب الكراو: 66
المحاربون: 56
محاكم التفتيش البابوية: 208، 212، 226، 238، 241، 245
محبو الخنزير: 41، 50-51
المحرمات الدينية: 25، 32
محفل السحرة: 201، 212
المحكمة اليهودية العليا: 185
محكمة أورشليم: 194
محمد (الرسول): 41
المحيط الهادئ: 41، 118، 135
المختبرات الحيوية: 244
المخدرات: 91-92، 234
مخطوطات البحر الميت: 177، 188
المخلّص: 159-161، 166، 181-182، 184، 187-189، 195، 251
المخلّص الحربي المنتقم: 157، 169، 187
المخلّص العلماني: 249
المخلّص المسالم: 169-170، 184، 187، 189، 195-196
المخلّصون: 8-9، 11-12، 201، 253
المخلّصون الحربيون: 249
المخلّصون المنتظرون الحربيون: 167، 185
المدارس التبشيرية: 138
مدراس (الهند): 18، 29
مدرسة الأحد: 181
المدرسة الحديثة للبحوث الاجتماعية: 210
المديانيون: 223
مراهم الهلوسة: 213
مرض الجمرة الخبيثة: 43-44

مكتبة الفكر الجديد

مرقس (الرسول): 187، 192
مريم العذراء: 17، 221–222
المزارع الهندوسي: 25، 32، 51، 77
المزارع الهندي: 21–22، 28
مزارع قصب السكر: 141
المزارَعة: 21
المزارعون الأميركيون: 22
المزرعة العائلية الصغيرة: 23
مسابقات ضرب الرأس: 92
مسابقات قرع الصدور: 92، 94–96، 98
المستوطنات البرازيلية: 102
المستوطنات الفنزويلية: 102
المستوطنون الإسبان: 102
المستوطنون الأميركيون: 118
المستوطنون الإنكليز: 118
المستوطنون البرتغاليون: 102
المستوطنون الروس: 118
المستوطنون الكنديون: 118
المسلمون: 7، 12، 19، 28، 32، 41–44، 49–50، 58
المسيح: 8، 135، 138–140، 143، 153–154، 157–157، 163–164، 167، 169، 175–177، 180–190، 192–196، 218–219، 221–224، 234
المسيحية: 92، 138–139، 143، 145–146، 153، 191، 193، 195–196، 242
المسيحيون: 17، 28، 32، 41، 138، 146، 153، 189، 191، 195
المسيحيون اليهود: 175، 188–189، 191، 193، 195، 249
المسيرة اليهودية الحربية: 154
المشروبات الروحية: 146
المشعوذون: 67
المصادر الطبيعية: 65
مصر: 44، 46، 156
المظالم الاجتماعية: 157، 217
المظالم الاقتصادية: 157، 217
المعارك الحربية: 72
معايير التغذية: 57
المعتقد السحري: 213
المعتقدات المسيحية: 153
المعتقدات الوطنية: 186
معدل النمو السكاني: 69، 71، 73، 76، 79، 105
المعرفة العلمية: 14، 240
معسكرات العبيد السيبيرية: 252
المعمودية: 218، 220، 223، 225
المعهد الوطني للصحة: 74

مكتبة الفكر الجديد

معهد مجلس الأبحاث الزراعية لفيزيولوجيا الحيوان (كامبريدج): 47
المغنون الفاجنريون: 252
المقاتلات الأميركية: 135
المقاتلون: 67
مقاطعة سنغور (البنغال): 35
المقاومة الجماعية: 169
المقدرة العسكرية: 59، 98
المكاسب الرأسمالية: 242
المكافآت الجنسية: 106
المكانة الرفيعة: 111-113، 117-120، 125-127
المكسيك: 238
ملك اليهود: 186-187
الملكيات المشتركة: 124
الملكيات الوطنية القوية: 217
الملكية الخاصة: 219، 222-226، 234
الممارسات الهندوسية: 30
ممارسة السحر: 66، 120-121
ممالك اليهود الأرضية: 154
الممتلكات الدنيوية: 242
الممسوح: 167
المملكة الحيوانية: 87
مملكة الرب اللوثرية: 222
مملكة الرب المسيحية: 195، 222-223، 242
مملكة الروح: 218
مملكة القديسين: 153، 224
مناحيم (ابن يهوذا الجليل): 166-167، 170، 249
المناطق الاستعمارية: 148
مناطق البداوة: 46
المنافسة: 234
المنبوذون: 27-28
المنتجات التكنولوجية: 243
المنتوجات الصناعية: 134
منح الهدايا: 121، 124-126
منشر، جوان: 27، 29
المنطق: 11، 233-234
المنطقة العربية: 190
المنظمات الكنسية: 208
المنظور التطوري: 119
منظومات الهيبة والنفوذ: 242
المنقذون الدينيون: 249
المنقذون المسيحيون - اليهود: 249
مهرجان الخنزير (الكايكو): 51-53، 55-56، 58-60، 67، 69-70، 73، 75
مهرجان الشتاء (بوتلاتش): 7، 112-120، 242
المهلوسات: 235
الموارد الشحيحة: 104
الموارد الغذائية الطبيعية: 125
المواشي النافقة: 27-28

مكتبة الفكر الجديد

المواطنية الرومانية: 161، 190، 193
مورغان، لويس هنري: 89
موز الجنة: 101-102
مؤسسات خفض النمو: 69
المؤسسة الدينية: 229
المؤسسة العلمية: 9
مؤسسة فورد: 18، 29
موسوليني، بنيتو: 249
موسى (النبي): 44، 155
الموضوعية: 233-235، 238، 241، 245، 251-252
الموضوعية العلمية: 251-253
مومباي (الهند): 18
مونتزر، توماس: 222-223، 249
مونستر (ألمانيا): 223
مؤيدو الحركة النسائية: 87، 89، 105، 107
الميثاق الجديد: 170
الميثاق القديم: 170
ميثولوجيا السكان المحليون: 138
ميخا (النبي): 156
ميدلفورت، هـ. س. إريك: 228
ميفارث، جوهان ماتيوس: 204-205
ميلانو (إيطاليا): 240
ميلانيزيا: 115، 244
ميناء مورسبي: 142، 144

- ن -

نبات الداتورا: 237-238
النباتات الأوروبية: 212
النباتات المنزلية: 125
النبلاء الألمان: 222
النبلاء الفرنسيون: 208
النبوءات الانتقامية: 157
نبوخذنصر (الملك): 155
النبي الدجال: 165، 167
نزاع الأبقار: 19
النزاع المسلح: 79، 81، 87، 97، 128
نزاع بيهار (1917): 19
النزاعات الطائفية الدامية: 19
النزعة الخلاصية: 244
النزعة الخلاصية الأوروبية: 224
النزعة الخلاصية اليهودية الحربية: 168، 175-177، 180، 182، 184، 186، 188-189
النسبية اللاأخلاقية: 245
النسور: 49
النصر الروماني: 175
النصرانية: 169، 193، 210
النضال السياسي: 250
النظام الأخلاقي: 245
النظام الأمومي: 89-90
النظام الإيكولوجي الهندي: 22

مكتبة الفكر الجديد

النظام البيئي: 22، 27، 34، 46، 73، 125
النظام الحديث للإنتاج المؤتمت: 35
نظام الرجال الزعماء: 133، 137، 145، 148
النظام الزراعي: 33، 58
النظام الغذائي: 123
النظام الفرنسيسكاني: 218
النظريات الغريزية العدوانية: 70
نظرية الأحمال: 135
النظم الاجتماعية: 89، 106، 244
النظم الاقتصادية: 34، 115، 126
النقب: 46-47
النقد الاجتماعي: 225
النقص الغذائي: 69
نقص النساء: 100
نمط الحياة غير العقلاني: 168
نمط الحياة المسيحي: 154
نمط الحياة اليهودي الحربي الخلاصي: 167-168
النمل: 41
نهاية العالم: 224
نهر الأردن: 164، 176، 180
نهر أورينوكو: 100، 102
نهر التايمز: 80
نهر لوزنيكا: 221
نهر مافاكا: 102
نوح (النبي): 138
نيرون (الإمبراطور): 166، 194-195
نيكلاشاوزن (ألمانيا): 222
نيو غينيا: 9، 41، 51، 60، 74، 115، 138، 140، 142-143، 146، 153، 220
نيو هبرايدز: 8، 135
نيوس (ألمانيا): 219

- هـ -

هارلم (هولندا): 223
هارنر، ميشيل: 210-212، 237
هاري كريشنا: 233
هتلر، أدولف: 249
الهجوم النووي: 65
الهدنة: 97
هدنة الرمبيم: 54، 59، 68
الهراطقة: 208-209
الهرم الاجتماعي: 229
هستون، آلان: 31
الهستيريا الجماعية: 136
الهند: 8، 17-23، 25، 27-28، 30-31، 33-36، 77
الهندوس: 7، 11-12، 18-19، 26-27
الهندوسية: 9، 26، 33-34
هنري لي، تشارلز: 202
هنزيلمان، رولاند: 139

مكتبة الفكر الجديد

هنود أميركا الجنوبية: 7، 11
هنود الجيفارو: 66، 212
الهنود الحفارون: 11، 14
هنود القدم: 102
هنيبعل: 168
هوت، هانس: 223
الهوس بالمكانة: 115-116
هوغبين، أيان: 116
هوفمان، ملشوار: 223
الهوية الاجتماعية: 12
الهيبة الإنسانية: 50
هيرودس أنتيباس (الملك): 159، 161-162، 176-177، 180-181
هيروديا: 176-177، 183
الهيمالايا: 33

- و -

وادي الأردن (فلسطين): 46-47، 176
واشنطن: 112
واشنطن، جورج: 168
الوثنية: 143، 145-146، 181
الوحشية: 105
وسائل الإعلام: 127
وسائل منع الحمل: 80
وستفاليا (ألمانيا): 223
الوعي: 234، 241-242، 244، 253
الوعي الإنساني: 13
الوعي البدائي: 235
الوعي الثالث: 233-234، 238، 240-245، 250-251
الوع،ي الحربي - المسيحي: 158، 250
الوعي الزائف: 13، 234
الوعي السائد: 244
الوعي السياسي: 246
الوعي الشاماني: 238
وعي الطبيعة: 13
الوعي العادي: 13
الوعي الفائق: 251
الوعي المسيحي: 242
الوعي الموضوعي: 233، 238، 253
وعي اليهود الحربي - الخلاصي: 161، 169
الوعي اليومي: 13
الولايات المتحدة الأميركية: 23، 27، 35-36، 65، 111، 135، 146
الولائم التنافسية: 115، 117، 119-120، 125-126
ولائم الزيوت: 114-115
الولائم الغادرة: 98
الولائم المعجزة: 221
الولائم المقدسة: 51

مكتبة الفكر الجديد

الولدانيون: 208، 210
وليمة الخنزير الكبرى: 51
وينستانلي، جيرارد: 224

- ي -

اليابان: 140، 146
يافث (ابن نوح): 138
يالي (النبي): 141-146، 148، 249
اليد العاملة الرخيصة: 65
يعقوب (من تلامذة المسيح): 183، 189-193
يعقوب (النبي): 178
اليهود: 7، 9، 12، 41-44، 49-50، 58، 139، 153-159، 161-163، 166-170، 175-178، 185، 187-195، 220
اليهودية: 9، 92، 153، 180، 189-190، 192، 195
يهوذا الإسخريوطي: 182-184
يهوذا الجليل (ابن حزقيا): 162-163، 167، 169-170، 175، 185
يواكيم الفيوري: 218-219، 221
يوحانان (الحبر): 158
يوحنا (الرسول): 183، 189، 192
يوحنا المعمدان: 167، 176-177، 179-181، 183-184
يوسف (النبي): 46
يوسيفوس، فلافيوس: 160-168، 176، 180-182، 184، 186-187
يوليوس قيصر: 162
يوم القيامة: 220

هذا الكتاب

يبحث هذا الكتاب في أنماط من الحياة تبدو أول وهلة لاعقلانية وغير قابلة للتفسير. بعض هذه الأعراف المحيّرة يظهر بين الشعوب الأميّة أو "البدائية" – خذ مثلاً زعماء الهنود الحمر الأميركيين الذين يحرقون ممتلكاتهم كي يثبتوا كم هم أغنياء. وآخرون ينتمون إلى مجتمعات نامية، مثل الهندوس الذين يأبون أن يأكلوا لحم الأبقار ولو تضوّروا جوعًا. ومع ذلك لا يزال لدى الآخرين ما يقومون به تجاه المخلّصين والساحرات وهم جزء من تيار حضارتنا الخاصة. وكي يبلور الكاتب وجهة نظره، اختار بأناة حالات شاذة وخلافية قد تلوح وكأنها ألغاز عصية على الحل.

المؤلف

مارڤن هاريس (1927-2001) كان أستاذًا في جامعة كولومبيا منذ عام 1953 ورئيسًا لقسم الأنثروبولوجيا فيها بين عامي 1963 و1966، ومحاضرًا زائرًا في معظم الكليات والجامعات الكبرى في الولايات المتحدة. بحث ميدانيًا الجوانب الثقافية للعلاقات الإثنية والعرقية وآثار الحقبة الكولونيالية ومشكلات نقص النمو من منظور بيئي في البرازيل وموزمبيق والإكوادور، وكان رائدًا في استخدام تقنيات التصوير بالفيديو في دراسته الحياة الأسرية في هذه البلدان. له كتب عدة، منها **نشوء النظرية الأنثروبولوجية: تاريخ النظريات الثقافية، والثقافة، الإنسان والطبيعة: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة**، إلى جانب بحوث أنثروبولوجية كثيرة منشورة في دوريات محكمة.

المترجم

أحمد م. أحمد شاعر وكاتب ومترجم من سورية. صدر له: **جمجمة الوقت** (قصص، 1993)، **أحرق سفنه إلّا نعشًا** (نصوص، 2013). من ترجماته: **العالم لا ينتهي**، لتشارلز سيميك؛ **رجل في الظلام**، لبول أوستر؛ **مع بورخيس**، لألبرتو مانغويل.

- فلسفة وفكر
- اقتصاد وتنمية
- لسانيات
- آداب وفنون
- تاريخ
- علم اجتماع وأنثروبولوجيا
- أديان ودراسات إسلامية
- علوم سياسية وعلاقات دولية

السعر: 10 دولارات
ISBN 978-614-445-130-4

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies